محمد عبد المنعم خفاجي

تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(٣)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ○
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ○ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ○

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين . . وبعد :

فهذا هو الجزء الثالث ، من تفسيرى لكتاب الله ، الذى ضمنته شرحا جديداً للقرآن ، وأسلوبا طريفا فى فهمه وتذوقه ، وإدراك مراميه ، وتمثل معانيه ، والكشف عن حقائقه وأصوله .

وسوف يصدر هذا التفسير بعون الله ورعايته فى ثلاثين جزءاً ، أرجو أن تظهر فى أمد قريب ، ووقت قصير .

والقارىء يدرك مدى ما يأخذه كتابة هذا التفسير ونشره ، من جهد مبذول ، وعمل موصول ؛ وهو وحده حرى بأن يقف على مميزات هذا التفسير ، الذى يجعل القرآن الكريم وكل سورة منه وحدة واحدة ، متصلة الحلقات ، مباركة الهداية .

ومن الله التوفيق ، وأسأله العون والسداد ، إنه أكرم مأمول ، وأفضل مسئول . وما توفيق إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

تمهيد

(١)

هذا الجزء من التفسير، كالأجزاء السابقة، ينطق عما بذل فيه من جهود، تهدف إلى الكشف عن روح القرآن الكريم ومراميه وأسراره ومبادئه ومثله وأفكاره.

وليس من عادتنا النظر إلى كتاب الله آية آية، ومعنى معنى. وإنما ننظر إليه فكرة فكرة، وموضوعا موضوعا، نصل اللاحق بالسابق، ونتم السابق باللاحق؛ ونعرف أن وراء كل سورة هدفا وغاية ومرمى ترمز إليه، وتدل عليه.. وهذا هو الفرق بيننا وبين سائر المفسرين الذين يتناولون كتاب الله كلمة كلمة وجملة جملة وآية آية ومعنى معنى من المعانى الجزئية، بينما نتناوله جملة من الآيات تدل على موضوع واحد، وننتقل منها إلى جملة أخرى ذات موضوع جديد آخر..

نعرف بمعنى كل جملة من الآيات، وما يكمن فيها من إشارات وأسرار ولطائف عديدة، وما ترشد إليه من أحكام وأخلاق وآداب، وما توحى به من مبادىء ومثل وقيم ناظرين فى ذلك كله بروح العلم الحديث، والمدنية الماثلة فى كل شىء.. مع العناية بتصوير الجو الروحى الذى نزلت فيه الآيات، وأسباب نزولها، وصلتها بما قبلها وما بعدها، ومع شديد الاهتمام بالجوانب الفنية العامة فى أسلوب القرآن والبعد ما أمكن عن الاصطلاحات والمصطلحات، لأن القرآن هداية عامة، فيجب أن يكون تفسيره بأسلوب حديث سهل، يدركه الناس كافة، لا فرق بين عامتهم وخاصتهم على حد سواء.

إن القرآن الكريم يجب أن تخلو تفاسيره من الغموض والإبهام، ومن الاصطلاحات فى النحو والبيان وسواهما، ومن كل ما يعوق دون الفهم والإفهام. وهذا هو صنيعنا فى هذا التفسير، الذى نرجو أن يكون خالصا لوجهه الكريم..

(٢)

وماذا نقول والموضوع كتاب الله ، والمقصود خدمة هذا الكتاب وتقريب هدايته للناس ، هذه الهداية التي هي آخر الرسالات ، ونهاية النبوات، وخاتمة الدعوات السماوية التي نزل بها جبريل من السماء إلى الأرض .

في سبيل ذلك يكون من الحظ الأوفى أن يعمل العاملون ، ويكدح الكادحون ، ويجتهد المجتهدون .. ولي من هذا الحظ ما يملأ لساني ثناء وفداء، وقلبي تفرغا ودعاء ، إلى الله ، بأن يجعل هذا العمل المبرور خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفق لإكماله وإتمامه ، بقدرته ومشيئته ، إنه على ما يشاء قدير .

(٣)

وعندما يكمل هذا التفسير وتنتهي أجزاؤه الثلاثون ، سوف يدرك الناس بعون الله وفضله أنهم أمام موسوعة إسلامية ضخمة ، تتناول القرآن الكريم ، ومبادئه ، والإسلام وأصوله ، والحياة الإنسانية وأطوارها ، وتشريعات الرسالة المحمدية وأحكامها ، بالتفصيل والشرح والبيان.. بما ليس بعده بيان .

وأسلوب العصر الحديث وروحه في الفهم والكتابة والبيان واضحان كل الوضوح في هذا التفسير مما يعد ميزة جديدة أخرى له .

(٤)

وإني لأضرع إلى الله عز وجل أن يؤيد هذا المسعى ، ويبارك تلك الخطى، إنه سميع الدعاء ، وولي العاملين ، ونصير الطائعين المخلصين .. وما توفيقي إلا بالله ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير آيات الجزء الثالث

من كتاب الله الكريم

٢٥٣ — تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

هذه الآية الشريفة تؤيد الآية التى سبقت فى الجزء الثانى،وهى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ففى هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها ، يؤكد الله عز وجل وحدة الدين الحق ووحدة الرسالة الإلهية ، ويذكر فضل الرسل واختصاص بعضهم بفضل الله عز وجل : كموسى كليم الله، وعيسى الذى أنزل الله عز وجل عليه الإنجيل وأيده بالروح القدس . وقد ورث محمد صلوات الله وسلامه عليه هذه الرسالات وبنى عليها ، ولكن الناس من رأيهم محاربة الرسالات والخروج عليها والكفر بها . ومن دأبهم الاختلاف حول العقيدة الصحيحة ، فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر .

والآية السابقة أفادت هذه المعانى أيضا ، مع زيادة تفصيل ، مما يعرف فى شرحنا عليها سابقا .

وقوله تعالى : « تلك الرسل » إشارة إلى علو مرتبتهم ومنزلتهم ، وأنها بالمحل الرفيع الذى لا ينال والمقام الذى لا يطال ، أى تلك الرسل التى ذكرت قصصها فى السورة أو الذى ثبت علمها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

أو جماعة الرسل؛ فاللام للاستغراق والخبر «فضلنا بعضهم على بعض» بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره لما أوجب ذلك فى تفاضلهم فى الجناب بعد أن فضلنا الجميع بالرسالة، ولما كان أكثر السورة فى بنى إسرائيل ، وأكثر ذلك فى أتباع موسى عليه الصلاة والسلام - ذكر وصفه مع وصف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقال : « منهم من كلم الله » بلا واسطة ، وهو موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم كلم موسى ليلة الحيرة ، أى تحيره فى معرفة طريقه من مسيره من مدين إلى مصر ، وفى الطور . وكلم محمدا ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى، وبين المقامين بون عظيم ، وممن كلم الله أيضا آدم كما ورد فى الحديث « ورفع بعضهم » وهو محمد صلى الله عليه وسلم «درجات» على غيره بعموم الدعوة، وختم النبوة به، والأتباع الكثيرة فى الأزمان الطويلة ، ونسخ جميع الشرائع ، وبكونه رحمة للعالمين وتفضيل أمته على سائر الأمم، وبالمعجزات المتكاثرة المستمرة، وأظهرها القرآن الذى عجز أهل السموات والأرض عن الإتيان بسورة من مثله ، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والفضائل العلمية والعملية الغالبة للحصر ، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الأنبياء؛ لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات ، وبانشقاق القمر بإشارته ، وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى ، وروى عنه صلوات الله عليه أنه قال : «ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» وروى عنه أنه قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب من مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » ، وروى عنه أنه قال : فضلت على الأنبياء بست: أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبوة « وآتينا عيسى بن مريم البينات » من إحياء الموتى وغيره « وأيدناه »

أ ى قويناه « بروح القدس » وهو جبريل يسير معه حيث سار . وخص عيسى عليه السلام باسمه لإفراط اليهود فى تحقيره والنصارى فى تعظيمه، حيث قالوا: هو ابن الله، وأبهم محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (بعضهم) حيث لم يقل: ورفع محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ لما فى الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى ، لما فيه من الشهادة على أنه العَلَم الذى لا يشتبه والمتميز الذى لا يلتبس ، ويقال للرجل : من فعل هذا ؟ فيقال : أحدكم أو بعضكم، يراد به الذى يعرف ويشتهر فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه . وسئل الحطيئة عن أشعر الناس فذكر زهيرا والنابغة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث - أراد نفسه - ولو قال: لذكرت نفسى، لم يفخم أمره « ولو شاء الله » أى الذى له جميع الأمر ، هدى الناس جميعا باتفاقهم على دين واحد « مااقتتل الذين من بعدهم » ى بعد الرسل ما اقتتلت أممهم « من بعد ماجاءتهم البينات » أى المعجزات الواضحات على أيدى رسلهم لاختلافهم فى الدين وتضليل بعضهم بعضا « ولكن اختلفوا » كمشيئته تعالى ذلك « فمنهم » أى فتسبب على اختلافهم أن كان منهم « من آمن » أى ثبت على إيمانه « ومنهم من كفر » ولما كان من الناس من أعمى الله قلبه فنسب أفعال المختارين من الخلق إليهم استقلالا، قال الله تعالى معلما أن الكل بخلقه تأكيدا لما مضى من ذلك وإعادة لذكر اسم الله الأعظم « ولو شاء الله مااقتتلوا » بعد اختلافهم بالإيمان والكفر « ولكن الله يفعل مايريد » فيوفق من يشاء فضلا منه ويخذل من يشاء عدلا منه، والآية دليل على أن الأنبياء متفاوتة الأقدار وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض ، وأن الحوادث بيد الله لقوله تعالى « يفعل الله مايريد » تابعة لمشيئته خيرا كانت أو شرا إيمانا أو كفرا .

وهذه الآية الشريفة من أرفع الآيات وأروعها ، وكان الكلام قبلها فى طلب بذل المال والنفس فى سبيل الله تعالى ، فأراد الله عز وجل أن يقوى النفوس على القيام بذلك، فذكر الأنبياء المرسلين الذين كانوا أقطاب الهداية ، ومحل التوفيق منه والعناية ، الذين بين الدليل فى آخر السياق الماضى على أن

المخاطب بهذا القرآن الذى فيه سيرتهم منهم ـ وكان قد ذكر قبل ذلك داود وما آتاه الله من الملك والنبوة ـ ذكرهم مبينا تفضيل بعضهم على بعض ، وخص بالذكر أو الوصف من بقى لهم أتباع، وذكر ما كان من أمر أتباعهم من بعدهم فى الاختلاف والاقتتال ، ثم عاد بعد ذلك إلى الموضوع الأول وهو الإنفاق وبذل المال فى سبيل الله لكن بأسلوب آخر .

ومعنى هذه الآية إجمالا هو أن الله عز وجل خلق الإنسان وجعل له عقلا يتصرف فى أنواع شعوره، وفكرا يجول فى طرق حاجاته البدنية والنفسية، وجعل ارتقاءه فى إدراكه وأفكاره كسبيا ، ينشأ ضعيفا فيقوى بالتدريج حسب التربية التى يحاط بها والتعليم الذى يتلقاه وتأثير حوادث الزمان والمكان والأسوة والتجارب فيه. وجعل هداية الدين له أمرا اختياريا لا وصفا اضطراريا، فهى معروضة أمامه، يأخذ منها بقدر استعداده وفكره كما هو شأنه فى الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون . هذه هى سنته تعالى فى الإنسان، وهى منشأ الاختلاف، فهو يقول: لو شاء الله أن لا يجعل سنته فى تبليغ الدين وعرضه على الناس هكذا بأن يجعله من إلهاماتهم العامة وشعورهم الفطرى كشعور الحيوان وإلهامه ما فيه منفعته لكانوا فى هداية الدين سواء يسعدون به أجمعين ، فتمنعهم بيناته أن يختلفوا فيقتتلوا ، ولكنه خلق الإنسان على غير ما خلق عليه الحيوان ، وكان ذلك سبب اختلاف أهل الأديان ، فمنهم من آمن إيمانا صحيحاً فأخذ الدين على وجهه ، إذ فهمه حق فهمه ، ومنهم من لبسه مقلوباً وحكم هواه فى تأويله فكان كافرا به فى الحقيقة ، وإن كان غاليا فيما أحدث فيه من مذهب أو طريقة ، وكان ذلك مدعاة التخاصم ، وسبب التنازع والتقاتل. اختلف اليهود فى دينهم فاقتتلوا، وأما النصارى فلم تختلف أمة اختلافهم ، ولم يقتتل أهل المذاهب فى دين من الأديان اقتتالهم ، بل كان المذهب الواحد من مذاهبهم يتشعب إلى شعب يقاتل بعضها بعضا : وكان يجب أن يحذر المسلمون من هذا الاختلاف أشد الحذر ، لكثرة ما نهاهم الله عن الاختلاف وأنذرهم العذاب عليه فى الدنيا والآخرة ، وقد امتثلوا أمره تعالى بالاتحاد

والاعتصام ، وانتهوا عما نهاهم عنه من التفرق والاختلاف ، فى عصر صاحب الرسالة وفترة من الزمن بعده، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، ثم لم يلبثوا أن ذهبوا فى الدين مذاهب ، وفرقوا دينهم ، فكانوا فى شريعته مشارب ، فاقتتلوا فى الدين قليلا ، وفى السياسة التى صبغوها بصبغة الدين كثيراً ، وقد تمادوا فى هذا الشقاق والاختلاف ، فانتهوا إلى زمن صاروا فيه أبعد الأمم عن الاتفاق والائتلاف ، ولو شاء الله لخلقهم وجعل الدين فيهم إلهاماً وشعوراً فطرياً كالحيوان فما اقتتلوا وما اختلفوا ؛ ولكن الله ميز الإنسان عن الحيوان ، وجعل للإنسان عقلا يميز به ، وجعل الناس مختلفين فى الفهم والإدراك. يفعل الله ما يشاء ويحكم بما يريد .

وفى هذه الآية الشريفة تنويه بمحمد صلى الله عليه وسلم ورفع لدرجته ، ولو كان سبب تفضيله وحده هو أنه النبى الذى أنزل عليه القرآن من بين الكتب السماوية لكفى ، فالقرآن الكريم قد حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ، ونقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها ، وحكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقصه علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالاتهم . آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى أحكامهم ، وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم . وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ، ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته . ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم . ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم ، إنصرافها فى السبيل المستقيم الواضح .

والأمة الإسلامية سبب عزها هو القرآن ، وسبب مجدها هو القرآن ،

قال الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

وعلى أساس القرآن شب الإسلام عزيزا لا يعرف الذل ، كريما لا يقبل الضيم ، وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به فى الآفاق نافذ السلطان رفيع المكان ، ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل . حسبوا الأمر مغانم تقسم ، وأسلابا توزع ، ودنيا مملوءة بالملذات ، فيها دعة وسكون ، وترف ومجون ، وطال عليهم الأمد فى ذلك فقست قلوبهم ، وصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهى ، فساءت حالهم وصبروا على الذل واطمأنوا إليه .

إن الوجود قد كان ولا زال مصدقا لما جاء به الكتاب العزيز من إهلاك الاختلاف فى الدين للأمم وإفساده للدين نفسه . ولم يذكر كتاب الله هذا المرض الاجتماعى إلا وقد بين علاجه للمسلمين ، وهو تحكيم الله تعالى فيما اختلفوا فيه ، ورد ما كان من المصالح الدنيوية والأمور السياسية إلى أولى الأمر ، وأولو الأمر هم أهل الرأى من كبراء الصحابة عليهم الرضوان ، الذين يعرفون وجوه المصلحة مع فهم القرآن ، وهكذا يجب أن يكون فى الأمة رجال أهل بصيرة ورأى فى سياستها ومصالحها الاجتماعية وقدرة على الاستنباط ، يرد إليهم أمر الأمن والخوف وسائر الأمور الاجتماعية ، والسياسية . وهؤلاء هم الذين يسمون فى عرف الإسلام : أهل الشورى وأهل الحل والعقد .

والاختلاف فى الأمم دائما هو نذير هلاكها ، وسبب فسادها ، والعامل الأول فى انهيارها ، وأشد ألوان الاختلاف ضررا الاختلاف فى العقيدة ، فليحذر المسلمون الاختلاف ، وليعملوا على أن يعودوا أمة واحدة كما كانوا ، ولتسدهم وحدة إسلامية كاملة لا بد منها ، وهى واقعة لا ريب فيها ، وآتية دون شك أو مين ، وعندئذ يعود للإسلام مجده ، وتعود للمسلمين العزة والقوة والمنعة فى الأرض .

إن الإسلام لن يعود إليه مجده إلا إذا عاد المسلمون إلى وحدتهم الأولى الشاملة الكاملة ، وقامت لهم دولة مترامية الأطراف أو دول يحكمها تشريع واحد ، ويسودها اقتصاد واحد ، ويدافع عنها جيش واحد . وإن كان مكونا من آلاف الفرق ومن كل الشعوب الإسلامية .

والقومية الإسلامية هي التي لو عادت إلى الوجود مرة أخرى ، لأرهبت المستعمرين ، وأدالت دولة الكافرين ، وقد بدأت تباشيرها بحمد الله في القومية العربية التي انطلقت من عقالها وازدهرت بعد ذبولها ؛ وهي تجمع جزءا من العالم الإسلامي ، والمأمول أن تجمع كل شعوب المسلمين على كلمة الله والدين والحق والخير والسلام .

٢٥٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ .

في هذه الآية الكريمة يتجلى اهتمام القرآن الكريم بشئون المجتمع وتنظيمه تنظيما دقيقا ، ولقد حل القرآن الكريم مشكلة الفقر حلا حاسما ، وأوجد علاقة طيبة بين الفقراء والأغنياء ، وأمر بالإنفاق دون أن يقيده بموضع ، دلالة على أن الإنفاق واجب في كل موضع يستحق الإنفاق ، وكل مكان يستدعي البذل .

والمراد بالإنفاق هنا الإنفاق الواجب ؛ لأن الكلام يتضمن الوعيد على الترك ، وهو لا يكون إلا على ترك الواجب ، وقال بعضهم : بل يشتمل المندوب . ومن الواجب على أغنياء المسلمين إذا وقع الفساد في الأمة وتوقفت إزالته على المال ، أن يبذلوه لدفع المفاسد الفاشية والغوائل الغاشية وحفظ المصالح العامة . وفي قوله تعالى « مما رزقناكم » إشعار بأنه لا يطلب منهم إلا بعض ما جعلهم مستخلفين فيه من رزقه ونعمه عليهم . كأنه يقول : إننا ما رزقناكم

الرزق الحسن واستخلفناكم فيه إلا وقد نقلناه من أيدى قوم أساءوا التصرف؛ فحبسوا المال وأمسكوه عن المصالح والمنافع التى يرتقى بها شأن البشر بالتعاون على البر والخير، فلا تكونوا مثلهم؛ فإنهم ظلموا أنفسهم وقومهم ببخلهم، فكانوا كافرين بنعم الله تعالى عليهم إذ لم يضعوها فى مواضعها ، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى : « والكافرون هم الظالمون » .

والمراد بالبيع هنا الكسب بأى نوع من أنواع المبادلة والمعاوضة ، والمراد بالخلة ـ التى هى الصداقة والمحبة للقرابة وغيرها ـ لازمها ، وهو ما يكون وراءها من الكسب : كالصلة والهدية والوصية والإرث . والمراد بالشفاعة لازمها فى الكسب وهو ما يكون من إقطاعات الملوك والأمراء لبعض الناس، وإنما يكون غالبا بالتوسل إليهم والشفاعة عندهم ، فهذه الثلاث من طرائق جمع المال وسعة الرزق فى الدنيا ، فهو يقول : يا أيها الذين آمنوا بادروا إلى الإنفاق فى سبيل الله مما تناله أيديكم وأنتم متمكنون منه ابتغاء مرضاة الله به قبل أن يأتى يوم الجزاء الذى لا تجدون فيه ما تتقربون به إليه مما يكسب ببيع وتجارة ، ولا مما ينال بخلة أو شفاعة ، فإنه هو اليوم الذى يظهر فيه فقر العباد وكون الملك لله المهيمن العزيز الجبار .

وقيل : المراد بالبيع الافتداء ، وجعلوا فيه الخلة والشفاعة على ظاهرهما ، أى أنفقوا فإن الانفاق فى سبيل الخير والبر ، وهى سبيل الله ، هو الذى ينجيكم فى ذلك اليوم الذى لا ينجى البخلاء فيه من عذاب الله تعالى فداء فيفتدوا منه أنفسهم ، ولا خلة يحمل فيها خليل شيئا من أوزار خليله أو يهبه شيئا من حسناته ، ولا شفاعة يؤثر بها الشفيع فى إرادة الله تعالى ، فيحولها عن مجازاة الكافر بالنعمة الباخل بالصدقة المستحق للمقت والعقوبة بتدنيس نفسه وتدسيتها فى الدنيا، فهذه الآية فى معنى قوله تعالى فى هذه السورة « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » فقوله لا تجزى نفس عن نفس شيئا بمعنى نفى الخلة هنا ، والعدل هو الفداء بالعوض، وهو بمعنى البيع المنفى هنا . ومثلها آية ١٢٣ . والخطاب فى تينك الآيتين لبنى

إسرائيل الذين كانوا فى عصر التنزيل يقيسون أمور الدنيا على أمور الآخرة، كما هو شأن الوثنيين، فيظنون أن الإنسان يمكن أن ينجو فى الآخرة بفداء يفتدى به أو شفاعة تناله من سلفه النبيين والربانيين، كدأب الأمراء والسلاطين، وإن كان فى هذه الحياة فاسقاً ظالماً فاسد الأخلاق مناعا للخير معتديا أثيما. وقصارى هذا الاعتقاد أن سعادة الآخرة هى كالمعروف للعامة من سعادة الدنيا ليست جزاء للأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الصحيحة، أى ليست أثراً لشىء فى نفس الإنسان، وإنما الغالب فيها أن تكون بإسعاد غيره له، وخير ضروب هذا الإسعاد وأعلاها ما يكون بالشفاعة عند الأمراء والسلاطين، الذين يجعلون المرء من أعظم أرباب المال والجاه بكلمة يحملهم عليها الشافع. فمن كان يطلب فى الآخرة منتهى السعادة فعليه أن يعتمد على أحد المقربين عند الله ليشفع له هناك، ولا يكلفن نفسه عناء التهذيب وأعمال البر، وقد بين الله تعالى لبنى إسرائيل خطأهم فى هذا الاعتقاد بما فيه عبرة لهذه الأمة، ثم خاطب المؤمنين بذلك وأنذرهم ما أنذر به بنى إسرائيل، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم يحرفون الكلام عن مواضعه، كما فعل بعض المفسرين الذين زعموا أن قوله تعالى «والكافرون هم الظالمون» يدل على أن الكافرين بأصل الدين هم الذين لا ينفعهم يوم القيامة بيع ولا خلة ولا شفاعة. أى هذا النفى العام المستغرق لمنفعة الفداء والخلة والشفاعة خاص بمن لا يسمى نفسه مسلما، وأما من قبل هذا الاسم فإن الآية لا تتناولهم وإن كان الخطاب فيها للذين آمنوا.

ووجه الصلة بين هذه الآية وما قبلها أن هذه الآية تتحدث عن إنفاق المال وبذله فى سبيل الله، والآية السابقة تتحدث عن الرسالة والرسل ووحدة الدين، فكأن الله عز وجل يشير على الناس أن الرسالات أهم شرائعها البذل والإنفاق فى سبيل الله.

٢٥٥ — ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ

عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

بعد أن أمرنا الله تعالى بالإنفاق فى سبيله قبل أن يأتى يوم لا مال فيه ولا كسب ، ولا ينجى من عقابه فيه شفاعة ولا فداء، انتقل ـ كدأب القرآن ـ إلى تقرير أصول التوحيد والتنزيه التى تشعر متدبرها بعظيم سلطانه تعالى، ووجوب الشكر له والإذعان لأمره والوقوف عند حدوده وبذل المال فى سبيله، وحول بينه وبين الغرور والاتكال على الشفاعات والمكفرات التى جرأت الناس على نبذ كتاب الله وراء ظهورهم.

قوله تعالى «الله لا إله إلا هو» معناه أنه المستحق للعبادة لا غيره ، والحاصل أن معنى «لا إله إلا هو» ليس فى الوجود صاحب سلطة حقيقية على النفوس يبعثها على تعظيمه والخضوع له قهرا منها معتقدة أن بيده منح الخير ورفع الضر بتسخير الأسباب أو بإبطال السنن الكونية إلا الله تعالى وحده.

ومعنى «الحى» أى الدائم البقاء «القيوم» أى الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه «لا تأخذه سنة» هو ما يتقدم النوم من الفتور الذى يسمى النعاس «ولا نوم» وهو حال يعرض للحيوان من استرخاء الأعصاب ، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس، وتقديم السنة على النوم لأنه جاء على ترتيب الوجود ، إذ وجود السِّنة سابق على وجود النوم ، فهو على طريقة «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة» قصدا إلى الإحاطة والإحصاء، ولأنه لما عبر بالأخذ الذى هو بمعنى القهر والغلبة وجب تقديم السنة ، كما لو قيل: فلان لا يغلبه ولا سلطان ، وجملة «لا تأخذه سنة ولا نوم» نفى للتشبيه بينه وبين خلقه وتأكيد لكونه حيا قيوما فإن من أخذه نعاس أو نوم كان ذا آفة تخل بالحياة قاصرا فى الحفظ والتدبير، وقوله تعالى «له» أى بيده وفى تصريفه واختصاصه «ما فى السموات

وما فى الأرض، أى ملكا وخلقا تقرير لقيوميته واحتجاج على تفرده فى الألوهية. والمراد بـ (ما) فيهما ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما كالكواكب والنبات والمعادن، أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كالملائكة والإنس والجن . وقوله تعالى « من ذا الذى » أى لا أحد « يشفع عنده إلا بإذنه » هذا بيان لكبر شأنه وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه « يعلم ما بين أيديهم » أى من أمر الدنيا « وما خلفهم » أى من أمر الآخرة . قال مجاهد والكلبى : ما بين أيديهم يعنى الآخرة لأنهم يقدمون عليها، وما خلفهم : الدنيا ، لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم. وقيل ما بين أيديهم : ما قدموه من خير أو شر، وما خلفهم: ماهم فاعلوه « ولا يحيطون بشىء » أى قليلا أو كثيرا « من علمه» أى لا يعلمون شيئا من معلوماته « إلا بما شاء » أن يعلمهم به منها لا بإخبار الرسل « وسع كرسيه السموات والأرض » اختلف فى الكرسى فقال الحسن: هو العرش نفسه ، وقال أبو هريرة: هو موضع أمام العرش، والأحاديث تدل عليه ، ومعنى وسع أى سعته مثل سعة السموات والأرض ، وفى الأخبار أن السموات والأرض فى جنب الكرسى كحلقة فى فلاة ، والكرسى فى جنب العرش كحلقة فى فلاة ، وقيل: المراد بالكرسى علمه، وقيل : ملكه ، وقيل : تصوير لعظمته وتمثيل مجرد « ولا يؤوده » أى لا يشغله ولا يشق عليه « حفظهما » أى السموات والأرض « وهو العلى » أى الرفيع فوق خلقه المتعال عن الأشباه والأنداد « العظيم » أى الكبير الذى لا شىء أعظم منه، المستحقر بالإضافة إليه كل ماسواه. وهذه الآية تسمى آية الكرسى وهى مشتملة على أمهات المسائل الإلهية . فإنها دالة على أنه موجود واحد فى الألوهية، متصف بالحياة، واجب الوجود لذاته. موجد لغيره ؛ إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور، لا يناسب الأشباح ولا يعتريه ما يعترى الأرواح، مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد الذى لا يشفع عنده إلا من أذن له، عالم بالأشياء كلها جليها وخفيها ، كليها وجزئيها، واسع الملك والقدرة، لا يؤوده شأن ولا يشغله شىء ، متعال عما يدركه وهم ، عظيم لا يحيط به فهم ، ولذلك قال عليه الصلاة

والسلام : إن أعظم آية فى القرآن آية الكرسى ، رواه مسلم وروى غيره أنه صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، فإذا مات دخل الجنة . وروى البيهقى فى شعبه أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا يواظب عليها إلا صديق أو عابد . وروى البيهقى أيضا أن من قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره ، وعن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل أى آية من كتاب الله أعظم؟ قال: قلت الله لا إله إلا هو الحى القيوم، فضرب فى صدرى ثم قال : ليهنك العلم أبا المنذر ، وعن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حين يصبح آية الكرسى وآيتين من أول «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم» حفظ فى يومه حتى يمسى ، فإن قرأهما حين يمسى حفظ فى ليلته حتى يصبح ، وروى : ماقرئت آية الكرسى فى دار إلا هجرتها الشياطين ، ياعلى علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها ، وتذاكر الصحابة أفضل مافى القرآن فقال لهم على رضى الله تعالى عنه: أين أنتم عن آية الكرسى .

وهذه الآية جمعت كل صفات التنزيه اللائقة بمقام الله العلى الأعظم خالق الكون والحياة ، وخالق الإنسان والبشر ، وما أعظم مقامك ياإله الدنيا، وسيد الكون ، ومدبر الوجود ، ما أعظم نعمتك ، وما أجل رفعتك ، وما أصدق ما يقول فيك ، وفى مقامك وجلالك بعض المفكرين المعاصرين :

« إذا ما اتجه الفكر فى السموات حيث انتشرت النجوم فى الليل ، وإذا ما كل البصر فيما لانهاية له من الآفاق المظلمة ، وإذا ماخشعت النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل ، فإنك تشرف - يارب - بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ، وتسمع صوتك فى ذلك السكون ، وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة ، حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمة مشرقة ، ويتحول السكون إلى نبرات مطربة تنبعث من كل صوب . وحينئذ تتغنى النفس الخاشعة لتقول : « أنت أنت الله » ؛ وإذا ماكان المتأمل على شاطىء البحر الخضم ، وأرسل الطرف بعيداً بعيداً ، حيث تختلط زرقة السماء بزرقة الماء ، وحيث

تنحدر شمس الأصيل رويداً رويداً كأنها الإبريز المسحور ، لتغيب فى هذا المتسع الملح الأجاج ، وحيث تتهادى الفلك ذات الشراع الأبيض فى حدود الأفق الملون بألوان الشفق كأنها طائر يسبح فى النعيم ـ إذ ذاك يشعر المتأمل بعظمة واسعة دونها عظمة البحر الواسع ، وإذ ذاك تقر العين باطمئنان الفلك الجارى على أديم الماء الممهد . وفى رعاية الله الصمد ، حيث تكون مظهر العظمة ، وحيث تطمئن النفس لرؤية ماتطمئن إليه فى منظر جميل . إذ ذاك يدق الفؤاد بدقات صداها فى النفس : « أنت أنت الله » وإذا ما انطلقت السفينة بعيداً بعيداً فى البحر اللجى ، وهبت الزوابع ، وتسابقت الرياح ، وتلبد بالسحب الفضاء ، واكفهر وجه السماء ، وأبرق البرق ، وأرعد الرعد ، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ولعبت بالسفينة الأمواج ، وأجهد البحار جهده ، وأفرغ الربان حيلته ، وأشرفت السفينة على الغرق ، وتربص الموت من كل صوب وحدب ـ إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلمات والمسالك ، وتحيط رأفتك بهذه الأخطار والمهالك ، وتصل بحبال تجدتك المكروبين البائسين . وإذ ذاك يردد القلب واللسان : « أنت أنت الله » وإذا ما اشتد السقم بمن أحاطت به عناية الأطباء ، وسهر الأوفياء ، ونام بين آمال المخلصين ودعوات المحبين ، ثم ضعفت حيلة الطبيب ، ولم ينفع وفاء الحبيب ، واستحال الرجاء إلى بلاء ـ إذ ذاك تتجلى مستوياً على عرش عظمتك والنواصى خاشعة ، والنفوس جازعة ، والأيدى راجفة ، والقلوب واجفة لتقول : « أنا قضيت » ويقول الطبيب والقريب والحبيب : « لك الأمر ، أنت أنت الله » . وإذا ماباين الدنيا إنسان وباينته ، إذ ينظر إلى المال فيلقاه فانياً ، وإلى الجاه فيلقاه فانيا ، وإلى الأمانى فيلقاها زائلة ، وإلى الآمال فيجدها باطلة ، وإلى الشهوات فيلقاها خادعة كاذبة ، وإلى المسرات فيجدها آفلة غاربة — إذ ذاك يستغنى عن الجاه والمال ، وتشل فى نفسه حركة الآمال . وبين جاه يدول ، وأمل يزول ، لا يملأ فراغ النفس إلا ذكرك « أنت أنت الله » . وإذا ما وقعت العين على زهرة تتفتق فى الأكمام ، أو تلاقت العين بعين

يملؤها الحسن والابتسام ، وإذا ما أعجب المعجبون بجمال الفجر المتنفس ، وتغريد الطير المتربص ، وعاود الصدر انشراحه ، وملأ القلب ارتياحه — إذ ذاك يشرق فى قلوبنا نورك الجميل فنراك : « أنت أنت الله » . فيما يمس النفس من مظاهر العظمة ، ومظاهر الوسعة ، ومظاهر الرحمة ، ومظاهر القدرة والقضاء ، ومظاهر الدوام والبقاء ، ومظاهر الجمال والجلال — اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم ، والواسع والرحيم ، والقادر والدائم ، والجميل والجليل ، وأوتار القلوب تردد : « أنت أنت الله ؛ أنت أنت الله الحى القيوم، وسع كرسيك السموات والأرض ، وأنت العلى العظيم » .

وهذه الآية — آية الكرسى — تثبت لله الوحدانية والوجود والحياة والقيام بتدبير أمور هذا الكون العظيم ، دون ما غفلة أو نوم ، وتثبت له الملك فى هذا الكون الفسيح ، وتثبت أن الشفاعة عند الله فى الدنيا والآخرة مردها إلى إذن الله ، وتثبت له كذلك العلم بكل ما فى الوجود والحياة دون أن يحيط الناس وعقولهم القاصرة بشىء من علمه ، وتثبت امتداد ملكه إلى كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وامتداد سيطرته وهيمنته وتدبيره وحفظه على كل ما يحتوى عليه هذا الوجود الكبير ، وتثبت له كذلك الرفعة والعظمة التى لا حد لها ، ولا منتهى لجلالها .. إن هذه الآية تغرس أصول الإيمان بالله فى نفس كل إنسان وكل مسلم ، إنها أروع صورة لمقام الألوهية العظيم ، وإنها (لوحة) رفيعة رسمتها يد القدرة الإلهية لعزة الله وجلاله وملكه وسيطرته وتدبيره . وهذا الإيمان بالله ضرورى كقيام الحياة والحضارة ، ولاستمرار هذا الوجود ، ولاكتمال عظمة هذا الخلق العظيم الذى هو صنعة الله الذى أتقن كل شىء صنعا . وإن النظم التى أقمناها للحرية لن يقدر لها البقاء ما لم ترو دائما بالإيمان . فهذا الإيمان هو ضرورة للانسانية وللحياة ، ولا يمكن لهما ولا للروح القومية والوطنية أن تعيش بمنأى عن المبادىء الدينية ، وما نمارسه فى حضارتنا الراهنة من أعمال سياسية أو اجتماعية إنما اشتقت من الدين ، ولن تحيا إلا إذا رويت بالإيمان ، وأى عمل لا يستند إلى الإيمان

بالدين ليس سوى جهد ضائع . ومن عجب أن تصير الأعمال فى عرف بعض البشر مفصولة عن الرضاء الروحى ، حيث يؤمنون بعقيدة مادية تنكر الدين ، وتنكر وجود قانون أخلاقى أدبى ، إن من الخطأ أن يزعم إنسان أن القوى المادية هى كل شيء فى النشاط المحرك ، فإن القوى الأدبية والأخلاقية تؤتى هى الأخرى نشاطاً وقوة وجبروتاً .

هذه هى آية الكرسى بما اشتملت عليه من معان ضخمة ، وأصول جليلة، وعقيدة سليمة ، وتوحيد مطلق ، وكمال لانهائى للذات الإلهية المقدسة . . وما أروع قوله تعالى « وسع كرسيه السموات والأرض » بما يشير إلى امتداد الكون والساعة ، وإلى أن السموات والأرض وما فيهما ليسا إلا جزءاً من الكون الفسيح الذى خلقه الله تعالى ، والذى ظهرت فيه قدرته ، وخضع لجلال هيمنته وعظمته ، وما أروع قوله جل جلاله « ولا يؤوده حفظهما » بما يشير إليه من استمرار حفظه تعالى للسموات والأرض ، وتجدد نواميس الله التى سخرها لحفظهما وبقائهما حتى يجيء أمر الله ، وبما تضمنه من تأكيد لشمول قدرته للسموات والأرض وما فيهما ، فقد اتسعت قدرة الله فشملتهما، وستظل قدرة الله مهيمنة عليهما ؛ لحفظهما وبقائهما . وانظر إلى روائع التعبير فى هذه الآية الكريمة ، وانظر إلى قوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » بعد قوله « الحى القيوم » فقد جلى الله عز وجل كونه « حيا قيوما » وأكده ونفى عنه اللبس والريب ، بما نفى عنه تعالى من أنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، إنه قيوم على حفظ الكون والحياة ، لا يغفل عن ذلك ، ولا يلهيه النوم ، ولا تلهيه سنة عن استمرار حفظه تعالى للكون والحياة . وقوله تعالى « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه» معناه : من من الناس يجد أهلية لأن يشفع لأحد عنده، حتى يمكن الاعتماد على شفاعته فى نيل الغفران ودخول الجنة ، وقد سبق أن تشفع نبى الله نوح فى ابنه فرد الله شفاعته بقوله تعالى « إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح » ؛ ومعنى بإذنه أى لمن يأذن له الله تعالى بالشفاعة ، والشفاعة كأن تشفع أم فى ابنها أو أب فى ابنه أو أخ فى أخيه ، فهذه الشفاعة

تقبل إذا أذن الله فقبلها ، أما الشفاعة العظمى فهى التى وعد الله نبينا محمداً صلوات الله عليه بها يوم القيامة ، وهى ثابتة — لا ريب فيها .

إن روح الإسلام هو التوحيد .. أليس التوحيد أن يقصد الناس بجسدهم وبروحهم وجه الإله ، ولا ينصرفوا عنه إلى سواه ؟ وألا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ؟ .. وأن نرتفع بأنفسنا عن عبادة تلك الأوثان البشرية ، وعبادتها ذل وإثم ، وهى تمثال ما بالعالم من شر ورجس ؟ أليس التوحيد هو الذى يرتفع بنا عن عبادة المال والتكالب على جمعه .. وعبادة الشهوات التى تسترقنا وتذلنا .. أليس التوحيد إذن هو الذى يعلو بأنفسنا عن كل دنىء مهين ، ويرقى بنا إلى سماء كلها طهر وصفاء ؟ ولكن ليت شعرى ماذا فى بلاد الإسلام من روح الإسلام ؟ وماذا فى بلاد التوحيد من التوحيد ؟ إننى كلما فكرت فى الإجابة على ذلك غشينى شىء من الذهول . ورسم الوهم أمام عينى صورة مروعة مفزعة هائلة ، لتلك الأقطار القاصية . . رأيت البلاد قد حلق فوقها عقاب البغى ، باسطا عليها جناحيه ، ومنشبا فيها أظفاره ، وقد خضعت لسلطانه الرقاب ، وعنت لخشيته الوجوه ! وهلعت الأفئدة ، وذلت الأعناق ، ورغمت الأنوف ! وانطلقت الأفواه تسبح بحمده ، وتمجده ، وهو لا يزداد إلا بغيا وعتواً ، والأعناق لا تزداد إلا خشوعا وذلا .

وفى فضائل آية الكرسى أخرج مسلم وأبو داود عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ » قال: قلت الله ورسوله أعلم ، قال: « يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ » قلت : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » قال : فضرب فى صدرى وقال : « ليهنك العلم يا أبا المنذر » .

ورواه أحمد وابن أبى شيبة وزاد فى روايته « والذى نفسى بيده إن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » وإسناد هذه الرواية صحيح .

وأخرج البخارى وابن خزيمة عن أبى هريرة قال : وكلنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنى محتاج وعلى دين وعيال ولى حاجة شديدة فخليت عنه . فأصبحت ، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قال : قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته فخليت عنه ، قال « أما إنه قد كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه سيعود . فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : دعنى فإنى محتاج وعلى مال ولى عيال ، لا أعود فرحمته فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله ، قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ، قال دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها . قلت : ما هى ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » حتى آخر الآية ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » فقلت يارسول الله : إنه زعم أنه يعلمنى كلمات فينفعنى الله بها ، فخليت سبيله ، فقال: « ما هى ؟ » قلت قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية وقال : لن تزال عليك من الله حافظاً ولا يقربنك شيطان حتى تصبح ـ وكانوا أحرص شىء على الخير ـ فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: « أما إنه قد صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة ؟ » قال : لا ، قال : « ذاك شيطان » .

ورواه النسائى أيضا ووقع فى روايته أن أبا هريرة شكا أولا إلى النبى

صلى الله عليه وآله وسلم ما وقع من سرقة الطعام ولم يجد السارق ، فقال له : « إن أردت أن تأخذه فقل : سبحان من سخرك لمحمد » قال : فقلتها فإذا أنا به قائم بين يدى فأخذته . وقوله « صدقك وهو كذوب » يعنى صدقك فيما ذكره عن آية الكرسى ، وإن كان كذوبا بطبيعته ، وهذا كما جاء فى المثل العربى : قد يصدق الكذوب .

وأخرج الترمذى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه كانت له سهوة فيها تمر وكانت تجىء الغول فتأخذ منه ، قال فشكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال « اذهب فإذا رأيتها فقل: بسم الله أجيبى رسول الله » قال : فأخذها فحلفت ألا تعود فأرسلها فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « ما فعل أسيرك ؟ » قال : حلفت ألا تعود قال : « كذبت وهى معاودة للكذب » قال فأخذها مرة أخرى فحلفت ألا تعود فأرسلها فجاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « ما فعل أسيرك ؟ » قال حلفت ألا تعود فقال : « كذبت وهى معاودة للكذب » فأخذها فقال ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : إنى ذاكرة لك شيئا آية الكرسى اقرأها فى بيتك فلا يقربنك شيطان ولا غيره ، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « ما فعل أسيرك ؟ » قال فأخبره بما قالت ، قال : « صدقت وهى كذوب » قال الترمذى : حديث حسن غريب .

٢٥٦ — لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٢٥٧ — ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

آيتان جليلتان فيهما الكثير من دلائل سماحة الإسلام وعظمته وجلاله .
قوله تعالى « لا إكراه فى الدين » أى على الدخول فيه ، فمن أعطى الجزية لم يكره على الإسلام ، فهو عام مخصوص بأهل الكتاب ، لما روى أن أنصاريا كان له ابنان تنصرا قبل البعث ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر؟ فنزلت ، وقيل: عام منسوخ ، فكان هذا فى الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال، فصارت الآية منسوخة بآية السيف ، قاله ابن مسعود « قد تبين الرشد من الغى » أى ظهر بالآيات البينات أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية ، وأن الكفر غى يؤدى إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلبا للفوز بالسعادة والنجاة فلم يحتج إلى الإكراه والإلجاء « فمن يكفر بالطاغوت » أى فمن اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام أو الزعماء والملوك المضللين « ويؤمن بالله » أى بالتوحيد وتصديق الرسل « فقد استمسك بالعروة الوثقى » أى تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم فى الدين « لا انفصام » أى لا انقطاع « لها » قال التفتازانى: شبه التدين بالدين الحق والثبات على الهدى والإيمان بالتمسك بالعروة الوثقى المأخوذة من الحبل المحكم المأمون . وقال الزمخشرى : تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس ، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به . اهـ والوثقى تأنيث الأوثق ، وقيل العروة الوثقى : السبب الذى يوصل به إلى رضاء الله تعالى « والله سميع » لما يقال « عليم » بالنيات والأفعال، وقيل : سميع لدعائك إياهم إلى الإسلام عليم بحرصك على إيمانهم « الله ولى » أى ناصر ومعين « الذين آمنوا » أى أرادوا أن يؤمنوا لقوله تعالى « يخرجهم » أى بلطفه وتأييده « من الظلمات » اى الكفر « إلى النور » أى الإيمان أو أنهم الثابتون على الإيمان بأن يخرجهم من الشبهة فى الدين إن وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم له من حلها حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين ، وعن ابن عباس : أنهم قوم كانوا كفروا بعيسى فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم

« والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت » أى الشيطان وقال مقاتل: هو كعب بن الأشرف وابن أحطب وسائر رؤوس الضلالة « يخرجونهم » أى يدعونهم « من النور » الذى منحوه بالفطرة « إلى الظلمات » أى الكفر فإن قيل : كيف يخرجونهم من النور وهم كفار لم يكونوا فى نور قط ؟ فالجواب بأن الطبرانى روى عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم آمنوا بعيسى فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كفروا به ، وأنه تعالى ذكر الإخراج فى مقابلة يخرجهم ، فهو على العموم فى حق جميع الكفار كما يقول الرجل لأبيه: أخرجتنى من مالك، ولم يكن فيه ـ كما قال تعالى إخبارا عن يوسف عليه الصلاة والسلام : إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ـ ولم يكن قط فى ملتهم، وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الإسلام. وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار السبب لا ينافى قدرته تعالى وإرادته .

هذا والطاغوت هو كل ماتكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج عن الحق ، من مخلوق يعبد ، أو زعيم يسجد له ، أو هوى يتبع .

وقوله تعالى هنا فى هذا الموضوع « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » يدل على الوعيد والتحذير ، وعدم مقابلته بوعد المؤمنين لتعظيم شأنهم .

وسبب نزول الآيتين على ما روى أبو داود والنسائى وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس أنه كانت المرأة تكون مقلاة ـ لا يعيش لها ولد ـ فتجعل على نفسها إن عاش لها أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبناءنا، فأنزل الله « لا إكراه فى الدين » ، وأخرج ابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال نزلت « لا إكراه فى الدين » فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما فقال للنبى صلى الله عليه وسلم: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ؟ فأنزل الله الآية ، وفى بعض التفاسير أنه حاول إكراههما فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ ولابن جرير عدة روايات فى نذر النساء فى الجاهلية تهويد أولادهم ليعيشوا وأن المسلمين بعد الإسلام أرادوا إكراه من لهم من

الأولاد على دين أهل الكتاب على الإسلام، فنزلت الآية فكانت فصل ما بينهم. وفى رواية له عن سعيد بن جبير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عند ما أنزلت « قد خير الله أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم » .

وهذا — كما يقول الشيخ رشيد رضا — هو حكم الدين الذى يزعم الكثيرون من أعدائه أنه قام بالسيف والقوة ، فكان يعرض على الناس والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه . فهل كان السيف يعمل عمله فى إكراه الناس على الإسلام فى مكة أيام كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى مستخفيا وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من التعذيب ولا يجدون رادعا حتى اضطر النبى وأصحابه إلى الهجرة ؟ أم يقولون إن ذلك الإكراه وقع فى المدينة بعد أن اعتز الإسلام ، وهذه الآية قد نزلت فى غرة هذا الاعتزاز فإن غزوة بنى النضير كانت فى ربيع الأول من السنة الرابعة ، وقال البخارى : إنها كانت قبل غزوة أحد التى لا خلاف فى أنها كانت فى شوال سنة ثلاث ، وكان كفار مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب . نقض بنو النضير عهد النبى صلى الله عليه وسلم فكادوا له وهموا باغتياله مرتين وهم بجواره فى ضواحى المدينة فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه بإكراه أولادهم المتهودين على الإسلام ومنعهم من الخروج مع اليهود . فذلك أول يوم خطر فيه على بال بعض المسلمين الإكراه على الإسلام ، وهو اليوم الذى نزل فيه : لا إكراه فى الدين . . وقوله تعالى « فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » أى فقد طلب أو تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرى النجاة ، وأثبت أسباب الحياة ، أو فقد اعتصم بأوثق العرى ، وبالغ فى التمسك بها ، أو أن الاستمساك بالعروة الوثقى هو الاستقامة على طريق الحق القويم الذى لا يضل سالكه ، كما أن المتعلق بعروة هى أوثق العرى وأحكمها فتلا لا يقع ولا يتفلت ، ويناسبه الانفصام . ولعل الأقرب أن يراد بها عروة الشجر والنبات ، وكأنه تعالى يقول : إن المبالغ بالتمسك بهذا

الحق والرشد كمن يأوى بنعمه إلى ذلك الشجر والنبات النابت الذى لا ينقطع مدده ولا يفنى؛ فإذا نزل الجدب والقحط بمن يعتمدون على الشجرة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، كان هو معتصما بالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، أى أن صاحب هذه العروة يجد فيها السعادة الدائمة دون غيره . والتعبير بالاستمساك يدل على أن من لم يكفر بجميع مناشىء الطغيان ، ويعتصم بالحق اليقين من أصول الإيمان ، فهو لا يعد مستمسكا بالعروة الوثقى وإن انتمى فى الظاهر إلى أهلها أو ألمّ بها إلمام الممسك بها ، فالعبرة بالاعتصام والاستمساك الحقيقى لا بمجرد الأخذ الضعيف الصورى ، والانتماء القولى والتقليدى ، وقوله تعالى «لا إكراه فى الدين» قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام، وركن عظيم من أركان سياسته، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ولا يسمح لأحد أن يكره أحدا من أهله على الخروج منه . وإنما نكون متمكنين من إقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة إذا كنا أصحاب قوة ومنعة نحمى بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا فى ديننا ، اعتداء علينا بما هو آمن أن نعتدى بمثله عليه ، إذ أمرنا أن ندعو إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نجادل المخالفين بالتى هى أحسن، معتمدين على أن تبين الرشد من الغى بالبرهان ، هو الصراط المستقيم إلى الإيمان ، مع حرية الدعوة ، وأمن الفتنة ، فالجهاد من الدين بهذا الاعتبار أى أنه ليس من جوهره ومقاصده وإنما هو سياج له فهو أمر سياسى لازم له للضرورة . ولا التفات لما يهذى به العوام ، إذ يزعمون أن الدين قام بالسيف، وأن الجهاد مطلوب لذاته ، فالقرآن فى جملته وتفصيله حجة عليهم . وأما كونه تعالى هو الولى وحده للمؤمنين لا ولى سواه فالمراد به أنه هو المتولى لأمور العباد فى الواقع ونفس الأمر كما تقدم، وذلك بما خلق لهم من المنافع ومن الأعضاء والقوى التى تمكنهم من الانتفاع بها ، وبما بين لهم من السنن ومد لهم من الأسباب ، وهذه هى الولاية العامة المطلقة ، وأما ولايته للمؤمنين خاصة فهى عبارة عن عنايته بهم وإلهامه وتوفيقه إياهم لما فيه الخير والصلاح الروحانى

والجسماني بما اختاروا لأنفسهم من الإيمان به وبما جاءت به رسله، وأما ولايتهم لله تعالى فقد عبر عنها بالإيمان والتقوى؛ فهم بالإيمان بولايته لهم يتولونه أى يعتقدون أنه هو المتولى لأمورهم وحده كما تقدم، وهم فى استفادتهم بقواهم من منافع الكون وانقائهم لمضاره يلاحظون أن هذا من فضله عليهم وتوليه لأمورهم، إذ مكنهم من ذلك وهيأ أسبابه لهم، وإذا ضعفت قواهم دون مطلب من مطالبهم أو جهلوا طريقه وسببه توجهوا إليه وحده مع تعاونهم وتناصرهم، لا يتوجهون إلى غيره فى استمداد العناية وطلب التوفيق والهداية . ثم إنهم مع هذا الإيمان يتقونه تعالى بترك المعاصى والإثم والظلم والبغى فى الأرض وغير ذلك مما جعله الله سبب البلاء والشقاء فى الدنيا والآخرة. وبفعل الطاعات والخيرات التى هى أسباب السعادة فى الدارين، فهذا معنى تفسير أوليائه بالذين آمنوا وكانوا يتقون . وأما ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فهى عبارة عن تعاونهم وتناصرهم فى الأمور المشتركة مع استقامتهم على الأعمال الصالحة الخاصة لأن الفساد الشخصى لا يتفق مع القيام بالمصالح العامة .

٢٥٨ — أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٢٥٩ — أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ

وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

٢٦٠ — وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

ثلاث آيات ضخام فى مدلولاتها ، عظام فى مراميها ، كبار فى معانيها ، وتتعلق ثلاثتها بعقيدة التوحيد والإيمان بالله ، وتدل دلالة قاطعة على أن لا إله إلا الله الحى القيوم ، وعلى أن الله له ما فى السموات وما فى الأرض ، يحيى ويميت ، وهو رب الدنيا والآخرة ، وبيده الآجال والحياة والممات والبعث والنشور ، وهو على كل شىء قدير .

ثلاث آيات راثعات أنت فى موضعها من هـذا الربع بعد أن قرر الله عز وجل تعدد الرسل ، وضرورة بعثهم لهداية النـاس وإنقاذهم من الضـلال والحيرة والتفرق والاختلاف ، وبعد أن أمر الله بالإنفاق والإحسان ، وبعد وصف الله عز وجل نفسه بصفات الكمال والجلال والقدرة والألوهية والتوحيد وبعد أن أبان الله عز وجل دون ما خفاء بأن الدين الحق وهو الإسلام ـ لله عز وجل ، وأن من يؤمن به فقد آمن بالله واستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وبعد أن قرر القرآن الكريم أن الله هو ولى الذين آمنوا ، وأما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوات . ثم جاءت هـذه الآيات للدلالة على وجود الله باعث الرسل ومنزل الشرائع وعلى قدرته وعظمته ، فهذه الآيات الثلاث شاهد على ما سبق ، وكأنه يقول : انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدى

بولاية الله له إلى الحجج القيمة والخروج من الشبهات التى تعرض عليه فيظل على نور من ربه ، وإلى الذى حاجه كيف كان بولاية الطاغوت له يعمى عن نور الحجة ، وينتقل من ظلمة من ظلمات الشبه والشكوك إلى ظلمة أخرى .

وفى الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث يشير الله عز وجل إلى نمروذ ابن كنعان ملك الكلدانيين بأرض العراق وتجبره وادعائه الألوهية ، وإنكاره لوجود إله سواه ، وحجاجه لإبراهيم فى شأن الإله ، ولما كان نمروذ هو الذى حاجّ إبراهيم ، وكان بذلك من أتباع الشيطان ، وممن أخرجته الشياطين من النور إلى الظلمات ذكر أمره القرآن الكريم « ألم تر » أى تعلم بما نخبرك به علما هو عندك كالمشاهدة لما لك من كمال البصيرة وبما أودعناه فيك من المعانى المثيرة « إلى الذى » وهو نمروذ «حاج» جادل وخاصم « إبراهيم فى ربه » وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الأرض وادعى الربوبية « أن » أى لأن « آتاه الله الملك » فطغى ، أى كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه فأورثه الكبر والجبروت فحاج لذلك،قال مجاهد: ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان فسليمان صلى الله عليه وسلم وذو القرنين ، وما الكافران فنمروذ بن كنعان وبختنصر لم يملكها غيرهم . وفى الآية دليل على أن الله تعالى يعطى الكافر الملك ، ففيها حجة على من منع إيتاء الملك الكافر من المعتزلة ، وأول الملك بالمال والخدم الذى يتسلط به على غلبة الناس لا الملك الحقيق ، وبهذا أول الزمخشرى « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت » أى يخلق الموت والحياة فى الأجساد ، وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره: قال له نمروذ : من ربك ؟ فقال إبراهيم ذلك . واختلفوا فى وقت هذه المناظرة فقال مقاتل: لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمروذ ثم أخرجه ليحرقه بالنار فقال له: من ربك الذى تدعونا إليه ؟ وقال آخرون: كان هذا بعد إلقائه فى النار ، وذلك أن الناس قحطوا على عهد نمروذ ، وكان الناس يمتارون من عنده ، فأتاه إبراهيم فقال له من ربك؟ فقال له ذلك « قال أنا أحيى وأميت » قال أكثر المفسرين :

دعا نمروذ برجلين فقتل أحدهما واستحيى الآخر - تركه حيا - فجعل ترك القتل إحياء!! فانتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا عجزا بل لما رآه من غبائه ، فإن حجته لازمة لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت . قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس ، وهو الذي أوجدها ، من المشرق ، أي في كل يوم قبل أن توجد أنت بدهور . فأت بها من المغرب ، إن كنت صادقا فيما تدعيه ولو يوما واحدا ، وفي ذلك إشعار بأن الله تعالى لابد وأن يأتي بالشمس من المغرب ليكون ذلك إظهار تصريفه لها حيث شاء حتى يطلعها من حيث غربت كما يطلع الروح من حيث قبضت ، ليكون طلوع الشمس من مغربها آية مقاربة لقيام الساعة وطلوع الأرواح من أبدانها . فبهت الذي كفر ، تحير ودهش وانقطعت حجته ولم يعط إبراهيم طعاما ، فرجع فمر على رمل فأخذ منه تطييبا لقلوب أهله إذا دخل عليهم ، فلما أتى أهله ووضع متاعه نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فوجدته أجود طعام رأته ، فأخذته وصنعت له منه وقربته له فقال لها : من أين هذا ؟ قالت : من الطعام الذي جئت به ، فعرف أن الله رزقه فحمد الله تعالى : فإن قيل : كيف بهت نمروذ وكان يمكنه أن يعارض إبراهيم فيقول له : سل أنت ربك حتى يأت بها من المغرب ، فالجواب أن الله تعالى صرفه عن ذلك إظهارا للحجة عليه أو معجزة لإبراهيم عليه السلام أو أنه خاف أن لو سأل ذلك دعا إبرهيم ربه فكانت زيادة في فضيحته وانقطاعه ، ثم بعث الله تعالى إلى نمروذ ملكا أن آمن بي وأتركك على ملكك ، فقال : فهل رب غيري؟! فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة ، فلم يؤمن ، فابتلاه الله بمرض شديد ظل معه حتى مات بسببه ، وقيل : بعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره ، فمكث يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه ، وكان جبارا في الأرض ثم أهلكه الله ، وهو الذي بنى صرحا طويلا فصعد منه إلى السماء ليقاتل أهلها ، فأرسل الله عليه الريح فهدمته ، وسيأتي قصته إن شاء الله تعالى . والله لا يهدى القوم الظالمين . لأنفسهم وللہ بالكفر .

والآية الثانية تؤيد الأولى في إثبات وجود الله وقدرته ، وأنه الإله الواحد

الآحد ، يقول الله تعالى : « أو كالذى مرّ على قرية » تقديره : أو رأيت مثل الذى لحذف لدلالة « ألم تر » عليه ، لأن كلتيهما كلمة تعجب ، وتخصيصه بحرف التشبيه لأن المنكرين للإحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى، بخلاف مدعى الربوبية . وقيل : الكاف مزيدة وتقدير الكلام : ألم تر إلى الذى حاج أو الذى مر ، والمار عزير بن شرحياء أو أرمياء ، أو كافر بالبعث ، ويؤيد هذا الرأى الأخير نظمه مع نمروذ فى سلك ، وكلمة الاستبعاد التى هى « أنى يحيى » وأكثر المفسرين على الأول والقرية بيت المقدس حيث خربها بختنصر وقتل بنى إسرائل حتى أفناهم ، ثم أمر جنودها أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا فيقذفه فى بيت المقدس ففعلوا ، ثم أمرهم أن يجمعوا من كان فى بلدان بيت المقدس فاجتمع عنده صغيرهم وكبيرهم من بنى إسرائيل ، فاختار منهم سبعين ألف صبى ، فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه ، فأصاب كل رجل منهم أربعمائة ، وفرق من بقى من بنى إسرائيل ثلاث فرق ، فثلثا قتلهم وثلثا سباهم ، وثلثا أقرهم بالشام ، وقيل : هى القرية التى خرج منها ألوف ، وقيل غيرهما « وهى خاوية » أى ساقطة « على عروشها » أى سقوفها ، بأن سقط السقف أولا ثم سقط الجدران عليه لما خربها بختنصر « قال أنى » أى كيف « يحيى هذه الله بعد موتها » أى بعدما صارت إليه من الخراب وذهاب الأهل، فيعيدها إلى ما كانت عليه عامرة آهلة ، وهذا اعتراف بالعجز عن معرفة طريق الإحياء واستعظام قدرة المحيي إن كان القائل مؤمنا واستبعادٌ إن كان كافرا «فأماته الله» وألبثه « مائة عام » ميتا « ثم بعثه » بالإحياء ليريه كيفية ذلك « قال كم لبثت » أى مكثت أى لما أحياه الله بعث إليه ملكا فسأله : كم لبثت ؟ وعن ابن عباس إن (عزيرا) كان عبدا صالحا حكيما، فخرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها، فنظر وهو فى الطريق إلى سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها ، ورأى عظاما بالية فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها؟ فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجبا، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله مائة عام، فلما أتت عليه مائة عام وكان فيما بين ذلك فى بنى إسرائيل أمور وأحداث، فبعث الله إلى

(عزير) ملكا لخلق قلبه ليعقل به ، وعينيه لينظر بهما ، فيعقل كيف يحيي الله الموتى ، ثم ركب خلقه وهو ينظر كسوة عظامه اللحم والشعر والجلد ، ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو يرى ويعقل؛ فاستوى جالسا فقال له الملك: كم لبثت ؟ « قال لبثت يوما » وذلك أن الله أماته ضحى فى أول النهار وأحياه بعد مائة عام فى آخر النهار وقبل غيبوبة الشمس فقال: لبثت يوما ، وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال « أو بعض يوم » أى بل بعض يوم « قال » له الله تعالى بلسان الحال أو قال له الملك « بل لبثت مائة عام» ثم قال له الله أو الملك « فانظر إلى طعامك » وكان تينا أو عنبا على ما يروى « وشرابك » وكان عصيرا أو لبنا « لم يتسنه » أى لم يتغير بمرور الزمان ، فكان التين أو العنب كأنه قد قطف من ساعته ، والعصير كأنه قد عصر أو اللبن قد حلب من ساعته ، أى كأنه لم يأت عليه السنون، وإنما أفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد ، فإن قيل : إذا كان المار كافرا فكيف يسوغ أن يكلمه الله؟ فأجاب الزمخشرى بأن الكلام كان بعد البعث ولم يك إذ ذاك كافرا ، وقال أبو حيان : لا نص فى الآية أن الله كلمه شفاها ، وقرأ حمزة والكسائى : (لم يتسنّ) بإسقاط الهاء إذا وصلها بما بعدها، والباقون بإثباتها ، وهى فى الوقف ثابتة للجميع « وانظر إلى حمارك » كيف هو فرآه ميتا ، وقيل رآه حيا مكانه كما ربطه ، حفظ بلا ماء ولا أكل كما حفظ الطعام والشراب من التغير .

وقوله تعالى « ولنجعلك آية للناس » معطوف على محذوف تقديره : فعلنا ذلك لتعلم ولنجعلك آية، وقيل : الواو زائدة مقحمة، أى لنجعلك عبرة ودلالة على البعث بعد الموت « وانظر إلى العظام كيف ننشرها » قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالراء ومعناه يحييها ، والباقون بالزاى ومعناه نرفعها من الأرض ونردها إلى أماكنها من الجسد . وفى الآية تقديم وتأخير وتقديرها: وانظر إلى حمارك وانظر إلى العظام كيف ننشرها ولنجعلك آية للناس، واختلفوا فى معنى الآية فقال الأكثرون: إنه أراد به عظام حماره، وهذا يؤيد كون حماره كان ميتا،

قال السدى : إن الله أحيا عزيرا ثم قال له :انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه ، فبعث الله ريحا فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل الذى ذهبت به الطيور والسباع فاجتمعت، فركب بعضها فى بعض وهو ينظر، فصار حمارا من عظام ليس فيه لحم ولا دم، ثم كسا العظام لحما ودما كما قال تعالى « ثم نكسوها لحما » فصار حمارا لاروح فيه، ثم أقبل ملك يمشى حتى أخذ بفم الحمار فنفخ فيه فقام بإذن الله تعالى ؛ وقيل : إنما قال الله تعالى له : انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره قائما واقفا كهيئته يوم ربطه،وهذا يؤيد كون حماره كان حيا، وذلك من أعظم الآيات أن يعيش مائة عام من غير علف ولا ماء، قال الضحاك وقتادة وتقدير الآية أى على هذا: وانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها ، روى أن « عزيرا » لما أحياه الله تعالى ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس ومنازله، فانطلق على وهمٍ حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة له ؛ خرج (عزير) عنها وهى بنت عشرين سنة فقال لها عزير : ياهذه هذا منزل عزير؟ قالت: نعم هذا منزل عزير وبكت وقالت : مارأيت أحدا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرا ، فقال: فإنى أنا عزير، فقالت: سبحان الله فإن عزيرا فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر، قال: إن الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى، قالت : فإن عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية، فادع الله أن يرد على بصرى حتى أراك فإن كنت عزيرا عرفتك ، فدعا ربه ومسح يده على عينيها فرد الله عليها بصرها فقال: قومى بإذن الله تعالى فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنها نشطت من عقالها، فنظرت إليه وقالت: أشهد أنك عزير، فانطلقت إلى بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وابن عزير شيخ ابن مائة سنة وثمانى عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخ بالمجلس، قال الضحاك: عاد إلى قريته شابا وأولاد أولاده شيوخ وكهول وهو أسود الرأس واللحية. فقالت: هذا عزير قد جاءكم فكذبوها ، فقالت: أنا فلانة مولاتكم قد دعا لى ربه فرد على بصرى وأطلق رجلى وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه ، فنهض الناس وأقبلوا إليه ونظروا

إليه وقال ابنه : كان لأبى علامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير، فقرأ لهم التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله نعرفوه بذلك وقالوا: هو ابن الله وسيأتى الكلام على ذلك فى سورة (براءة) إن شاء الله تعالى ، فلما تبين له ، ذلك بالمشاهدة ، وفاعل تبين مضمر تقديره : فلما تبين له أن الله على كل شىء قدير ، قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ، علما يقينا مؤكدا بآيات الله فى نفسى وفى الآفاق .

أما الآية الثالثة فتؤيد الآية التى سبقتها فى إثبات قدرة الله على الإحياء والبعث ، وإذ قال إبراهيم رب أرنى ، أى أبصرنى ، كيف تحيى الموتى ، قال الحسن وقتادة والضحاك: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه مر على دابة ميتة فرآها وقد توزعتها دواب البر والبحر ، فكانت إذا مد البحر جاءت الحيتان ودواب البر فأكلت منها ، وما وقع منها يصير فى البحر وإذا انحسر البحر جاءت السباع فأكلت منها وما سقط منها فرقته الريح فى الهواء، فلما رأى إبراهيم ذلك تعجب منها وقال: يا رب قد علمت أنك لتجمعها من بطون السباع وحوامل الطير وأجواف دواب البحر ، فأرنى كيف تحييها فأزداد يقيناً ،فعاتبه الله بقوله ، قال أولم تؤمن ، بقدرتى على الإحياء ، سأله مع علمه بإيمانه بذلك ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه ، قال بلى ، يارب آمنت ، ولكن ليطمئن قلبى ، أى يسكن قلبى ، أى سكون المعاينة والمشاهدة ، أراد أن يصير له علم اليقين، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالا يفيد الاستدلال ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ولو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى ، فقال أبو سليمان الخطابى: ليس فيه اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفى الشك عنهما ، يقول : إذا لم أشك فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله: ولو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف،وقيل:سبب سؤاله أنه لما

قال له نمروذ: أنا أحيي وأميت ، قال له: إن إحياء الله برد الروح إلى بدنها. قال نمروذ: هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم وانتقل إلى تقرير آخر ، ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه فى الجواب إن سئل عنه مرة أخرى ، فإن قيل: بم تعلقت اللام فى ليطمئن أجيب بأنها تعلقت بمحذوف تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ، وقيل: بل كان قصده بالسؤال المحيي ولكنه طلبها تلويحا فأجيب بالمنع منها تلويحا ، وموسى عليه السلام لما سأل تصريحا أجيب تصريحا ، قال تعالى « فخذ أربعة من الطير » قال مجاهد وابن جريج : أخذ طاووسا وديكا وحمامة وغرابا ، وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان شبها وأجمع لخواص الحيوان ، لأن فيها ما يتكلم وما يهتدى للطريق كالقطاة وللمياه كالهدهد ، قيل : إن فى هذا إيماء إلى أن إحياء النفوس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف التى هى صفة الطاووس والصولة المشهور بها الديك ، وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب ، والترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام « فصرهن » أى فامسكهن واضممهن « إليك » قرأ حمزة بكسر الصاد والباقون بضمها ، ومعنى أمره بضم الطير إلى نفسه بعد أن يأخذها هو أن يتأملها ويعرف أشكالها وهيأتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك. وروى أنه أمر بأن يذبحها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ، وأن يمسك رؤوسها ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال كما قال تعالى « ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا » ، واختلفوا فى عدد الأجزاء والجبال فقال ابن عباس وقتادة : أمره الله أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء ويجعلها على أربعة جبال وقال السدى وابن جريج : جزأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة جبال ثم دعاهن : تعالين بإذن الله تعالى ، فجعل كل قطرة من دم كل طائر تصير إلى القطرة الأخرى ، وكل ريشة إلى الريشة الأخرى ، وكل عظم يصير إلى العظم الآخر ، وإبراهيم ينظر حتى صارت جثثا بغير رؤوس ثم أقبلن إلى رؤوسهن سعيا فالتقى كل طائر برأسه ، فذلك قوله تعالى « ثم ادعهن يأتينك سعيا » أى سريعا وقيل مشيا ، لأنها لو طارت فربما توهم متوهم أنها

غير تلك الطير ، وإن أرسلها غير سليمة، قال البيضاوى : وفى ذلك إشارة إلى من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية فعليه أن يقبل على القوى البدنية كالشهوة والغضب فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها فتطاوعه مسرعات متى دعاهن بداعية العقل أو الشرع، وكفى ذلك شاهدا على فضل إبراهيم ويمنه حيث سلك مسلك الضراعة فى الدعاء وحسن الأدب فى السؤال « واعلم أن الله عزيز » أى لا يعجز عما يريد « حكيم » أى ذو حكمة بالغة فى كل ما يفعله.

وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قلقا مضطربا فى اعتقاده بالبعث وذلك شك فيه، وما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد فى حديث الصحيحين « نحن أولى بالشك من إبراهيم » أى أننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعا . نعم ليس فى الكلام ما يشعر بالشك فإنه ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيمانا يقينيا وهو لا يعرف كيفيتها ويود لو يعرفها ، فهذا التلغراف الذى ينقل الخبر من المشرق إلى المغرب فى دقيقة واحدة يوقن به كل الناس فى كل بلد يوجد فيه، ويقل فيهم العارف بكيفية نقله للخبر بهذه السرعة، أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية : إنه شاك بوجود التلغراف ؟ طلب المزيد فى العلم والرغبة فى استكناه الحقائق والتشوف إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان، وأكمل الناس علما وفهما أشدهم للعلم طلبا وللوقوف على المجهولات تشوقا، ولن يصل أحد من الخلق إلى الإحاطة بكل شىء علما، وقتل كل موجود فقها وفهما. وقد كان طلب الخليل عليه الصلاة والسلام رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل ، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية ، من معرفة خفايا أسرار الربوبية ، لا طلب للطمأنينة فى أصل عقيدة الإيمان بالبعث الذى عرفه بالوحى والبرهان ، دون المشاهدة والعيان .

وملخص معنى الآية عند الجمهور أن إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم طلب من ربه أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى، فأمره تعالى بأن يأخذ أربعة من الطير فيقطعهن أجزاء يفرقها على عدة جبال هناك ثم يدعوها إليه فتجيئه وقالوا

أنه فعل ذلك . وخالفهم أبو مسلم المفسر الشهير فقال : ليس فى الكلام مايدل على أنه فعل ذلك وما كل أمر يقصد به الامتثال، فان من الخبر ما يأتى بصيغة الأمر لاسيما إذا أريد زيادة البيان ،كما إذا سألك سائل كيف يصنع الحبر مثلا فتقول خذ كذا وكذا وافعل به كذا وكذا يكن حبراً ، تريد هذه كيفيته ولا تعنى تكليفه صنع الحبر بالفعل، قال: وفى القرآن كثير من الأمر الذى يراد به الخبر . والكلام ههنا مثل لإحياء الموتى ، ومعناه خذ أربعة من الطير فضمها إليك وأنسها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك، فإن الطيور من أشد الحيوان استعداداً لذلك ، ثم اجعل كل واحد منها على جبل ثم ادعها فإنها تسرع إليك لا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك ،كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين «كونوا أحياء» فيكونوا أحياء كما كان شأنه فى بدء الخلق إذ قال للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . هذا ماتجلى به تفسير أبى مسلم وقد أورده الرازى مختصرا وقال : «والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة» وأنكر – يعنى أبا مسلم – القول بأن المراد منه فقطعهن .

واحتج القائلون بالقول المشهور بأن كل المفسرين الذين كانوا قبل أبى مسلم أجمعوا على أنه حصل ذبح تلك الطيور وتقطيع أجزائها ، فيكون إنكار ذلك إنكار للإجماع ، وأن قوله «ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا» يدل على أن تلك الطيور جعلت جزءا جزءا .

ويؤيد صاحب المنار رأى أبى مسلم فى إنكار الذبح ويقول: إن هذا الرأى هو المتبادر الذى يدل عليه النظم ، وهو الذى يجلى الحقيقة فى المسألة ، فإن كيفية الإحياء هى عين كيفية التكوين فى الابتداء ، وإنما تكون بتعلق إرادة الله تعالى بالشىء المعبر عنه بكلمة التكوين (كن) فلا يمكن أن يصل البشر إلى كيفية له إلا إذا أمكن الوقوف على كنه إرادة الله تعالى وكيفية تعلقها بالأشياء ، وظاهر القرآن – وهو ماعليه المسلمون – أن هذا غير ممكن. فصفات الله منزهة عن الكيفية،

والعجز عن الإدراك فيما هو الإدراك ، وهو ما أفاده قول أبي مسلم رحمه الله تعالى.

وفى سفر التكوين من أسفار العهد القديم الإصحاح الخامس عشر يقارب ما ذكره القرآن الكريم ، ونصه : « صار كلام الله إلى إبراهيم فى الرؤيا قائلا : لا تخف يا إبراهيم ، أنا ترس لك ، أجرك كثير جدا ، فقال إبراهيم : أيها السيد الرب، ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ، إنك لم تعطنى نسلا وهو ذا ابن بيتى وارث لى ، فإذا كلام الرب إليه قائلا : « لا يرثك هذا بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك ، ثم أخرجه إلى خارج وقال : انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها ، وقال له : هكذا يكون نسلك وقال له : أنا الرب الذى أخرجك من أرض الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها ، فقال له : أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها ؟ فقال له : خذ لى عجلة ثلاثية ، وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة ، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه ، وأما الطير فلم يشقه ، فنزلت الجوارح على الجثث وكان إبراهيم يزجرها . . ثم غابت الشمس ، فصارت العتمة ، وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع .

٢٦١ — مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ .

٢٦٢ — ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

آيتان كريمتان فيهما حض على البذل والإنفاق فى سبيل الله ، وفيهما حث على الجود فى سبيل الخير والإنسانية ورضاء الله ، وفيها وعد من الله جل جلاله بالمكافأة الحسنة السخية ، وبالجزاء الحسن الأبدى الدائم عند الله ..

وفى الواقع أنه من الآية الحادية والستين بعد المائتين حتى الآية الرابعة والسبعين بعد المائتين قد أفاض الله عز وجل فى الحض على البذل والسخاء والإنفاق والصدقة والإحسان، وحث الناس على عدم التردد فى البذل أو التعلة بالفقر والجوع ، وبذل الوعد كريماً صادقاً للمحسنين والباذلين والمنفقين .. وقد كنت عازما على تناول هذه الآيات الأربع عشرة مرة واحدة بالشرح والتفسير ، لولا أن تناولها مرة واحدة قد يقود القارىء إلى الملل ، ويحول بينه وبين الفهم الدقيق لكل آية ، ومن أجل ذلك جزأت الكلام على هذه الآيات الأربع عشرة ليكون ذلك أدعى إلى الإفهام وأسهل فى البيان .

والإنفاق فى سبيل الله يتناول كل إنفاق فى سبيل الخير والمروءة والكرم وفى سبيل الوطن والإنسانية .. فإنفاق الرجل على أسرته ، وإنفاقه على المحتاجين من ذوى رحمه ، أو على المحتاجين من الفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل ، هو إنفاق فى سبيل الله .. وإنفاق الرجل المال فى إنشاء المدارس والمستشفيات والملاجىء إنفاق فى سبيل الله ، وإنفاقه على تجهيز الجيش وإمداده بالمعدات ليكون قويا قادرا على الدفاع عن حمى الوطن إنفاق فى سبيل الله .. والإنفاق على اللاجئين المشردين من أبناء فلسطين العربية المسلمة ، أو من أبناء الجزائر المجاهدة المكافحة إنفاق فى سبيل الله ، وكذلك الإنفاق على طلاب الجامعات والمدارس الفقراء ، أو على المنكوبين فى حوادث الحريق أو السيول أو الزلازل هنا أو فى العالم العربى أو الإسلامى إنفاق فى سبيل الله ؛ وكذلك المساعدات التى تقدمها الدولة للمنكوبين فى دولة أخرى بيننا وبينها عقد سلام وتعاون هى من الإنفاق فى سبيل الله ؛ وكل مال يبذله الإنسان فى خير أو مروءة أو إنسانية هو من الإنفاق فى سبيل الله .

ويقول صاحب تفسير المنار : إن أمر الإنفاق فى سبيل الله أشق الأمور على النفوس لاسيما إذا اتسعت دائرة المنفعة فيما ينفق فيه ، وبعدت نسبة من ينفق عليه عن المنفق ، فإن كل إنسان يسهل عليه الإنفاق على نفسه وأهله وولده إلا أفرادا من أهل الشح المطاع ، وهذا النوع من الإنفاق

لا يوصف صاحبه بالسخاء ، ومن كان له نصيب من السخاء سهل عليه الإنفاق بقدر هذا النصيب ، فمن كان له أدنى نصيب فإنه يرتاح إلى الإنفاق على ذوى القربى والجيران ، فإن زاد أنفق على أهل بلده فأمته فالناس كلهم ، وذلك منتهى الجود والسخاء . وإنما يصعب على المرء الإنفاق على منفعة من يبعد عنه ، لأنه فطر على أن لا يعمل عملا لا يتصور لنفسه فائدة منه ، وأكثر النفوس جاهلة باتصال منافعها ومصالحها بالبعداء عنها ، فلا تشعر بأن الإنفاق فى وجوه البر العامة : كإزالة الجهل بنشر العلم ، ومساعدة العجزة والضعفاء ، وترقية الصنائع وإنشاء المستشفيات والملاجىء ، وخدمة الدين المهذب للنفوس ؛ هو الذى تقوم به المصالح العامة ، حتى تكون الأمة كلها سعيدة عزيزة ، فعلمهم الله تعالى أن ما ينفقونه فى المصالح يضاعف لهم أضعافا كثيرة ، فهو مفيد لهم فى دنياهم ، وحثهم على أن يجعلوا الإنفاق فى سبيله وابتغاء مرضاته ليكون مفيدا لهم فى آخرتهم أيضا ، فذكر أولا أن الإنفاق فى سبيل الله بمنزلة إقراضه تعالى ، ووعد بمضاعفته أضعافا كثيرة ، ثم ضرب الأمثال وذكر قصص الذين بذلوا أموالهم وأرواحهم فى سبيله .

ومن أهم أبواب الإنفاق فى سبيل الله الإنفاق فى سبيل نشر الدين ، وتشجيع العلم الدينى ، ومساعدة الطلاب الذين وقفوا أنفسهم على دراسات الدين ، وابتعدوا عن الدراسات الأخرى ؛ مع قلة فرص الحياة أمام المتخرجين من الجامعات الدينية وكثرتها أمام سواهم .

وفى السنة أحاديث كثيرة فى فضل الإنفاق فى سبيل الله ، وأحاديث أكثر تبين صنيع السلف الصالح فى هذا المجال الإنسانى الكريم .

يروى عن أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة ؛ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار. وانظروا إلى صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا السبيل- يروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

أصابنى جهد شديد فلقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاستقرأته آية من كتاب الله عز وجل، فدخل داره وفتحها على فمشيت غير بعيد فخررت لوجهى من الجهد والجوع ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على رأسى فقال : يا أبا هريرة فقلت : لبيك رسول الله وسعديك .فأخذ بيدى فأقامنى وعرف الذى بى فانطلق بى إلى رحله فأمر لى بعس [١] من لبن فشربت منه ثم قال : عد يا أباهريرة فعدت فشربت ثم قال: عد فعدت فشربت حتى استوى بطنى قال: فلقيت عمر وذكرت له الذى كان من أمرى ، وقلت له تولى الله ذلك من كان أحق به منك ياعمر ، والله لقد استقرأتك الآية ولأنا أقرأ لها منك ،قال عمر: والله لأن أكون أدخلتك أحب إلى من أن يكون لى مثل حمر النعم [٢] .

قوله تعالى « مثل الذين ينفقون » أى يبذلون « أموالهم » بطيب النفس « فى سبيل الله » أى فى طاعته ؛ ومثل ما ينفقون «كمثل حبة » أى زارع حبة فلابد من حذف كما تقرر، أو يقال: مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة « أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » والمنبت هوالله تعالى، ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء ، ومعنى إنباتها سبع سنابل أن يخرج منها ساق يتشعب منه سبع شعب لكل واحدة سنبلة ، وهذا التمثيل تصوير لمضاعفة الله عز وجل الجزاء للمنفقين كأنها مصورة بين عينى الناظرين ؛ فإن قيل : كيف صح هذا التمثيل ولم نر سنبلة فيها مائة حبة، فالجواب أن ذلك موجود فى بعض النباتات وفى بعض الأرض القوية الخصبة، وعلى تقدير عدم وجوده هو غير مستحيل ، وما لا يكون مستحيلا يجوز ضرب المثل به ، وتأول ذلك الضحاك فقال :كل سنبلة أنبتت مائة حبة « والله يضاعف لمن يشاء » بفضله تلك المضاعفة ، أو يضاعف على هذا ويزيد لمن شاء ما بين سبعين إلى سبعمائة إلى ما شاء من قدر المضاعفة ما لا يعلمه إلا الله ، على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ، ومن أجل ذلك تتفاوت الأعمال فى مقادير

(١) العس : القدح الضخم .
(٢) النعم: الإبل ، ويكثر تعبير العرب بها لأنها من أنفس أموالهم ، لاسيما الحمر .

الثواب « والله واسع » أى غنى يعطى عن سعة «عليم» بنية المنفق وقدر إنفاقه ، وبمن يستحق المضاعفة .

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » أى فى طاعته ، يروى أنها نزلت فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما ، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: عندى ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسى وعيالى أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها ربى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ؛ وأما عثمان فجهز المسلمين فى غزوة تبوك بألف بعير وألف دينار ، قال عبد الرحمن ابن سمرة : جاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم يدخل فيها يده ويقلبها ويقول : ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم ، وقال : يارب عثمان رضيتُ عنه فارض عنه ، « ثم لا يتبعون ما انفقوا منا » أى على المنفق عليه بقولهم مثلا : قد أحسنت إليه وجبرت حاله ، فيعدون عليه النعمة ، فحذر الله عباده المن بالصنيعة . وكان السلف يقولون : إذا صنعتم صنيعة فانسوها ، والعرب يتمدحون بترك المن ويذمون عليه . والمن هو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن هو إليه ، يظهر به تفضله عليه ؛ وأما الأذى فهو أعم ، ومنه أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن عليه بما ربما يكون أشد عليه مما لو ذكره له . وقيل : المن أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقا ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه ، قالوا : وإنما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة (لا) للدلالة على شمول النفى بافادة أن كلا من المن والأذى كاف وحده لإحباط العمل وعدم استحقاق الثواب على الإنفاق . وقالوا أن العطف بثم لإظهار علو رتبة المعطوف عليه. والتعبير بثم التى تفيد التراخى مع العلم بأن المن أو الأذى العاجل أضر، وأجدر بأن يجعل تركه شرطا لتحصيل الأجر ؛ لأن من يقرن النفقة بالمن أو الأذى أو يتبعها أحدهما أو كليهما عاجلا لا يستحق أن يدخل فى الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله أو يوصف بالسخاء المحمود عند الله . وإذا كان من يمن

أو يؤذى بعد الإنفاق بزمن بعيد لا يعتد الله بإنفاقه ولا يؤجره عليه ولا يقيه الخوف والحزن، أفلا يكون المتعجل به أجدر بذلك؟ بلى، وإنما الكلام في السخى الذى ينفق فى سبيل الله مخلصا متحريا للمصلحة والمنفعة لا باغيا جزاء ممن ينفق عليه ولا مكافأة، ولكنه قد يعرض له بعد ذلك ما يحمله على المن والأذى المحبطين للأجر، كأن يرى من كان أنفق عليه غمطا لحقه أو إعراضا عنه وتركا لما كان من احترامه إياه، فيثير ذلك غضبه حتى يمن أو يؤذى، ومثل هذا قد يقع من المخلصين فحذرهم الله تعالى منه. وقد حمل ابن جرير الإنفاق فى الآية على إعانة المجاهدين، وصور المن والأذى بالانتقاد عليهم ورميهم بالتقصير فى جهادهم وكونهم لم يقوموا بالواجب عليهم، ثم قال: «وإنما شرط ذلك فى المنفق فى سبيل الله، وأوجب الأجر لمن كان غير مان ولا مؤذ من أنفق عليه فى سبيل الله، لأن النفقة فى سبيل الله مما ابتغى به وجه الله وطلب به ما عنده، فإذا كان معنى النفقة فى سبيل الله هو ما وصفنا فلا وجه لمن المنفق على من أنفق عليه، لأنه لا يد له قبله ولا صنيعة يستحق بها عليه المن والأذى، إذا كانت نفقة ما أنفق عليه احتسابا وابتغاء ثواب الله وطلب مرضاته، وعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه. وقوله تعالى: «لهم أجرهم عند ربهم» يشعر بأن هذا الأجر عظيم، من رب قادر كريم، فقد أضافهم إليه تشريفا لهم وإعلاء لشأنهم «ولا خوف عليهم» يوم يخاف الناس وتفزعهم الأهوال «ولا هم يحزنون» يوم يحزن البخلاء الممسكون عن الإنفاق فى سبيل الله والمبطلون لصدقاتهم بالمن والأذى بل هم أهل الأمن والطمأنينة، والسرور الدائم والسكينة.

وبذلك ينتهى الربع الأول من الجزء الثالث من القرآن الكريم، الذى اشتمل على حكمة الله تعالى فى إرسال الأنبياء، وفى نزول الرسالات من السماء، وعلى بيان منزلة الرسل عند الله، وتأييده لهم، ثم اختلاف أممهم من بعدهم وتركهم العمل بشرائعهم؛ واشتمل كذلك على الحث على الإنفاق فى سبيل الله، وعلى تصوير رائع لله وجلاله وعظمته وملكه وقدرته، لله الذى أمر بالإيمان وأمر بالإنفاق كذلك.. ويؤيد الله عز وجل أمر الإيمان وأنه لا بد أن

يكون صادراً من أعماق القلب دون إكراه عليه ، إذ لا إكراه فى الدين ، بعد ما بلغت الإنسانية رشدها ، وبلغ العقل منتهى القدرة على التفكير ، وتبين للناس كافة الضلال من الهدى والرشد من الغى ، وتبين لهم أن الإسلام هو خاتم الرسالات وأن عليهم الإيمان به لأنه العروة الوثقى ، ومن يؤمن به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وفى التعبير بكلمة « استمسك » زيادة تصوير لزيادة تمسك المسلم بسبب النجاة واعتصامه بأوثق العرى التى لا يخشى عليها من القطع ، والمؤمن بالإسلام إنما يؤمن بالله ويكفر بالضلالات وبالاستبداد والاستعباد ، ويكفر بكل رجس وبكل مضلل وقائد إلى النار ، والله معه ولا ريب ، فالله ولى المؤمنين يهديهم سواء السبيل ، أما الذين كفروا فالطاغوت وليهم ، والشيطان نصيرهم ، والضلال ملهمهم ، والنار مآلهم .

ثم تناول الله عز وجل قصة نمروذ فى حجاجه لإبراهيم فى شأن الإله ووجوده وقدرته ، وقصة عزير أو أرميا فى شكه فى قدرة الله على بعث شعب إسرائيل للحياة مرة أخرى بعد الذل والاستعباد والأسر ، حيث أماته الله مائة عام ثم بعثه ليكون آية للناس على قدرة الله وعظمته ، وكان عزير أو « عزرا » نبياً من أنبياء بنى إسرائيل أرسله الله إلى بنى إسرائيل بعد غزو كورش الأكبر ملك فارس لمملكة اليهود فى فلسطين وتخريبها ، وفى سفر « عزرا » فى العهد القديم وصف له بأنه كاتب شريعة إله السماء ، وقد أرسل « عزرا » ليبشر اليهود بالعودة من الأسر ، ولذلك جمعهم من المنفى بإذن ملك من خلفاء كورش الأكبر ، وعاد بهم إلى « أورشليم » . أما أرميا فهو أيضا من أنبياء بنى إسرائيل وقد حبسه اليهود ، فبعث الله « بختنصر » على مملكة اليهود فدمرها وأحرق بيت المقدس وسبى أهلها ونفاهم إلى بابل ، وأخرج أرميا من الحبس وأكرمه وأوصى به قائد جيشه ، وكان أرميا صوت عزاء لبنى إسرائيل فى محنتهم وبشيراً لهم بالعودة بعد المحنة والنفى والتشريد والعذاب والقتل والاضطهاد .

وتناول كذلك سؤال إبراهيم لربه بأن يريه كيف يحيى الموتى ليطمئن قلبه ،

وما تلقاه إبراهيم من الله جل وعلا ، وأمره له بأن يذبح أربعة من الطير ويقطعهن أجزاء، ويرمى على كل جبل منهن جزءا ، ثم يدعوهن فيأتينه سعيا .

كما تناول هذا الربع الحض على الإنفاق وبيان ثمرته العاجلة ، بأن الله يضاعف المال الذى يخرج منه جزء فى سبيل الله أضعافا كثيرة لمن يشاء من عباده ؛ وكم رأينا من رجل محسن كانت ثروته لا تقدر بعشرات الجنيهات فاستحالت ثروته بعد قليل من الزمن إلى مئات الألوف من الجنيهات ، بل إلى ملايين عديدة فى بعض الأحيان .

٢٦٣ — قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ .

٢٦٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

٢٦٥ — وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

٢٦٦ — أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ

فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

٢٦٧ — يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ .

٢٦٨ — ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ .

٢٦٩ — يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ .

٢٧٠ — وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ .

٢٧١ — إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

تسع آيات كريمة تحدث فيها القرآن الكريم حديثاً طويلا بليغاً رائعاً عن الإنفاق فى سبيل الله كذلك ، وحث عليه ، وبين ضرورته ونفى العلل التى تقوم عقبة فى سبيله وحذر منها ، وبعث الأريحية الكريمة فى نفوس المؤمنين والمسلمين .. والإنفاق فى سبيل الله والفقراء فيه خير وبركة للمنفق ، وفيه خير وقوة للأمة والوطن ، وفيه عزاء ومواساة للمحرومين من أبناء الوطن .

وفيه حصانة للمجتمع وطبقاته من الفوضى والانحلال والإخلال بالنظام وحقد الفقراء على الأغنياء ، وفيه كذلك إرضاء للضمير ولبواعث الخير والرحمة فى نفس الإنسان ، وفيه استجابة للمثل الكريمة وللأخلاق الفاضلة ولنداء الإنسانية ولصوت الله جل جلاله . وهو ضرورة للأمة لحفظ كيانها ولنهضتها وتقدمها وازدهارها .

قوله تعالى « قول معروف » أى كلام حسن ورد على السائل جميل ، لأن القول الجميل وإن كان يرد السائل يفرح به قلبه وروحه ، وقيل عادة حسنة « ومغفرة » أى بأن يستر عليه خلته ولا يهتك ستره ويتجاوز عنه إذا وجد منه مايثقل عليه عند رده « خير من صدقة » يدفعها إليه « يتبعها أذى » أى منّ وتعيير للسائل أو قول يؤذيه ، فإن قيل : لم لم يعد ذكر المن فيقول : يتبعها من ولا أذى . فالجواب أن الأذى يشمل المن وغيره ، وإنما نص عليه فيما مر لكثرة وقوعه من المتصدقين وعسر تحفظهم منه ولذلك قدم على الأذى ، وقال بعض المفسرين : الآية واردة فى صدقة التطوع ، لأن الواجب لايحل منعه ، ويحتمل أن يراد بها الواجب ، فإنه قد يعدل به عن سائل إلى سائل وعن نفر إلى نفر « والله غنى » عن صدقة العباد ، وإنما أمرهم ليثيبهم عليها « حليم » بتأخير العقوبة عن المان والمؤذى بصدقته «ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم» أى ثوابها ، لأن الصدقة وقعت فلا يصح أن تبطل « بالمن والأذى » وظاهر هذا اللفظ أن مجموع المن والأذى يبطلان الثواب ، فيلزم أنه لو وجد أحدهما دون الآخر لايبطل الآخر ، ويمنع هذا بأن الشرط أن لايوجد واحد منهما لأن قوله تعالى « ثم لايتبعون ماأنفقوا منا ولا أذى » يقتضى أن لايقع هذا ولا هذا ، أى فتبطل بكل واحد منهما إبطالا « كالذى » أى كإبطال أجر نفقة الذى « ينفق ماله رئاء الناس » أى مرائيا لهم ليروا نفقته ويقولون إنه كريم سخى « ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » وهو المنافق ، لأن الكافر معلن بكفره غير مراء « فمثله » أى هذا المرائى فى إنفاقه «كمثل صفوان » وهو الحجر الأملس « عليه » أى استقر عليه « تراب » والتراب معروف « فأصابه وابل »

وهو المطر الشديد العظيم القطر «فتركه صلدا» أى أملس نقيا من التراب، وقوله تعالى «لايقدرون على شىء مما كسبوا» استئناف لبيان مثل المنافق المنفق رياء، أى لايجدون له ثوابا فى الآخرة كما لايوجد على الصفوان شىء من التراب الذى كان عليه لإذهاب المطر له، وقوله تعالى «لايقدرون» بعد قوله «كالذى ينفق» أريد بالذى ينفق الجنس أو الفريق الذى ينفق لأن «من» و «الذى» يتعاقبان، فكأنه قيل: كمن ينفق، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا يارسول الله وما الشرك الأصغر قال: الرياء يقول الله لهم يوم يجازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء. وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه أن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد، أى أمره، ليقضى بينهم وكل أمة جاثية، وأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى؟ قال بلى، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان قارىء وقد قيل؛ ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال بلى يارب قال: فماذا عملت فيما أتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله للرجل: كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل؛ ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول له: فبماذا قتلت؟ فيقول: يارب أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى: كذبت وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جرىء، ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة «والله لايهدى القوم الكافرين» إلى الخير والرشاد، وفيه تعريض بأن الرياء والمن والأذى على الإنفاق صفة الكفار ولابد أن يبحث

عنها « ومثل » نفقات « الذين ينفقون أموالهم ابتغاء » أى طلب « مرضاة الله » أى رضاه « وتثبيتا من أنفسهم » أى تثبيتا بالنظر فى إصلاح العمل وإخلاصه بالحمل على الحلم والصبر على جميع مشاق التكاليف، وإن من راض نفسه بحملها على بذل المال الذى هو شقيق الروح فإن بذله أشق شىء على النفس، لأن النفس إذا رضيت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه لشهواتها فيسهل عليه حملها على سائر العبادات، ومتى تركها وهى مطبوعة على التناقص زاد طمعها فى اتباع الشهوات، فمن للتبعيض ومعناه أن من بذل ماله وروحه فهو الذى ثبتها كلها، أو المعنى يفعل هذا تصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم، لأنه إذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه فـ (من) على هذا لابتداء الغاية كقوله تعالى «حسدا من عند أنفسهم» «كمثل جنة» أى بستان «بربوة» هى المكان المرتفع الذى تجرى فيه الأنهار فلا يعلوه الماء ولا يعلو على الماء، وإنما جعلها بربوة لأن النبات عليها أحسن وأزكى «أصابها وابل» أى مطر شديد كثير «فآتت» أى أعطت «أكلها» أى ثمرتها «ضعفين» أى مثلى ما يثمر غيرها بسبب الوابل، والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال، لأن الضعف قدر الشىء ومثله معه فيكون الضعفان أربعة ورجحه البقاعى، قال أبو حيان: يحتمل أنها للتكثير أى ضعفا بعد ضعف، أى أضعافا كثيرة؛ لأن النفقة لا تضاعف بحسنة فقط بل بعشر وسبعمائة وأزيد «فإن لم يصبها وابل فطل» أى مطر خفيف يصيبها ويكفيها لارتفاعها، والمعنى تثمر وتزكو كثر المطر أو قل، فكذلك نفقات من ذكر تزكو عند الله كثرت أو قلت «والله بما تعملون بصير» فيجازيكم به؛ ففيه وعد ووعيد.

«أيود أحدكم» أى أيحب أحدكم حبا شديدا «أن تكون له جنة» أى بستان «من نخيل» جمع نخلة، ومثلها كمثل المؤمن الذى ينتفع به كله «وأعناب» جمع عنب وهو شجر الكرم، لا يختص ثمره بجهة العلو اختصاص النخلة، بل يتفرع علوا وسفلا ويمنة ويسرة، مثله كمثل المؤمن التقى الذى يكرم بتقواه فى كل

جهة ، تجرى من تحتها الأنهار ، أى من تحت هـذه الأشجار ، له فيها ، أى الجنة ، من كل الثمرات ، فهى محتوية على سائر أنواع الأشجار ، وإنما خص النخل والعنب بالذكر لشرفهما وكثرة منافعهما وحسن منظرهما ، وأصابه ، أى والحال أنه أصابه ، الكبر ، أى كبر السن فصار لا يقدر على الاكتساب ، وله ذرية ضعفاء ، بالصغر كما ضعف هو بالكبر ، فأصابها ، أى الجنة ، إعصار ، هو الريح العاصف الذى يرتفع إلى السماء كأنه عمود ، وتسميه العامة الزوبعة وجمعه أعاصير ، والإعصار من بين سائر الرياح مذكر ، ولهذا رجع الضمير إليه مذكرا فى قوله ، فيه نار فاحترقت ، تلك الجنة ، ففقدها وهو أحوج ما كان إليها ، وبقى هو وأولاده عجزة متحيرين لا حيلة لهم ؛ وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المنافق والمرائى ، يقول : عمله فى حسنه كحسن الجنة فإذا كبر وضعف وصار له أولاد صغار أصاب جنته إعصار فيه نار فاحترقت وهو أحوج ما يكون إليها ، وضعف عن إصلاحها لكبره وضعفت أولاده عن إصلاحها لصغرهم ، ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده ما يعودون به عليه ، فبقوا جميعا متحيرين عجزة لا حيلة لهم ، كذلك يبطل الله عمل المنافق والمرائى فى الآخرة حين لا مغيث لهما ولا توبة ولا إقالة . والاستفهام بمعنى النفى ، وعن ابن عباس : هو مثل ضرب لرجل عمل بالطاعات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله ، كذلك ، أى مثل هذا البيان ، يبين الله ، أى الذى له الكمال كله ، لكم الآيات لعلكم ، أى لكى ، تتفكرون ، فيها فتعتبرون بها .

ولما ذكر سبحانه وتعالى الإنفاق ، وذكر أنه على قسمين ، وبين كل قسم وضرب له مثلا ، ذكر كيفية الإنفاق بقوله تعالى : ، يأيها الذين آمنوا أنفقوا ، أى زكوا ، من طيبات ، أى جياد ، ما كسبتم ، من المال بالتجارة والصناعة ، وفيه دلالة على إباحة الكسب وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وقال صلى الله عليه وسلم : ما أكل أحد طعاما قط

خيرا من أن يأكل من عمل يده . وكان داود يأكل من عمل يده ، والزكاة واجبة فى مال التجارة ، فبعد الحول تقدر (السلع) فيخرج من قيمتها ربع العشر إذا كانت قيمتها عشرين دينارا أو مائتى درهم ، قال سمرة بن جندب : كان صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذى يعد للبيع « ومما » أى ومن طيبات ما « أخرجنا لكم من الأرض » من الحبوب والثمار والمعادن وفى هذا أمر بإخراج العشر من الثمار والحبوب ، واتفق العلماء على إيجاب العشر فى النخيل والكروم ، وفيما يقتات به من الحبوب إن كان مسقيا بماء السماء أو من نهر يجرى الماء فيه من غير مؤونة، وإن كان مسقيا بساقية أو آلة ففيه نصف العشر لقوله صلى الله عليه وسلم : فيما سقت السماء والعيون أو كان عشريا العشر ، وفيما يسقى بالنضح نصف العشر ، وعنه صلى الله عليه وسلم : ليس فى حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق ، وقال قوم : الآية فى صدقة التطوع ، قال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كانت له به صدقة « ولا تيمموا » أى لا تقصدوا « الخبيث » أى الردىء « منه » ، أى من المذكور « تنفقون » فى الزكاة ، حال مقدرة من ضمير تيمموا « ولستم بآخذيه » أى الخبيث « إلا أن تغمضوا » أى تتسامحوا « فيه » أغمض بصره إذا غضه ، وروى عن البراء قال : لو أهدى ذلك لكم ما أخذتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ ، فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟ وعن ابن عباس : كانوا يتصدقون بحشف التمر ورديئه فنهوا عن ذلك ، هذا إذا كان المال كله أو بعضه جيدا ، فإن كان كل ماله رديئا فلا بأس بإعطاء الردىء « واعلموا أن الله غنى » عن إنفاقكم ، وإنما يأمركم به لانتفاعكم « حميد » أى يجازى المحسن أفضل الجزاء على أنه لم يزل محمودا ولا يزال ـ عذب أو أثاب . « الشيطان يعدكم الفقر » أى يخوفكم به إن تصدقتم ، ويقال : وعدته خيرا وأوعدته شرا ، قال تعالى فى الخير « وعدكم الله مغانم كثيرة » وقال فى الشر « النار وعدها الله الذين كفروا » فإذا لم يذكر الخير والشر قلت فى الخير « وعدته » وفى الشر « أوعدته » ، والفقر سوء الحال وقلة ما فى اليد ، وأصله من كسر الفقار ، ومعنى الآية أن الشيطان

يخوفكم بالفقر ويقول للرجل : أمسك مالك فإنك إذا تصدقت افتقرت « ويأمركم بالفحشاء » أى بالبخل ومنع الزكاة ، قال الكلبي : كل فحشاء فى القرآن فهو الزنا إلا هذا الموضع « والله يعدكم مغفرة منه » لما وقع منكم من تقصير ، وفيه إشعار بأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره ، لما له من الإحاطة بصفات الكمال ولما جبل عليه الإنسان من النقص « وفضلا » بالزيادة فى الدارين وكل نعمة منه بفضل ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى « والله واسع » فضله « عليم » بالمنفق وغيره ، وفيه إشارة إلى أنه لا يضيع شيئا وإن دقّ وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى قال : « ابن آدم أنفق أنفق عليك » ، وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يمين الله ملأى لا ينقصها نفقة ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض . وعن أسماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : انفق ولا تحصى فيحصى الله عليك ، ولا توعى فيوعى الله عليك « يؤت الحكمة » أى العلم النافع المؤدى إلى العمل ، وقال السدى : هى النبوة ، وقال ابن عباس وقتادة : علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثال ذلك ، وقال الضحاك : هى القرآن والفهم فيه ، وقال : فى القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة ، وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن ، وقال مجاهد : هى القرآن والعلم والفقه ، وقوله تعالى « من يشاء » أخر للاهتمام « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » لمصيره إلى السعادة الأبدية « وما يذكر » أى ما يتعظ بما قص من الآيات أو ما يتفكر - فإن المتفكر كالمتذكر - لما أودع الله فى قلبه من العلوم بالقوة ، « إلا أولو الألباب » أى أصحاب العقول الخالصة من شوائب الوهم ومن الميل إلى متابعة الهوى « وما أنفقتم » أى أديتم « من نفقة » قليلة أو كثيرة سرا أو علانية زكاة أو صدقة تطوع « أو نذرتم من نذر » بشرط أو بغير شرط فوفيتم به « فإن الله يعلمه » فيجازيكم به ، وتوحيد الضمير فى « يعلمه »

وقد تقدم شيئان هما النفقة والنذر لأن العطف بأو وهى لأحد الشيئين تقول : زيد أو عمرو أكرمته ولا يجوز أكرمتهما، بل يجوز أن يراعى الأول نحو: زيد أو هند منطلق أو الثانى نحو زيد أو هند منطلقة والآية من هذا . ومن مراعاة الأول: وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها «وما للظالمين» بمنع الزكاة والنذر أو بوضع الإنفاق فى غير محله من معاصى الله تعالى «من أنصار» أى من ينصره من الله ويمنعهم من عذابه ، فهو على طريق التوزيع والمقابلة أى لاناصر لظالم قط «إن تبدوا» أى تظهروا «الصدقات» أى النوافل «فنعما هى» أى فنعم شيئاً إبداؤها «وإن تخفوها» أى تسروها «وتؤتوها الفقراء» أى تعطوها لهم فى السر «فهو خير لكم» أى أفضل من إبدائها ، وإيتاؤها للفقراء أفضل من إيتائها للأغنياء ، سئل صلى الله عليه وسلم : صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية ؟ فنزلت هذه الآية ، وفى الحديث : صدقة السر تطفىء غضب الرب ، وقال صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه متعلق بالمسجد ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه . نعم إن كان ممن يقتدى به ، فالإظهار فى حقه أفضل أما صدقة الفرض فالأفضل إظهارها كالصلاة المكتوبة فى الجماعة أفضل ، والنافلة فى البيت أفضل وليقتدى به لئلا يتهم ، ولا يجوز دفع شىء منها للأغنياء ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا ، هذا والصدقة تطلق على الفرض والنفل قال تعالى : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم» ، وقال عليه الصلاة والسلام «نفقة المرء على عياله صدقة» ، والزكاة لاتطلق إلا على الفرض «ونكفر عنكم من سيآتكم» أى بعضها وقيل (من) زائدة ، وقوله تعالى «والله بما تعملون خبير» فيه ترغيب فى الإسرار لأنه عالم بباطن الشىء كظاهره لايخفى عليه شىء منه .

هذه الآيات الكريمة هى الربع الثانى من الجزء الثالث من القرآن الكريم، وقد تناولت الدعوة إلى الإنفاق والبذل والصدقة على أنها ضرورة قومية وإنسانية واجتماعية قبل أن تكون فريضة دينية .

وفى هذه الآيات البليغة دعوة إلى عدم إفساد الصدقات بالمن والأذى أو بالرياء ، ودعوة إلى القول المعروف للسائل والمحروم ، والقول المعروف هو كل كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره ، يرد به السائل من غير عطاء وستر لما وقع منه من الإلحاف فى المسألة وغيره مما يثقل على النفوس ، أو ستر حال الفقير بعدم التشهير به خير له من صدقة يتبعها أذى ، وقيل: إن المراد بالمغفرة المغفرة من الله تعالى لمن يرد السائل ردا جميلا ، وذلك خير له عند الله تعالى من صدقة يتبعها أذى ، فهو يستحق عليها العقاب من حيث يرجى الثواب . وقيل : القول المعروف يتوجه تارة إلى السائل إن كانت الصدقة عليه وتارة يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا هاجم البلد عدو وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه، فمن لم يكن له مال يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث على العمل وينشط العامل ، ويبعث عزيمة الباذل ، والمغفرة أن تغضى عن نسبة التقصير فى الإنفاق إليك ، وأن تظهر فى هيأة لا ينفر منها المحتاج ولا يتألم من فقره أمامك . والمعنى أن مقابلة المحتاج بكلام يسر وهيأة ترضى خير من الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو سوء المقابلة ، ولا فرق فى المحتاج بين أن يكون فردا أو جماعة ، فإن مساعدة الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه وإظهار استهجانه وبيان التقصير فيه أو تشكيك الناس فى فائدته ، لا توازى هذه المساعدة إحسان القول فى ذلك العمل الذى تطلب له المساعدة والإغضاء عن التقصير الذى ربما يكون من العاملين فيه، فكونك مع الأمة بقلبك ولسانك خير من شىء من المال ترضخ به مع قول السوء وفعل الأذى . ومعنى هذه الخيرية أنه أنفع وأكثر فائدة لا أنه يقوم مقام البذل ويغنى عنه، فمن آذى فقد بغض نفسه إلى الناس بظهوره فى مظهر البغضاء لهم. ولا شك أن السلم والولاء ، خير من العداوة والبغضاء ، وأن أضمن شىء

لمصلحة الأمة وأقوى معزز لها هو أن يكون كل واحد من أفرادها فى عين الآخر وقلبه فى مقام المعين له وإن لم يعنه بالفعل .

ويضرب الله عز وجل الأمثال للذى يبطل صدقاته بالمن والأذى فلا يبقى له ثواب ولا نفع ولا فائدة قليلة أو كثيرة بالحجر الأملس إذا كان عليه شىء من التراب ، ثم أصابه مطر غزير عظيم القطر فأزال عنه ما أصابه حتى عاد أملس ليس عليه شىء من ذلك التراب ، فكذلك المان والمؤذى والمرائى لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، ولا ينتفعون بشىء من صدقاتهم ونفقاتهم ، ولا يجنون ثمراتها فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم ضرب الله المثل للمخلصين فى الإنفاق لأجل المقابلة بين أولئك المرائين والمؤذين ، فذكر مثلا بليغا ليتبين منه الفرق بين الفريقين ، وحال الطائفتين ، فشبه حال الذين ينفقون مالهم عن إخلاص وطلب لمرضاة الله وثوابه فى زيادة ثوابهم وكثرة أجرهم ، وغزارة منفعتهم بحال بستان فى مكان مرتفع ، أصابه مطر غزير ، أو أصابه مطر خفيف يكفيه لجودة تربته ، وكرم منبته وحسن موقعه .

وقد عرف بالاختبار أن الأرض الجيدة فى المواقع المعتدلة يكفيها القليل من الرى لرطوبة ثراها وجودة هوائها ، فإن الشجر يتغذى من الهواء كما يتغذى من الأرض ، والمعنى أن هذه الجنة أكلها دائم وظلها ، كثر ما يصيبها من المطر أوقل ؛ فإن لم يكن ثمرها مضاعفاً لم يكن معدوما ؛ ووجه الشبه فى التمثيل عندى أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو فى إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه ، كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب ، فى كثرة بره وحسنه ، فهو يجود بقدر سعته ، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره ، فخيره دائم وبره لا ينقطع ؛ لأن الباعث عليه ذاتى لا عرضى كأهل الرياء وأصحاب المن والإيذاء .

وعاد القرآن الكريم إلى ضرب المثل لعدم انتفاع المرائين بصدقاتهم تأكيداً للمراد ، وتقوية للمعنى ، وإيضاحا للمقابلة بين الحالين ، فشبه الله

عز وجل حال المنفقين عن رياء فى يوم الحساب ـ وهم فى أشد الحاجة إلى حسنة عملوها أو عمل صالح قدموه ثم لا ينالهم من صدقاتهم شىء ، ولا يكسبون منها فائدة ، ولا تعود عليهم من ثمرتها عائدة ـ بحال حديقة مورقة مزهرة مملوءة بالنخيل والأعناب والمياه تجرى فى وسطها ولصاحبها منها كل الثمرات ، ثم بلغ الكبر ، وجعلها مورد عيشه هو وأطفاله الصغار ، يعتمد عليها فى حياته ، فأصابها ريح عاصف فيه نار من صاعقة أو خلافها فاحترقت ، أو أن المراد بالنار السموم الشديد أو البرد الشديد، وذلك روايتان عن السلف ذكرهما ابن جرير بأسانيده ، وهو دليل على أن النار تطلق على كل مايحرق الشىء ولو بتجفيف رطوبته ، والصر أى البرد الشديد كالحر الشديد فى ذلك كلاهما يحرق الشجر والنبات ، يقول الله تعالى فى أسلوب استفهام إنكارى : أيود الإنسان لو تكون له جنة معظم شجرها الكرم والنخل اللذان هما أجمل الشجر وأنفعه، كثيرة المياه حاوية لأنواع من الثمرات الكثيرة، قد نيطت بها آماله ، ورجا أن ينتفع بها عياله ، ويصيبه الكبر الذى يقعده عن الكسب ، فى حال كثرة ذريته وضعفهم عن أن يقوموا بشأنه وشأنهم حتى لايبقى له ولالهم مورد للرزق غيرهذه الجنة ، وبينا هو كذلك إذا بالجنة قد أصابها الإعصار، فأحرقها بما فيه من سموم النار ، وقد اختلف المفسرون فى تفسير «له فيها من كل الثمرات» مع كون الجنة من نخيل وأعناب ، فقال بعضهم : إن المراد بالثمرات هنا المنافع أى هو متمتع بجميع فوائدها ، وقيل : المعنى له فيها رزق من كل الثمرات على حد «وما منا إلا له مقام معلوم» أى ما منا أحد إلا له الخ ، وقيل المراد أن له حظاً من كل شىء وسهما من كل ثمر ؛ أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرائى وقالوا : إن المعنى أنه سيكون فى يوم القيامة عند شدة الحاجة إلى ثواب نفقته التى راءى بها كذلك الشيخ الكبير الذى احترقت جنته التى لا معاش له سواها ، عند ماكثرت عياله الضعفاء وعجز عن العمل ؛ فلا يملك من ثوابها شيئا ولا يقدر أن يكسب ما يغنيه عنه . والمثل ينطبق أيضا على من أبطل صدقته بالمن والأذى . وليس خاصا بالآخرة ، فإن باذل المال

للفقراء وفى المصالح العامة يكون له من الجاه والمكانة عند الناس ما يشبه تلك الجنة التى وصفها المثل فى رونقها ومنافعها ، ويوشك أن يذهب مال هذا المنفق وتشتد حاجته وتقصر يده حتى لا يكون له مرتزق إلا ما غرسته يده من جنته تلك؛ فيحاول أن يجنى منها فيحول دون ذلك إعصار من المن والأذى، أو من ظهور الرياء فيحرقها حتى تكون كالصريم لا تؤتى ثمرتها ، ولا تسر رؤيتها ، كذلك تكون عاقبة أهل الرياء وذوى المن والإيذاء ، ينبذهم الناس، عند شدة حاجتهم إلى الناس ، ولذلك أرشدنا تعالى بعد المثل ، إلى التفكير فى عاقبة هذا العمل ، فقال « كذلك يبين الله لكم الآيات » أى أنه تعالى يبين لكم الآيات الدالة على حقائق الأمور وغاياتها وفوائدها وغوائلها ، مثل هذا البيان البارز فى أبهى معارض التمثيل « لعلكم تتفكرون » فى العواقب فتضعون نفقاتكم فى المواضع التى يرضاها مع الإخلاص وقصد تثبيت النفس حتى لا يستخفها الطيش والإعجاب فيدفعها إلى المن والأذى .

والقرآن الكريم يفيض فى الدعوة إلى التدبر والتفكير وإلى إعمال العقل ، وإلى إنعام النظر فى آيات الله وإلى ترك التقليد ، والقرآن الكريم يجعل من أهم أصوله الدعوة إلى التفكير والتعقل .

والأصل الأول عند العلم فى النظر هو العقل ، وكذلك هو فى الإسلام . إن القرآن الكريم كله ينطق بأن الإسلام قام على العقل ، وحاكم إلى العقل ، وأمر باتباع العقل ، بمختلف أساليب البيان ؛ فتارة يتلطف ويرغب فى استعمال العقل والفكر : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ، « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » . وتارة يظهر التعجب الشديد والتأفف من تعطيل العقل : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » ، « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون » . وتارة يمدح أهل العقل ويخصهم بالخطاب : « وما يذكر إلا أولو الألباب » ، « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » ، « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » ؛ ثم تارة يسلك

سبيل الذم البالغ لمن يهملون عقولهم ويعطلونها : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » ، « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » . وفى هذا ما فيه من توكيد ناحية العقل وتنبيه الإنسان إلى أن من أخص خصائصه التفكير والتدبر والفهم والتعقل ، فلا ينبغى له التنزل عن أخص خصائصه بتعطيل عقله ، وإلا فقد تنزل عن إنسانيته وصار فى الأنعام أو شرا من الأنعام . ولقد بلغ من إكبار الإسلام للعقل واتخاذه أصلا ومرجعا أن أباح للمسلم إذا تعارض العقل والنص أن يؤول النص إلى ما يقضى به العقل . والعقل هنا طبعا ليس هو عقل الفرد ، ولكن عقل المجموع ؛ ليس هو العقل الخاص الذى يجوز عليه الخطأ - وكثيرا ما يخطىء - ولكن هو العقل العام الذى يستحيل عليه الخطأ ، والذى لا يقتنع بشىء أنه الحق إلا إذا قام عليه الدليل القاطع . فتشريع الدين تأويل النص إلى ما يوجبه العقل أو بالأحرى إلى ما يطابق ما ثبت عند العقل بالدليل القاطع ، هو التنفيذ العملى فى الإسلام لمبدأ استحالة التناقض بين الحقائق ، ولمبدأ وجوب الأخذ بالحق كيفما ظهر وأينما كان . فالحق فى العلم وفى الإسلام أحق أن يتبع لذاته لا لغيره ، وفى سبيل الحق يجب أن يجاهد الناس ، وعلى الوصول إليه يجب أن يتعاونوا ، وبه إذا وصلوا إليه يجب أن يستمسكوا . هذا هو أخص خصائص الروح العلمية فى ميدانها ، وهو فى الوقت نفسه أخص خصائص المؤمن حتى فى المعاملة . فإن الصفات التى ضمن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلم بها الجنة إذا هو ضمنها من نفسه فى الحديث الكريم : « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اتتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف : غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » هذه الصفات ليست فى صميمها إلا أخذا بالحق فى أعم صوره ، واحتراما له ووقوفا عنده .

ودعا الله عز وجل إلى أن يكون المال المبذول للفقراء وللأعمال العامة ولوجوه الخير والبر هو من طيب المال ، ومن أحسن مالدى الإنسان ، إذ

لا يصح القصد إلى الأموال الرديئة ورصدها للإنفاق والتبرع والإحسان.
واختلف المفسرون فى تفسير الطيب هل يراد به الحلال أو الجيد ، إذ كل جيد وحسن يوصف بالطيب وإن كان حسنه معنويا ، فيقال : البلد الطيب والكلم الطيب ، وأسلوب الآية يؤيد المعنى الثانى. وما ورد فى سبب نزول الآية يؤيد ذلك، وهو أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من حشف التمر وهورديئه، رواه ابن جرير عن البراء بن عازب ، وفى رواية عن الحسن: كانوا يتصدقون من رذالة مالهم ، وفى أخرى عن على كرم الله وجهه نزلت هذه الآية فى الزكاة المفروضة ، كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الردىء . وقد أورد ابن جرير فى ذلك عدة روايات.
والمعنى : أنفقو من جياد أموالكم ولا تيمموا أى تقصدوا الخبيث فتجعلوا صدقتكم منه خاصة دون الجيد ؛ فهو نهى عن تعمد حصر الصدقة فى الخبيث ولا يدل على منع التصدق به من غير تعمد ولا حصر ، ولو أريد بالخبيث الحرام لنهى عن الإنفاق منه البتة لا عن قصد التخصيص فقط . أما وقد جاءت الآية بالأمر بالإنفاق من الطيبات من غير حصر للنفقة فيها ، وبالنهى عن تحرى الإنفاق من الخبيث خاصة دون الطيب لا عن مطلق الإنفاق من الخبيث ، فلا يجوز مع هذا أن يراد بالطيبات الحلال وبالخبيث المحرم . على أن الأصل فى مال المؤمنين أن يكون حلالا ، وإنما خوطبوا بالإنفاق مما فى أيديهم فلو أريد بالطيبات والخبيث ماذكر لكان الخطاب مبنيا على أن أموال المؤمنين فيها الحلال والحرام، وكان منطوق الآية : أنفقوا من الحلال ولا تتحروا جعل صدقاتكم من الحرام وحده ، ومفهومها جواز التصدق بالحرام أيضا وهذا ما يأباه النظم الكريم ، والشرع القويم .

ويحذر الله عز وجل من وسوسة الشيطان للإنسان ، ومن إغرائه لهم بالبخل وترك الإنفاق ، إذ يجب على المؤمن أن يطرح جانبا وحى الشيطان ،

وأن يستمع إلى وحى الرحمن ؛ الذى يعد الإنسان لا بالفقر والفحشاء ، ولكن بالخير والفضل والمغفرة .

ويؤكد القرآن الكريم ضرورة عدم التفات الإنسان إلى إغراء الشيطان وبعده عنه وإلى الاستجابة لصوت الله ونداء الواجب والعمل بمقتضاه، وبمقتضى الدين الذى هو الحكمة وفيه الخير للناس وللأمم ، والتمييز بين النداءين هو الحكمة ، وقيل : إن الحكمة المراد بها هنا العمل الصحيح الذى يكون صفة محكمة فى النفس حاكمة على الإرادة توجهها إلى العمل ، ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة . وكم من محصل لصور كثير من المعلومات خازن لها فى دماغه ليعرضها فى أوقات معلومة لا تفيده هذه الصور التى تسمى علما فى التمييز بين الحقائق والأوهام ، ولا فى التزييل بين الوسوسة والإلهام ، لأنها لم تتمكن فى النفس تمكنا يجعل له سلطانا على الإرادة ، وإنما هى تصورات وخيالات تغيب عند العمل ، وتحضر عند المراء والجدل ، والمراد بإيتائه الحكمة من يشاء إعطاؤه آلتها ـ العقل ـ كاملة ، مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة فى تحصيل العلوم الصحيحة فالعقل هو الميزان القسط الذى توزن به الخواطر والمدركات، ويميز بين أنواع التصورات والتصديقات ، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام ، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام ، وقد روى عن ابن عباس أن الحكمة هى الفقه فى القرآن،أى معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بعللها وحكمها ، لأن هذا الفقه هو أجل الحقائق المؤثرة فى النفس الماحية لما يعرض لها من الوساوس ، حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح ، ولا شك أن من فقه ما ورد فى الإنفاق وفوائده وآدابه من الآيات لا يكون وعد الشيطان له بالفقر وأمره إياه بالبخل مانعا له منه .

وقيل : الحكمة هى إصابة الحق والعمل به ، أو هى العقل والفهم والفطنة ، أو هى الاعتدال فى التفكير والعمل ، أو إتقان الأشياء علما وعملا ، او هى

كمال على يحصل للنفس الإنسانية من اقتباس العلوم النظرية بالفكر الصحيح وتسمى الحكمية العلمية ، وكمال عملى يحصل لها من اكتساب الملكة التامة على التزام الأعمال الفاضلة على قدر الطاقة البشرية ، ويسمى : الحكمة العملية ، والغاية من ذلك كله واحدة .

وهذه الآية الكريمة « يؤتى الحكمة » الخ بإطلاقها - ترفع من شأن العقل والحكمة ، واستعمال العقل ، وتبعد عن التقليد والجمود الذى يترتب عليه الحرمان من إرشاد العقل وتدبيره وتوجيهه .

ومن الحكمة أن تسعى الأمم إلى اقتباس العلوم المفيدة والصناعات المثمرة ، وإلى دراسة ماجد فى الحياة من نظريات وكشوف علمية بلغت قمتها اليوم فى عصر الذرة ، والتخلف عن ذلك حمق وجهل وجمود وموت وسير بالأمة إلى الإنهيار .

ويعود القرآن الكريم فيصور علم الله بأعمال الإنسان وبالنفقات التى ينفقها المنفق ، ويدعو إلى الإنفاق وإلى إخفاء الصدقات ، لأن ذلك شأن المخلصين الذين يقصدون بما ينفقون وجه الله وحده . وقد رأينا فى عصرنا أثرياءنا يتبرعون بالألوف بقصد نوال رتبة أومنصب أو وسام ، ويتنافسون فى ذلك تنافسا شديدا طلبا لمرضاة الحكام دون أن يجعلوا الله تعالى وحده وجهتهم وقصدهم ، بل إنهم يتعمدون النشر عن صدقاتهم فى الصحف السائرة لينالوا الشهرة والجاه والحمد من الناس ، وذلك هو البوار وهو الانحطاط وهو ضعف الإيمان بالله وبالمثل الإنسانية الكريمة فى نفس الإنسان ، أعاذنا الله من شر هذا الوبال . وكتب للمسلمين صالح الأقوال والأعمال .

وفى هـذا المقام ننبه إلى أن الإسلام يحارب الفقر حربا لا هوادة فيها ، ويقيم اشتراكية عادلة يتعاون فيها الفقراء والأغنياء ، ويجعل الزكاة فريضة اجتماعية لخدمة الفقراء ، ويبنى تشريعاته على أساس عملى صحيح .. وكم رأينا من دول متأخرة تقنن أحدث التشريعات الحديثة لشعوبها ثم تجعل تنفيذها محاطا بصعوبات كثيرة ، مكتفية بالمظهر دون الحقيقة ، وبالقشور دون اللب . من

حيث يوصى الإسلام بالعمل ويكره القول ، ويأمر بمراقبة الله فى كل صغيرة وكبيرة ، ويحذر من الإعلان والضجة والرغبة فى الشهرة وحب الظهور والرياء حين أداء الأعمال التى يأمر بها .

إنه دين الإنسانية المهذبة ، والمثل الرفيعة ، والعمل الصامت ، والحقائق العملية المؤدية لخير الأمة ونهضتها وتقدمها ورفعتها .

وما بالك بدين يرفع منزلة الفقير إلى مستوى أعظم الأغنياء ، ويسوى بينهما فى الحقوق والواجبات ، ويفرض له من مال الدولة وأموال الأثرياء ما يكفى حاجته ، ويسد خلته ، ويقيم حياته على أساس كريم .

٢٧٢ — لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

٢٧٣ — لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

٢٧٤ — ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

ثلاث آيات كريمة ، يتمم بها الله جل جلاله الحديث عن الإنفاق والبذل والإيثار والإحسان ، وأداء حقوق الفقراء ، والصدقة على المساكين ، والسخاء فى نوائب المعروف .

أما الآية الأولى فقد أخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا إلا على أهل دينكم ؛ فأنزل الله تعالى « ليس عليك هداهم » ، وأخرج ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس أن

النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا فنزلت. والمقصود أن هذه الوقائع تقدمت نزولها فلما نزلت كانت فصلا فيها وإلا فهى مرتبطة بما قبلها وما قبلها نزل فى الفقراء عامة . فالآية السابقة قد أطلقت إيتاء الفقراء وجعلته على عمومه الشامل للمؤمن والكافر ، وقد أرشد الله المسلمين فى هذه الآية إلى عدم التحرج من الإنفاق على المشركين لأنهم غير مهديين ، فإن الرحمة بالفقير وسدخلته لا ينبغى أن يتوقف على إيمانه بل من شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ، وأن يكون سابقا لسائر الناس بالكرم والفضل، وهنا تظهر معالم الروح الإنسانى فى الإسلام ، ويبين بوضوح وجلاء تقدميته ونبذه للعصبيات ، وأنه دين البشرية عامة ، وشريعة الناس كافة ، وعقيدة الإنسانية كلها ؛ إن الإسلام لا يفرق بين أتباعه وغير أتباعه فى وجوب الإحسان إليهم ، والتصدق عليهم ؛ والتخفيف عنهم ، والبذل لهم، ومواساتهم فى الشدائد ، ومعاونتهم فى الخطوب ؛ وهذا هو المثل الأعلى ، ولله المثل الأعلى ، والله عزيز حكيم .

هذا والخطاب على ما ورد فى حديث سعيد وحديث ابن عباس الأول خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم لنهيه عن الإنفاق ، وأن هـذا التوجيه عام موجه إلى المؤمنين كافة وإن جاء بضمير المخاطب المفرد ، ويؤيده كونه فى سائر الآية بضمائر جمع المخاطبين . وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكلف هداية الكافرين بالفعل وإنما كلف البلاغ فقط وأعلم أن أمر الناس فى الاهتداء مفوض إلى ربهم وما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم من السنن فغيره أولى بأن لا يكلف ذلك ، فليس علينا إذا أن نمنع الخير عن الكافر عقوبة له على كفره أوجذبا له إلى الإيمان واضطرارا له إلى الهداية ، فإن الهداية ليست علينا ، ولكن الله يهدى من يشاء ، بتوفيقه إلى النظر الصحيح المؤدى إلى الاعتقاد الجازم الذى يثمر العمل .

« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » أى أن الإنفاق لم يشرع إلا للصالح العام إذ أنه يحول دون حقد الفقراء على الأغنياء ، ويمنع عنهم عاديتهم ، وبدونه ربما اضطرت الحاجة الفقراء إلى السلب والنهب والإخلال بالأمن ونظام المجتمع ، وهذه العلة موجوده فى الفقير المسلم وغيره على السواء . . ويصح أن يكون المعنى أن ثواب الإنفاق فى الدنيا والآخرة مقصور على المنفقين ، ومنفعة الإنفاق عائدة عليهم .

« وما تنفقوا من خير يوف إليكم » ثوابه أضعافا مضاعفة ، فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن إنفاقه ، وأن يكون على أحسن الوجوه وأجلها ، والجملتان تأكيد للأولى وهى « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » ،وهذا استجابة لقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل لمنفق خلفا ولممسك تلفا » رواه البخارى « وأنتم لاتظلمون » أى لاتنقصون من ثواب اعمالكم شيئا تفضلا من الله تعالى عليكم، وهذا فى صدقةالتطوع ، أباح الله تعالى أن توضع فى أهل الإسلام وأهل الذمة ، وقيل حجت أسماء بنت أبى بكر فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها فنزلت ، وروى النسائى والحاكم أن ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع ، وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام ، فلما أسلموا كرهو أن ينفقوا عليهم فنزلت ، وعن بعض العلماء لوكان المنفق عليه أشر خلق الله كان لك ثواب نفقتك ، وأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا فى المسلمين ، لكن جوز ابو حنيفة رحمه الله صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة .

وقوله تعالى « للفقراء » خبر مبتدأ محذوف أى صدقاتكم للفقراء ، أو متعلق بفعل مقدر كاجعلوا ما تنفقون للفقراء « الذين احصروا فى سبيل الله » أى حبسوا أنفسهم على الجهاد وهم فقراء المهاجرين، كانو نحوا من أربعمائة لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر ، كانوا يسكنون صفة المسجد يقضون أوقاتهم فى التعلم والعبادة ، وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهم المشهورون بأصحاب الصفة ، فحث الله عليهم الناس، فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى « لا يستطيعون ضربا فى الأرض » أى سفرا للتجارة والمعاش لشغلهم عنه بالجهاد « يحسبهم الجاهل » بحالهم « أغنياء من التعفف » أى لأجل تعففهم عن السؤال « تعرفهم » أيها المخاطب « بسيماهم » أى بعلامتهم من التخشع والتواضع وصفرة الوجوه ورثاثة الحالة « لا يسألون الناس » شيئا فيلحفون « إلحافا » أى لا سؤال لهم أصلا فلا يقع منهم إلحاف ، والإلحاف : الإلحاح وهو اللزوم وأن لا يفارق من يسأله، من قولهم: لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ماعنده ، وقيل: إنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا ، قال صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب الحيى الحليم المتعفف ، ويبغض البذىء السآل الملحف ، وقال صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه.

ثم قال تعالى بعد بيان أحق الناس بالصدقة « وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » لايخفى عليه حسن النية فيه وتحرى النفع به ووضعه فى موضعه وإيتائه أحق الناس فأحقهم به، فهو يجازى عليه بحسب ذلك . فالجملة تذييل مرغب فى الإنفاق على الوجه الذى سبقت الهداية إليه ، هذا وكل ماتقدم من الآيات فى الانفاق كان فى الترغيب فيه ، وبيان فوائده فى أنفس المنفقين وفى المنفق عليهم وفى الأمة التى يكفل أقوياؤها ضعفاءها وأغنياؤها فقراءها ، ويقوم فيها القادرون بالمصالح العامة ، وفى آداب النفقة وفى المستحق لها وأحق الناس بها ونحو ذلك من الأحوال ، إلا ما يتعلق بالزمان ، فقد ذكره الله تعالى فى قوله « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية » وفيه بيان عموم الأوقات مع عموم الأحوال من الإظهار والإخفاء ، وفى تقديم الليل على النهار والسر على العلانية إيذان بتفضيل صدقة السر ، ولكن الجمع بين السر والعلانية يقتضى أن لكل منهما موضعا تقتضيه الحال وتفضله المصلحة لا يحل غيره محله .

وهؤلاء الذين ينفقون أموالهم فى كل وقت وكل حال لايقبضون أيديهم مهما لاح لهم طريق للإنفاق ، هم الذين بلغوا نهاية الكمال فى الجود والسخاء

وطلب مرضاة الله تعالى . وقد ورد أن الآية نزلت فى الصديق الأكبر عليه الرضوان إذ أنفق أربعين ألف دينار ، قيل : اتفق أن كان عشرة منها بالليل وعشرة بالنهار وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية ، ونقل الألوسى عن السيوطى أن خبر تصدقه بأربعين ألفا رواه ابن عساكر فى تاريخه عن عائشة ، ولكن ليس فيه أن الآية نزلت فى ذلك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما بسند ضعيف عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى على كرم الله وجهه كانت له أربعة دراهم ، فأنفق بالليل درهما وبالنهار درهما وسرا درهما وعلانية درهما ، وفى رواية الكلبى : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماحملك على هذا ؟ قال : حملى أن أستوجب على الله الذى وعدنى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن ذلك لك » ، والعبارة تدل على أنه أنفق ذلك بعد نزول الآية . وأخرج ابن المنذر عن سعيد ابن المسيب أنها نزلت فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف إذ أنفقا فى جيش العسرة . وأخرج الطبرانى وابن أبى حاتم أنها نزلت فى أصحاب الخيل ، وفى إسناد هذه الرواية مجهولان . فلم يصح فى سبب نزولها شىء ومعناها عام أى الذين ينفقون أموالهم فى كل وقت وكل حال ، لا يحصرون الصدقة فى الأيام الفاضلة أو رءوس الأعوام ولا يمتنعون عن الصدقة فى العلانية إذا اقتضت الحال العلانية ، وإنما يجعلون لكل وقت حكمه ولكل حال حكمها ، إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها .

وقوله تعالى « فلهم أجرهم عند ربهم » يشعر بأن هذا الأجر عظيم ، وفى أضافتهم إلى الرب ما فيها من التكريم ، « ولا خوف عليهم » يوم يخاف البخلاء الممسكون من تبعة بخلهم « ولاهم يحزنون » وقد تقدم تفسير مثل هذا الوعد الكريم .

وإلى هنا تنتهى هذه الآيات الكريمة التى أبان الله فيها وجوب تعاون المجتمع بجميع طبقاته ، وتكاتف الإنسانية بجميع أديانها ومذاهبها ، على البر والخير والتقوى والإنسانية الرفيعة ، وعلى البذل والإحسان والإيثار والسخاء

والإكرام للنكوب والفقير ، وذى الحاجة ،ومواساة المحروم واليتيم والمسكين وابن السبيل ، سواء كان المتصدق عليه من بنى الإسلام أم ليس من أتباعه ؛ فالإنسانية تجمع الناس كافة ، والمثل العليا تقرب بين أتباع الأديان عامة ، والتوحيد الخالص يؤلف بين الأمم والشعوب والبشر أجمعين .

وأهل الصفة الذين أشار إليهم القرآن الكريم كانوا طبقة من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه ، ممن آثروا مجالس العلم والعبادة ، وانقطعوا لها، وأكبوا على تعلم الدين والشريعة وعلوم الإسلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهم منشأ التصوف فى الإسلام ، وقيل: إن اسم التصوف مشتق من الصفة والصحيح أنه مشتق من « صوفى » بمعنى الحكمة . وأهل الصفة قيل : كانوا أربعمائة أرصدوا أنفسهم لحفظ القرآن والخروج مع السرايا ، والمشهور أن متوسط عددهم كان ثلاثمائة ، والذين عرفت أسماؤهم منهم لا يبلغون مائة وهم من فقراء المهاجرين لم يكن لأكثرهم مأوى لذلك كانوا يقيمون فى صفة المسجد وهى موضع مظلل منه ، فالصفة بالضم كالظلة لفظا ومعنى ، وأولئك الذين نزلت فيهم هذه الآية « للفقراء » كانوا من الذين هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فحيل بينهم وبينها ، فهم محصرون فى سبيل الله بهذه الهجرة ، ومحصرون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن ، وقد كان حفظه أفضل العبادات على الإطلاق؛ لأنه حفظ للدين كله ، كانوا يحفظونه للفهم والاهتداء والعمل به ولحفظ أصل الدين بحفظه . وكانوا أيضا يحفظون ما يبينه به النبى صلى الله عليه وسلم من سنته .

ونزول الآية فى أهل الصفة هو المروى عن ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى ؛ وعن سعيد بن جبير أنها نزلت فى قوم أصابتهم الجراحات فى سبيل الله تعالى فصاروا زمنى فجعل لهم فى أموال المسلمين حقا . والقاعدة الأصولية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل من اتصف بهذه الصفات من الفقراء كان له حكم من نزلت فيهم الآية من استحقاق الصدقة ، وقد ذكر القرآن الكريم خمس صفات : أولاها ـ الإحصار فى سبيل الله فقوله تعالى

« أحصروا فى سبيل الله » بالبناء للمفعول يدل على أن المراد بالإحصار المانع من الكسب ما كان ترك الكسب فيه بسبب اضطرارى ، ويفهم منه أن حبس النفس فى سبيل الله أى فى الأعمال المشروعة التى تقوم بها المصالح كالجهاد ، والعلم لا ينبغى أن يمنع الإنسان عن الكسب الذى يستطيعه للقيام بأوده ، بل يطلب منه أن يعمل للمصلحة العامة فى أوقات الفراغ من العمل الذى به قوام معيشته ، فإن ترك الكسب مختارا لم يحل له أن يأخذ الصدقة . أما السبب الاضطرارى للإحصار عن الكسب فمنه ما هو طبيعى كالعجز وما هو شرعى كالعلم بتعطيل المصلحة العامة التى أحصر فيها إذا هو تركها لأجل الكسب ، فإذا تعين بعض الناس لذلك بأن كان غيرهم يعجز عن القيام بالمصلحة ، وكان جمعهم بينه وبين الكسب متعذرا وجب عليهم ترك الكسب وحبس أنفسهم فى سبيل الله ، وكانوا بذلك محصرين بالاضطرار الشرعى ووجبت نفقتهم فى بيت المال وإلا فعلى أغنياء الأمة . وإن لم يتعين لذلك أناس مخصوصون كان الأمر من فروض الكفاية كما هو ظاهر ومنه الإحصار لتعلم الفنون العسكرية . وثانيتها : أنهم « لا يستطيعون ضربا فى الأرض » أى أنهم عاجزون عن الكسب ، والضرب فى الأرض هو السفر لنحو التجارة ، وبذلك فسره المفسرون هنا . وهذا يؤيد ما قلناه آنفا من اشتراط الاضطرار فيما يحصر عنه وإن كان ما يحصر فيه اختياريا ، وإن القادر على الكسب ولو بالسفر لا يحل له أن يأكل الصدقة . وثالثتها : أنهم « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » أى إذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم يظنهم أغنياء لما هم عليه من التعفف ، وهو المبالغة فى التنزه عن الطمع فيما فى أيدى الناس وكل ما يليق كالقبيح والمحرم ، وقد فسر أهل اللغة التعفف بالعفة وبالصبر والنزاهة عن الشىء ، وجعله المفسرون هنا للتكلف ، ولكن صيغة تفعل تأتى لتكلف الشىء وللمبالغة فيه ، والثانى أظهر هنا ، لأن من يتكلف العفة قلما يخفى حاله على رائيه ، وأما المبالغ فى العفة فهو الذى لا يكاد يظهر عليه أثر الحاجة فهو المتبادر هنا ، والمقام مقام المدح ، والمبالغ فى الفضيلة أحق به من متكلفها . ورابعتها : أنهم

« تعرفهم بسيماهم » أى بعلامتهم الخاصة بهم ، قيل هى الخشوع والتواضع ، وقيل هى الرثاثة فى الثياب أو الحال وليسا بشىء ، وقيل بآثار الجوع والحاجة فى الوجه وهذا قريب ، والصواب أن هذه السيما لا تتعين بهيئة خاصة لاختلافها باختلاف الأشخاص والأصول ، وإنما تترك إلى فراسة المؤمن الذى يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق ، فصاحب الحاجة لايخفى على المتفرس مهما تستر وتعفف .

وخامستها أنهم « لا يسألون الناس إلحافا » أى لا يسألون الناس شيئا مما فى أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين ، وأهل الكدية المعروفين ، فالإلحاف هو الإلحاح فى السؤال ، والمعنى أنهم لا يسألون أحداً شيئا لاسؤال إلحاف ، ولاسؤال رفق واستعطاف ، ففى حديث أبى هريرة فى الصحيحين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذى يتعفف ، اقرأوا إن شئتم « لا يسألون الناس إلحافا » ، وفى قول : « ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس » . والسؤال محرم فى الإسلام لغير ضرورة . روى أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المسألة لاتحل إلا لثلاثة : لذى فقر مدقع أو لذى غرم مفظع أو لذى دم موجع » ، فالفقر المدقع هو الشديد الذى يلصق صاحبه بالدقعاء وهى الأرض التى لا نبات فيها ؛ والغرم بالضم ما يلزم أداؤه تكلفا لا فى مقابلة عوض ، ومنه ما يحمله الإنسان من النفقة لإصلاح ذات البين ولنحو ذلك من أعمال البر كدفع مظلمة وحفظ مصلحة ، فله أن يسأل الناس مساعدته على مايحمله من المغارم ؛ وقد اشترط فى الحديث أن يكون الغرم الذى تسأل الإعانة عليه مفظعا أى شديدا فظيعا ، فإذا تحمل غرما خفيفا يسهل عليه أداؤه فليس له أن يسأل لأجله ويختلف ذلك باختلاف حال المتحملين . وأما ذو الدم الموجع فهو الذى يتحمل الدية عن الجانى من

قريب أو حميم أو نسيب لئلا يقتل فيتوجع لقتله . وروى أبوداود والترمذى من حديث عبد الله بن عمر والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وأحمد من حديثهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لاتحل الصدقة لغنى ولالذى مرة [1] سوى » وقد حسنه الترمذى ؛ وروى أحمد وأبو داود والنسائى والدارقطنى عن عبيد الله بن عدى بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين فقال : « إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب » ، وروى أحمد وأبو داود وابن حبان عن سهل بن الحنظلية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وعنده مايغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم » ، قالوا يارسول الله : وما يغنيه ؟ قال « مايغديه أو يعشيه » ، وعند أبى داود « يغديه ويعشيه » ، وقد احتج الإمام أحمد بهذا الحديث وصححه ابن حبان . وروى أحمد والشيخان من حديث أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه » ، وروى أحمد ومسلم وابن ماجه من حديثه أيضا « من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل منه أو ليستكثر » . . والعمل مطالب به فى الإسلام ، والسؤال مكروه ، ولا يباح إلا لضرورة ملحة ، ولحاجة قصوى ، ولابد لهذا من أن توفر الدولة العمل للعاملين ، وتتيح الفرصة للناس ليكافحوا فى سبيل العيش وكسب القوت والإنفاق على أسرهم وأقربائهم ، والإسلام يضع لكل شىء قواعد محكمة عادلة لاحيف فيها ولا ضرر ، بل صلاح المجتمع والإنسانية فى السير عليها ، والعمل بها ، واتباع منهجها . . والعمل فى الإسلام هو ديدن المكافحين والمجاهدين والعاملين ، وهو صفة أهل التعفف والنبل والخلق السوى ، وهو شعار ذوى الحسب والنسب الحق ؛ ومن المؤلم لكل ضمير أن نرى أبناء الشعوب الإسلامية

---

(١) بكسر الميم : القوة ، والسوى الخلق السليم الأعضاء القادر على الكسب .

يقضون أوقاتهم فى المقاهى ويبذرونها بلا حساب ، بل يضيعون مصالح أنفسهم وأهلهم وأولادهم من أجل لعب (النرد) وغيره فى مقهى من المقاهى ، وهذا إتلاف لساعات العمر بلا حساب ، وإذا كنا نحجر على السفهاء الذين يبذرون أموالهم ، فأولى منهم بالحجر عليهم السفهاء الذين يبذرون أوقاتهم بلا حساب ، يصرفونها فى السير على الأرصفة ، والجلوس فى الطرقات ، والحياة على المقاهى ، وتتبع الناس والمارة بلا رقيب .

٢٧٥ — ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

٢٧٦ — يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ .

٢٧٧ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

٢٧٨ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

٢٧٩ — فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

٢٨٠ — وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.

٢٨١ — وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

سبع آيات من آيات الذكر الحكيم، تتضمن أصلا جليلا من أصول الإسلام الخالدة، ونظرية ضخمة من نظريات الاقتصاد الإسلامى؛ وهى نظرية تخالف كل المخالفة الأسس التى ينبنى عليها الاقتصاد الغربى الحديث.

فى هذه الآيات يحرم القرآن الكريم الربا تحريما باتا، ويفرق بينه وبين عمليات البيع، ويبين أن الربا نار تهلك المال، أما الزكوات والصدقات وما فى حكمها من الضرائب التى تأخذها الدولة على رأس المال فأداؤها يجعل الخير والبركة فى رأس المال، ويوصى القرآن الكريم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وبتقوى الله، ويدعو إلى ترك الربا، وإلا كان ذلك موجب حرب وخصومة بين المتعاملين بالربا، وبينهم وبين الله عز وجل ورسوله الكريم.. وينبه الكتاب الكريم بأن عمليات الدَّين يجب أن لا يكلف المدين فيها بأكثر من رأس المال إذا كان قادرا، أما إذا كان عاجزا عن السداد فيجب تأجيل الأداء إلى ميسرة، ولأن يتصدق صاحب الدين بدينه على المدين المعسر خير له فى الدنيا والآخرة، ويحذر الله عز وجل من مخالفة أمره، لأن وراء كل إنسان يوما يرجع فيه إلى الله، ويحاسبه مولاه على ماقدمت يداه، وينال جزاء ماكسب ولا يظلم ذرة ولا فتيلا.. وهنا يتضح أساس الاقتصاد فى الإسلام، وهو أن رأس المال يجب أن يكون فى خدمة الناس كافة، ويجب أن يكون تداوله بين الناس على سبيل القرض حرا دون فائدة أو زيادة، أما تداوله على سبيل التجارة أو الشركة فله أحكام أخرى فصلها الفقه الإسلامى فى أبواب: البيع والمزارعة والمساقاة والشركة والكفالة. وأما تداوله بين الناس على سبيل الرغبة فى

إيصال المنفعة إلى الآخرين فذلك مفصل فى أبواب : الصدقة والهبة والوصية، وأما تداوله على سبيل الفريضة الاجتماعية فذلك مفصل فى باب الزكاة ، وأما تداوله بين الرجل وأقربائه فى حالة الوفاة فذلك مفصل فى باب الميراث .

إن رأس المال فى الإسلام يجب أن يكون فى خدمة الناس دون فائدة أو ربح أو استغلال ، يجب أن تأخذ وأن تعطى دون زيادة ودون فائدة ودون عمولة ، كما يجب أن لا ينتهز أحد فرصة إعسار مسلم ، فيعطيه القرش ويأخذه منه قرشين أو ثلاثة مثلا ، فتداول رأس المال وقيامه بوظيفة اجتماعية فى الأمة واجب مفروض على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله .

وهذه الآيات الكريمة فى تحريم الربا ، وقد كان معروفا فى الجاهلية يتعامل به اليهود والمشركون ، وهذه الآيات من آخر آيات القرآن نزولا ، وذكرت فى النظم بعد آيات الصدقة التى آخرها آيات الكاملين فى السخاء والجود ، الذين ينفقون فى عامة الأوقات والأحوال ، لما بينهما من التقابل ، فالمتصدق يعطى المال بغير عوض يقابله ، والمرابى يأخذ المال بغير عوض يقابله .

وقد كان الربا المعهود عندهم فى الجاهلية أن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول له الذى عليه المال : أخر عنى دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه .

وفى حكمة تحريم الربا يقول الإمام محمد عبده : الربا مسألة كبيرة اتفقت فيها الأديان ولكن اختلفت فيها الأمم ، فاليهود كانوا يرابون مع غيرهم ، والنصارى يرابى بعضهم بعضا ويرابون سائر الناس، وقد كان المسلمون حفظوا أنفسهم من هذه الرذيلة زمنا طويلا ثم قلدوا غيرهم ، ومنذ نصف قرن فشت المراباة بينهم فى أكثر الأقطار ، حتى لا تكاد تجد متمولا فى هذه البلاد سالماً من الاستدانة بالربا إلا قليلا ، والسبب فى ذلك تقليد حكامهم فى هذه السنة ، بل كثيراً ما كان حكام هذه البلاد يلزمون الرعية بها إلزاما لأداء ما يفرضونه

عليهم من الضرائب والمصادرات، ومن هنا نرى أن الأديان لم يمكنها أن تقاوم ميل جماهير الناس إلى أكل الربا ، حتى كأنه ضرورة يضطرون إليها .
ومن حجتهم عليها أن البيع مثل الربا ، فكما يجوز أن يبيع الإنسان السلعة التى ثمنها عشرة دراهم نقداً بعشرين درهما نسيئة يجوز له أن يعطى المحتاج العشرة الدراهم على أن يرد إليه بعد سنة عشرين درهما، لأن السبب فى كل من الزيادتين الأجل . هكذا يحتج الناس فى أنفسهم كما تحتج الحكومات بأنها لو لم تأخذ المال بالربا لاضطرت إلى تعطيل مصالحها أوخراب أرضها . والله تعالى قد أجاب عن دعوى مماثلة البيع للربا بجواب على سنة هداية الدين ، وهو أن الله أحل البيع وحرم الربا . وقد جعل أكثر المفسرين هذا الجواب من قبيل إبطال القياس بالنص ، أى إنكم تقيسون فى الدين والله تعالى لا يجيز هذا القياس ، ولكن المعهود فى القرآن مقارعة الحجة بالحجة. وقد كان الناس فى زمن التنزيل يفهمون معنى الحجة فى رد القرآن لذلك القول، إذ لم يكن عندهم من الاصطلاحات الفقهية المسلمة ما هو أصل عندهم فى المسائل لا يفهمون الآيات إلا به ، ولا ينظرون إليها إلا لتحويلها إليه وتطبيقها على آرائهم ومذاهبهم فيه . والمعنى الصحيح أن زعمهم مساواة الربا للبيع فى مصلحة التعامل بين الناس إنما يصح إذا أبيح للناس أن يكونوا فى تعاملهم كالذئاب ، كل واحد ينتظر الفرصة التى تمكنه من افتراس الآخر وأكله ، ولكن ههنا إله رحيم يضع لعباده من الأحكام ما يربيهم على التراحم والتعاطف ، وأن يكون كل منهم عونا للآخر لاسيما عند شدة الحاجة إليه، ولذلك حرم عليهم الربا الذى هو استغلال ضرورة إخوانهم ، وأحل البيع الذى لا يختص الربح فيه بأكل الغنى الواجد مال الفقير الفاقد . فهذا وجه للتباين بين الربا والبيع يقتضى فساد القياس . وهناك وجه آخر وهو أن الله تعالى جعل طريق تعامل الناس فى معايشهم أن يكون استفادة كل واحد من الآخر بعمل ، ولم يجعل لأحد منهم حقا على آخر بغير عمل لأنه باطل لا مقابل له ، وبهذه السنة أحل البيع لأن فيه عوضا يقابل عوضا ، وحرم الربا لأنه زيادة لا مقابل لها . والمعنى أن

قياسكم فاسد ، لأن فى البيع من الفائدة ما يقتضى حله وفى الربا من المفسدة ما يقتضى تحريمه ؛ ذلك أن البيع يلاحظ فيه دائماً انتفاع المشترى بالسلعة انتفاعا حقيقيا ، لأن من يشترى قمحا مثلا فإنما يشتريه ليأكله أو ليبذره أو ليبيعه وهو فى كل ذلك ينتفع به انتفاعا حقيقيا . وأما الربا وهو عبارة عن إعطاء الدراهم والمثليات وأخذها مضاعفة فى وقت آخر فما يؤخذ منه زيادة رأس المال لا مقابل له من عين ولا عمل . وثم وجه ثالث لتحريم الربا من دون البيع وهو أن النقدين إنما وضعا ليكونا ميزانا لتقدير قيم الأشياء التى ينتفع بها الناس فى معايشهم ، فإذا تحول هذا وصار النقد مقصودا بالاستغلال فإن هذا يؤدى إلى انتزاع الثروة من أيدى أكثر الناس وحصرها فى أيدى الذين يجعلون أعمالهم قاصرة على استغلال المال بالمال ، فينمو المال ويربو عندهم ويخزن فى الصناديق والبيوت المالية المعروفة بالبنوك ، ويبخس العاملون قيم أعمالهم ، لأن الربح يكون معظمه من المال نفسه وبذلك يهلك الفقراء . ولو وقف الناس فى استغلال المال عند حد الضرورة لما كان فيه مثل هذه المضرات ، ولكن أهواء الناس ليس لها حد تقف عنده بنفسها — أى فلا بد لها من الوازع الذى يوقفها بالإقناع أو الإلزام — لذلك حرم الله الربا . وهو لا يشرع للناس الأحكام بحسب أهوائهم وشهواتهم كأصحاب القوانين ، ولكن بحسب المصلحة الحقيقية العامة الشاملة . وأما واضعو القوانين فإنهم يضعون للناس الأحكام بحسب حالهم الحاضرة التى يرونها موافقة لما يسمونه (الرأى العام) من غير نظر فى عواقبها ولا فى أثرها فى تربية الفضائل والبعد عن الرذائل . وإننا نرى البلاد التى أحلت قوانينها الربا قد عفت فيها رسوم الدين وقل فيها التعاطف والتراحم وحلت القسوة محل الرحمة ، حتى أن الفقير فيها ليموت جوعا ولا يجد من يجود عليه بما يسد رمقه ، فمنيت من جراء ذلك بمصائب أعظمها ما يسمونه (المسألة الاجتماعية) وهى مسألة تألب الفعلة والعمال على أصحاب الأموال واعتصابهم المرة بعد المرة لترك العمل وتعطيل المعامل والمصانع لأن أصحابها لا يقدرون عملهم قدره بل يعطونهم أقل مما يستحقون ، وهم يتوقعون من عاقبة

ذلك انقلابا كبيرا فى العالم ، ولذلك قام كثير من فلاسفتهم وعلمائهم يكتبون الرسائل والأسفار فى تلافى شر هذه المسألة، وقد صرح كثير منهم بأنه لاعلاج لهذا الداء إلا رجوع الناس إلى مادعاهم إليه الدين . وقد ألف تولستوى الفيلسوف الروسى كتابه المعروف عن العمل ، وفيه أمور يضطرب لفظاعتها القارىء ، وقد قال فى آخره : إن أوربا نجحت فى تحرير الناس من الرق ولكنها غفلت عن رفع نير الدينار (الجنيه) عن أعناق الناس الذين ربما استعبدهم المال يوما ما .

ويقول الإمام الغزالى « من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير ، وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامنفعة فى أعيانهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة فى مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك مايستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ، ويحتاج إلى الزعفران، فلابد بينهما من معاوضة ، ولابد فى مقدار العوض من تقدير ، إذ لايبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال : يعطى منه مثله فى الوزن أو الصورة، وكذا من يشترى داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار ، فهذه الأشياء لا تناسب فيها ، فلايدرى أن الجمل كم يساوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا . فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل ، فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ؛ فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال هذا الجمل يساوى مائة دينار ، وهذا القدر من الزعفران يساوى مائة ، فهما من حيث أنهما متساويان بشىء واحد إذاً متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لاغرض فى أعيانهما ، ولو كان فى أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض فى حق صاحب الغرض ترجيحا، ولم يقتض ذلك فى حق من لاغرض له فلا ينتظم الأمر، فإذاً خلقهما

الله تعالى لتتداولها الأيدى ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، ولحكمة أخرى وهى التوصل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان فى أنفسهما ولا غرض فى أعيانهما ، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة ، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام فى الثوب لأن غرضه فى دابة مثلا ، فاحتيج إلى شيء فى صورته كأنه ليس بشيء . وهو فى معناه كأنه كل الأشياء . والشيء إنما تستوى نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها ، كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون ، فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض ، وكالحرف لا معنى له فى نفسه وتظهر به المعانى فى غيره ، فهذه هى الحكمة الثانية . وفيهما إيضاحات يطول ذكرها . فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فإذاً من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة ، إذ لا غرض للآحاد فى أعيانهما فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولها الأيدى فيكونا حاكمين بين الناس . وعلامة معرفة المقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهى لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة ، أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم - بواسطة الحرف والصوت - المعنى الذى عجزوا عن إدراكه فقال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ، وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز ، لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه ، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تبدد ، وإنما الأوانى لحفظ المائعات ولا يكفى

الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود ، فن لم ينكشف هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له « من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نارجهنم » . وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لالنفسهما إذ لا غرض فى عينهما . فإذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم . ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشترى به طعاما ودابة إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده ، فإنهما وسيلتان إلى الغير لاغرض فى أعيانهما ، وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون : أن الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره ، وكموقع المرآة من الألوان ، فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله لبقى النقد متقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز ، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم كما أن حبسه ظلم ، فلامعنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم » اه المراد من كلام الغزالى ويليه حكم تحريم أنواع الربا كلها .

ويقول ابن القيم فى « اعلام الموقعين » : الربا نوعان : جلى وخفى ، فالجلى حرم لما فيه من الضرر العظيم ، والخفى حرم لأنه ذريعة إلى الجلى ، فتحريم الأول قصدا وتحريم الثانى وسيلة . فأما الجلى فربا النسيئة وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، مثل أن يؤخر دينه ويزيده فى المال ، وكلما أخره زاد فى المال حتى تصير المائة عنده آلافا مؤلفة . وفى الغالب لايفعل ذلك إلامعدم محتاج ، فإذا رأى المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها تكلف بذلها ليفتدى من أسر المطالبة والحبس ويدافع من وقت إلى وقت ، فيشتد ضرره وتعظم مصيبته ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده ، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ، ويزيد مال المرابى من غير نفع يحصل منه لأخيه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ويحصل أخوه على غاية الضرر . فمن رحمة الله تعالى

وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وهدد من لم يدعه بحرب الله وحرب رسوله، ولم يجيء مثل هذا الوعيد فى كبيرة غيره، ولهذا كان أكبر الكبائر. وسئل الإمام أحمد عن الربا الذى لا يشك فيه فقال : هو أن يكون له دين فيقول له أتقضى أم تربى ؟ فإن لم يقضه زاده فى المال وزاده هذا فى الأجل . وقد جعل الله سبحانه الربا ضد الصدقة ، فالمرابى ضد المتصدق قال الله تعالى « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » وقال « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التى أعدت للكافرين » ثم ذكر الجنة التى أعدت للمتقين «الذين ينفقون فى السراء والضراء» وهؤلاء ضد المرابين . فنهى سبحانه عن الربا الذى هو ظلم الناس وأمر بالصدقة التى هى إحسان إليهم . وفى الصحيحين من حديث ابن عباس عن أسامة بن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الربا فى النسيئة » ومثل هذا يراد به حصر الكمال وأن الربا الكامل إنما هو فى النسيئة كما قال « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون » إلى قوله « أولئك هم المؤمنون حقا » وكقول ابن مسعود : وإنما العالم الذى يخشى الله . . اهـ كلام ابن القيم فى الربا الجلى الذى لا شك فيه ، وأورد بعد ذلك فصلا فى ربا الفضل الذى حرم من باب سد الذرائع وهو أن يبيع الدرهم بالدرهمين وذكر خلاف الفقهاء فيه .

هذا والاقتصاديون يدرسون كما يقول أحد الباحثين الفائدة على رأس المال فى باب التوزيع ، فكما أن لرأس المال العقارى ريعا هو الدخل أو المبلغ الذى يدفعه المستأجر للمالك العقارى بصفة دورية ، وكما أن للعمل دخلا هو المبلغ الذى يحصل عليه الإنسان مقابل عمله الذى يقدمه لمشروع من المشروعات ، وكما أن الربح هو دخل المنظم من المشروع كذلك لرأس المال النقدى دخل هو الفائدة أى ثمن استعمال الأموال المقترضة . فهم يقصدون برأس المال الحالة

التى يقدم فيها الشخص (الرأسمالى) رأس المال ويحصل على فائدة ثابتة ، سواء خسر المشروع أم ربح ، زاد الربح أو قل ؛ وواضح أن تلك الفائدة لامبرر لها فى الحالة الأولى وهى تحكمية فى الحالة الثانية، إذ هى واجبة الدفع دائما بصرف النظر عن نتيجة المشروع . ويسمى العقد الذى يحدد فائدة رأس المال وكيفية دفعها وسائر الأحكام (عقد القرض بفائدة) . وهو عقد معروف من أقدم العصور، وقد حاربه فلاسفة اليونان، وقال أرسطو : إن النقود لاتلد النقود .

وقد حرم الإسلام الربا تحريما واضحا صريحا فى الكتاب والسنة قال تعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا » وقال صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات . . وفيها . . وأكل الربا » وكذلك حرمته جميع الشرائع السماوية ، ويعلل الاقتصاديون الحديثون تحريم الربا فى الماضى باختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى ذلك الوقت عنها الآن ، فالقرض فى الماضى لم يكن للإنتاج وإنما كان للاستهلاك ، فيقترض المقترضون للحصول على سلع الاستهلاك لأن دخلهم الحالى لا يكفى لإشباع حاجاتهم ، وكان المقترضون من الفقراء الضعفاء . والمقرضون من الأغنياء الأقوياء ، فحرمت الفائدة لمنع استغلال الأقوياء للضعفاء ، أما اليوم بعد أن أصبح الائتمان بقصد الإنتاج ، وأصبح المقرضون هم صغار المدخرين من الضعفاء ، والمقترضون هم كبار رجال الأعمال والمنتجين فلم يعد هناك سبب لتحريم الفائدة ، وأصبح من العدل والواجب أن يعطى هؤلاء المقرضون المدخرون جزءاً من أرباح المشروع الذى قام بالأموال التى ادخروها ، وهذا الجزء هو الفائدة .

وهذه الحجة لا تنهض دليلا لإباحة الربا فهى ظاهرة الضعف ، فنوعا القرض كانا معروفين وقد حرمهما الإسلام ، والقرآن نزل بمكة والمدينة ، ومعظم الآيات المدنية جاءت بأحكام المعاملات من بيع وتجارة وإجارة وربا . ومكة لم تكن لتعرف صناعة ولا زراعة . وانحصر كل نشاطها الاقتصادى فى التجارة ، فكانت قريش تتجر مع كل الجزيرة العربية وخصوصا مع اليمن والشام فى رحلتى الشتاء والصيف ، وكانت قريش تقرض

وتقرض بالفائدة للتجارة ، وفى المدينة كان اليهود كثيرين وكانوا من أصحاب الثروات فيها ، وكانوا يقرضون بفائدة للانتاج والاستهلاك ، أى أن كلا النوعين من القروض كان معروفا ومنتشراً فى مكة وفى المدينة عند نزول القرآن ، ثم جاء تحريم الفائدة فى القرآن شاملا لقروض الإنتاج والاستهلاك ، ووصفت آيات فى سورة البقرة المرابين بأبشع الصور ، وأنذرتهم بأشد أنواع العذاب . قال تعالى « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ، ذلك فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فقال ابن عباس : من كان مقيما على الربا لا ينزع عنه حق على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلا ضرب عنقه . وذلك تفسيراً لقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ، ولو أراد الله أن يحرم الربا فى حالة دون أخرى لذكر ذلك الحكم صراحة فى القرآن أو السنة ، ولكن تحريم الربا فى السنة جاء مؤكداً لما فى القرآن ومفصلا له ، فالسنة هى التى بينت أنواع الربا المحرم ، فحرمت ربا النسىء وربا الفضل فى العقود وفى المطعومات وغالبية ما كانت تفعله العرب من قولهم للغريم : أتقضى أم تربى ؟ فكان الغريم يزيد فى عدد المال ويصبر الطالب عليه . لذلك نصت المادة ٦٩٢ من مرشد الحيران على ما يأتى : « يجب على المستقرض رد مثل الأعيان المقترضة قدرا وصفة » ، وقالت المادة ٣٠٨ « يصح بيع المكيلات والموزونات بجنسها مثلا بمثل كأن تباع حنطة بحنطة أو دقيق بدقيق أو صابون بصابون بشرط أن يتساويا كيلا ووزنا ، فإن تفاضلا بأن كان أحدهما أكثر من الآخر فسد البيع ، ولا يعتبر التفاوت فى أجناس المكيلات والموزونات بين الطيب والردىء ، فيجوز بيع أحدهما طيبا والآخر ردينا إذا تساوى المكيلان كيلا والموزونان وزنا ، ويكفى العلم بمساواة البدلين فى مجلس العقد ، فلو تبايعا مكيلا بمكيل من جنسه مجازفة وعلم التساوى فى المجلس جاز » .

وعلى ذلك يشترط عند بيع المكيل بمكيل أو الموزون بموزون عدم

التفاوت فى البدلين ما داما من جنس واحد ، كبيع البر بالبر والشعير بالشعير والذهب بالذهب ، ولا ينظر فى ذلك إلى اختلافهما فى الجودة والأصناف ، وذلك لتجنب رباالفضل لأنه حرام ، فلا يصح بيع إردب من القمح بإردب وكيلة من قمح آخر ، ثم لابد مع هذا من تقابض البدلين فى مجلس العقدتجنبا لربا النسيء وهو ربا التأجيل ، فإذا اختلف البدلان جنساً كأن يباع القمح بالأرز والذهب بالفضة لم يلزم تساويهما قدراً ولزم التقابض فى المجلس ، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل ويداً بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطى فيه سواء » ، وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه « فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد » وفى رواية أخرى: « ولا بأس ببيع الذهب بالفضة والفضة أكثرهما يداً بيد، وأما نسيئة فلا ، ولا بأس ببيع البر بالشعير والشعير أكثرهما يدا بيد ، وأما نسيئة فلا » والرأى الراجح أن التحريم فى هذه الأشياء لعلة ، فكلما تحققت العلة تحققت العلة فى شيء آخر يعدى الحكم بالقياس إليه ، واختلف فى العلة فقال الشافعية : إن العلة فى الدراهم والدنانير هى النقدية ، وقال أبو حنيفة : العلة هى الوزن وفى الأشياء الأربعة الأخرى ، قال الشافعى فى القديم : العلة هى الطعم مع الوزن ، وفى الجديد قال: هى الطعم ، وذهب أبو حنيفة إلى أن العلة هى القدر مع اتحاد الجنس حتى إن الربا يجرى فى الجص والنورة ، والمالكية رأوا العلة هى القوت والادخار مع اتحاد الجنس. فتحريم الإسلام للربا تحريم عام . حتى إن المرتهن لا يحل له أن ينتفع بالمرهون لشبهة الربا ، ولو أذن الراهن المرتهن فى ذلك . ونصت المادة : ٨٩١ من مرشد الحيران على ما يأتى : « لايجوز للمرتهن أن ينتفع بالرهن منقولا كان أو عقاراً بدون إذن الراهن ، وله أن يؤجره بإذنه ويدفع الأجرة للراهن أو يحتبسها من أصل الدين برضا الراهن وإلا بطل الرهن . بل لقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا يجوز للمدين أن يستضيف الدائن .

ولقد حرمت جميع الشرائع القديمة الربا ، لأن الفائدة مرهقة للمدين الذى

لا يلجأ للاقتراض إلا لحاجة ملحة كدفع ضرر أو التخلص من ضائقة — لذلك لا تنظر التشريعات الحديثة إلى الفوائد نظرة اطمئنان ، ولكن المشرع المصرى وقف فى منتصف الطريق فلم يحرمها مطلقا ، ولكنه أباحها فى حدود معينة ، فتنص المادة ٢٢٦ من القانون المدنى الجديد على ما يأتى : « إذا كان محل الالتزام مبلغاً من النقود ، وكان معلوم المقدار وقت الطلب وتأخر المدين فى الوفاء به كان ملزما بأن يدفع للدائن على سبيل التعويض عن التأخر فوائد قدرها ٤ ٪ فى المسائل المدنية و ٥ ٪ فى المسائل التجارية ، وتسرى هذه الفوائد من تاريخ المطالبة القضائية بها إن لم يحدد الإتفاق أو العرف التجارى تاريخاً آخر لسريانها . وهذا كله ما لم ينص القانون على غيره » ؛ فإذا كان محل الالتزام مبلغا من النقود معلوم المقدار وقت الطلب وتأخر المدين فى الوفاء به كان ملزما بأن يدفع تعويضاً عن التأخر فى الوفاء قدره ٤ ٪ إن كان الدين تجاريا ، وكان القانون المدنى القديم يجعل السعر ٥ ٪ فى المسائل المدنية و ٦ ٪ فى المسائل التجارية ، ويلاحظ أن المشرع يعتبر فوائد التأخر تعويضا للدائن عن الضرر الذى لحقه من جراء التأخر؛ وهذا الضرر مفروض فرضاً غير قابل لإثبات العكس ، فليس للمدين أن يثبت أن الدائن لم يلحقه ضرر ، إذ تنص المادة ٢٢٨ على ما يأتى « لا يشترط لاستحقاق فوائد التأخير قانونية كانت أو اتفاقية أن يثبت الدائن ضرراً لحقه من هذا التأخير » مع أن القاعدة العامة فى المسئولية أن المسئول عن التعويض يستطيع أن ينفى حصول الضرر حتى لا يسأل عن التعويض . ويلاحظ أن السعر الذى حدده المشرع فى المادة ٢٢٦ خاص بالفوائد القانونية ، إنما قد يتفق المتعاقدان على فوائد غير هذه الفوائد تبيحها المادة ٢٢٧ التى تقول فى فقرتها الأولى « يجوز للمتعاقدين أن يتفقا على سعر آخر للفوائد سواء أكان ذلك فى مقابل تأخير أم فى أية حالة أخرى تشترط فيها الفوائد على ألا يزيد هذا السعر عن ٧ ٪ فإذا اتفقا على فوائد تزيد على هذا السعر وجب تخفيضها إلى ٧ ٪ وتعين رد ما دفع زائداً على هذا القدر . إذ يعتبر الزائد رباً فاحشا وهو غير مشروع ، ويلاحظ أن الشخص إذا اعتاد الإقراض بالربا الفاحش

فإنه يعد مرتكبا للجريمة المنصوص عليها فى الفقرة الثالثة من المادة ٣٣٩ من قانون العقوبات التى تقول « وكل من اعتاد إقراض نقود بأى طريقة كانت بفائدة تزيد عن الحد الأقصى الممكن الإتفاق عليه قانونا يعاقب بالعقوبات المقررة بالفقرة السابقة » ، أما الفقرة السابقة فقد نصت على الحبس لمدة لا تتجاوز سنتين وغرامة لا تتجاوز المائة جنيه أو إحدى هاتين العقوبتين ، وقد أطرد قضاء محكمة النقض منذ زمن بعيد على الاكتفاء فى جريمة الاعتياد على الإقراض بالربا الفاحش بحصول واقعة الإقراض مرتين حتى يتحقق بذلك التكرار المكون للاعتياد ، بشرط ألا يفصل بين الفعل الأخير وبين الفعل السابق عليه مدة طويلة من الزمن . وقد استقر قضاء محكمة النقض على اشتراط عدم مضى ثلاث سنوات بين القرضين الربويين ، لأن مضى ذلك الزمن بين فعلين من جنس واحد لا يصح معه أن يقال إن الشخص قد اعتاد هذا الفعل .

وتنص الفقرة الثانية من المادة ٢٢٧ (مدنى) على ما يأتى : « كل عمولة أو منفعة أيا كان نوعها اشترطها الدائن إذا زادت هى والفائدة المتفق عليها على الحد الأقصى المتقدم ذكره تعتبر فائدة مستترة . وتكون قابلة للتخفيض إذا ما ثبت أن هذه العمولة أو المنفعة لا تقابلها خدمة حقيقية يكون الدائن قد أداها ، ولا منفعة مشروعة » ، وقد قصد المشرع بهذا النص أن يعالج تلك المحاولات التى يلجأ إليها المرابون لابتزاز فائدة تزيد عن الحد القانونى ، فالمشرع لا يسمح بالزيادة إلا إذا كانت مقابل خدمة حقيقية . هذا ويلاحظ أن الدائن إذا ما تسبب بسوء نية وهو يطالب بحقه فى إطالة أمد النزاع حتى يزيد فى مبلغ الفوائد التى يستحقها فللقاضى وفقا لنص المادة ٢٢٩ أن يخفض الفوائد أو لا يقضى بها إطلاقا عن المدة التى طال فيها النزاع بلا مبرر ، ولا يجوز بحسب المادة ٢٣٢ أن يتقاضى الدائن فوائد على متجمد الفوائد ، ولا أن يزيد مبلغ الفوائد عن رأس المال ، وذلك مع عدم الإخلال بالقواعد والعادات التجارية ، ويلاحظ أن المشرع أراد التخفيف

عن الراهن رهنا رسميا فنص فى المادة ١٠٥٨ على أن القيد — وهو لازم لنفاذ الرهن قبل الغير الذين اكتسبوا حقا عينيا على العقار المرهون — لا يضمن أكثر من فوائد السنتين السابقتين على تسجيل تنبيه نزع الملكية توطئة لبيع العقار، وذلك لأننا إذا جعلنا القيد الأصلى يضمنها كلها لتراكمت الفوائد ويضر تراكمها بالمدين من جهة وبسائر الدائنين من جهة أخرى ، ولكن يلاحظ أن الدائن فيما زاد على فوائد السنتين يستطيع أن يجرى قيداً خاصا بها وبذلك يستطيع المطالبة بجميع مبالغ الفوائد فيضر المدين والدائنين الآخرين ويفوت على الشارع الغرض الذى قصد إليه . ولقد حاول البعض تبرير الربا ، ووضعوا نظريات مختلفة ولكنها جميعا واهية ، فالاقتصاديون الأحرار يرون أن سبب دفع الفائدة هو أن رأس المال المقترض يزيد فى الثروة ؛ فبواسطة رأس المال تزيد كفاية العمل ويحصل المقترض على ناتج أكبر مما لو أنتج بدون استعمال رأس المال ، ولما كانت الزيادة فى الناتج ترجع إلى استعمال رأس المال فمن الطبيعى أن يحصل المقرض على فائدة . ومما يؤخذ على هذه النظرية أن قوة إنتاج رأس المال لا تكفى لتبرير الفائدة ، فلا يمكن الاستناد عليها فى قروض الاستهلاك ، وحتى فى حالة القرض للإنتاج فإن قوة الإنتاج غامضة ولا يعرف المقصود منها ، فهل المقصود بها قوة الإنتاج المادية أو قوة الإنتاج من حيث القيمة ، فإذا كان استعمال رأس المال يزيد من كمية المنتجات فقد لا يزيد من قيمتها ، لأن القيمة تتوقف على طلب السلعة وعرضها — هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد يخسر المشروع ومع ذلك يحصل المقرض على الفائدة ، إن القول بأن من يمد المشروع بالنقود يجب أن يحصل على حقه من دخل المشروع لا تحرمه الشريعة الإسلامية ، ولكن بشرط أن يساهم الممول فى أرباح المشروع وخسائره ؛ فيحصل على ربح إذا كان المشروع مربحا ويتحمل فى الخسارة عند ما يخسر المشروع ، أما أن يحصل الممول على فائدة ثابتة مهما كانت حال المشروع من الرواج أو الكساد فهو ما تحرمه هذه الشريعة . ويروى بم بافرك أن المال المستقبل له قيمة أقل من المال الحاضر المتساوى معه فى النوع والأهمية ،

وهذا قانون نفسانى تثبته التجارب اليومية ، فكلما بعدنا عن الشىء فى الزمان ، نقصت قيمته ، كما أن حجم الأشياء يقل فى نظرنا كلما ابتعدت عن أعيننا ، وعلى ذلك إذا أقرضت شخصا مائة جنيه على أن يرد نفس المبلغ بعد سنة فإنه لا تتحقق المساواة بين الطرفين ، فإذا وضعنا فى إحدى كفتى الميزان المائة جنيه الحاضرة وفى الكفة الأخرى المائة جنيه المستقبلة فإن الكفة الثانية تكون أخف من الأولى ؛ ولإعادة التوازن بين الكفتين يجب أن نضيف مبلغا إضافيا إلى كفة المال المستقبل وليكن خمسة جنيهات مثلا ، هذا المبلغ الإضافى هو الفائدة على المال المستقبل ، وهذه النظرية واهية الحجة إذ الإنسان لا يفضل دائما المال الحاضر على المال المستقبل ؛ فإذا كانت الحاجة مستقبلة فإن الإنسان يفضل المال المستقبل على المال الحاضر ، فإردب القمح الذى يحتاج إليه الفلاح للتقاوى يساوى وقت البذر أكثر منه وقت الحصاد ، لأنه وقت الحصاد يكلفه مصاريف التخزين ، والشخص الذى يقرض نقوده قد يفعل ذلك لأنه يرى أن النقود تكون أنفع له بعد فترة من الزمن ، وبما أن راغبى الاقتراض يتساوون فى العدد مع المقترضين فإنه من الصعب أن نقول : إن عدد من يفضلون الأموال الحاضرة أكبر من عدد مفضلى الأموال المستقبلة ، وأخيرا يكفى ردا على هذه النظرية القول : بأن النقود لا تلد النقود .

هذا ويرى الاشتراكيون أن الفائدة ناتجة من استغلال العمال ، وأساس هذه النظرية هو نظرية كارل ماركس فى قيمة العمل؛ فهو يرى أن قيمة السلعة تتوقف على عدد ساعات العمل أى على كمية العمل الذى أنفق فى إنتاجها ، وأن رب العمل يعطى العامل اجرا عن عدد ساعات العمل اللازمة لإنتاج السلع والخدمات اللازمة لحاجاته الضرورية ؛ لأن هذه السلع والخدمات هى نفقة إنتاج العمل ، ولكن رب العمل يستخدم العمال عددا أكبر من الساعات هى ما يسميه ماركس بفائض القيمة الذى يذهب إلى رب العمل بدون مقابل ، ومن فائض القيمة هذا يحصل الرأسماليون على الفائدة ـ أى أن الرأسمالى يحصد ما زرعه العامل ، ولذلك قال الاشتراكيون بإلغاء الربا ، وواضح أن قيمة

الأموال لا تتوقف على عدد الساعات الذى أنفق فى عملها ، فقيمة السلعة فى السوق تتغير من يوم لآخر رغم أن عدد الساعات الذى أنفق فى عملها لا يتغير ، فنحن لا نتفق مع هذه النظرية فى هذه الناحية ونتفق معها فى إلغاء الفائدة ، لأن الفائدة تؤدى إلى زيادة إعسار المعسر الذى لا يقترض إلا لحاجة حتى لقد رميت التشريعات الحديثة بالتناقض حين أباحت للقاضى أن يمنح المدين أجلا للوفاء ، ومع ذلك سمحت بسريان الفائدة إلى نهاية الأجل ، فعملت على زيادة إعساره من حيث تريد التيسير عليه ، كما أن الفائدة تعمل على هدم مبدأ المساعدة والتعاون الذى أمرنا به الشرع الحنيف ، وتعمل على غرس رذيلة عدم المساعدة إلا بمقابل ، وما أمرنا الشرع بالتعاون إلا لأنه يرقى المجتمع أدبيا وماديا وخلقيا واجتماعيا واقتصاديا ، والإسلام يحرم الربا حتى لا يستغل الرأسمالى ضوائق المجتمع ويتحكم فى الشخص المعسر ، ولا شك أن الفائدة تحمل كل معانى الظلم ، لأن الرأسمالى يأخذ الفائدة من عمل غيره ، وهى تؤدى من ناحية أخرى إلى تولد أمراض البطالة والكسل والفراغ ، فيعيش الشخص على ما يستنزفه من أموال غيره دون أن يبذل أى مجهود ، بل إن المرابى لا يتردد فى تجريد مدينه من ماله إذا كان فى ذلك نماء لثروته ، حتى لقد انعدم التعاطف والتراحم فى البلاد التى أقرت نظمها الربا وحلت القسوة فى القلوب ، حتى أن الفقير فيها يموت جوعا . ويقول تولستوى : إن أوربا قد نجحت فى تحرير الناس من الرق ، ولكنها غفلت عن رفع نير الدينار عن أعناق الناس الذين ربما استعبدهم المال يوما ما . وإذا حبست ثروة المجتمع فى أيد قليلة مترفة انتشرت المفاسد من خمر وميسر وزنا ، ولقد حرم الإسلام الربا ، لأنه لا يسمح للشخص أن يسيء استعمال حق من حقوقه ليضر بالغير ، فيجب أن لا تكون للنقود تلك الوظيفة الضارة التى تؤدى إلى انتزاع الثروة من أيدى أهلها . وإذا اقترضت دولة من أخرى بفائدة وحل ميعاد دفع القرض وفوائده أدى ذلك إلى ظهور عنصر سالب فى ميزانها الحسابى ، فيكون ذلك فى غير صالح الدولة ، وينخفض سعر نقودها فى الخارج ، ويؤدى ذلك

إلى ارتفاع الأسعار فى الداخل الذى يؤدى إلى زيادة الواردات ، فتزداد مديونية الدولة ، وإذا ما ازدادت مديونيتها عجزت عن الوفاء بديونها فتضعف الثقة فيها ، ويرتفع الصرف الأجنبى ، ويتوالى ارتفاع الأثمان نتيجة لارتفاع الصرف ، وهذا يؤدى إلى إنشاء وسائل جديدة للوفاء ، فتزداد كمية العملة الورقية ، فيشتد هبوطها ويسىء ذلك إلى اقتصاد الدولة المدينة ويخضعها اقتصاديا وتجاريا للدولة الدائنة .

من أجل ذلك حرم الإسلام الربا ، ويؤيده فى ذلك كثير من الاقتصاديين المعاصرين ، ونادى برودون بالائتمان المجانى .

وقد تناول القرآن حديث الربا فى أربعة مواضع أيضاً ، وكان أول موضع منها وحياً مكياً والثلاثة الباقية مدنية . وكان كل واحد من هذه التشريعات الأربعة مشابهاً تمام المشابهة لمقابله فى حديث الخمر . ففى الآية المكية يقول جلت حكمته : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

هذه كما ترون موعظة سلبية : إن الربا لا ثواب له عند الله . نعم ، ولكنه لم يقل إن الله ادخر لآكله عقابا . وهذا بالضبط نظير صنيعه فى آية الخمر المكية حيث أومأ برفق إلى أن ما يتخذ سكراً ليس من الرزق الحسن ، دون أن يقول إنه رجس واجب الاجتناب . ومع ذلك فإن هذا التفريق فى الأسلوب كان كافيا وحده فى إيقاظ النفوس الحية ، وتنبيهها إلى الجهة التى سيقع عليها اختيار المشرع الحكيم . أما الموضع الثانى فكان درساً وعبرة قصها علينا القرآن من سيرة اليهود الذين حرم عليهم الربا فأكلوه وعاقبهم الله بمعصيتهم . وواضح أن هذه العبرة لا تقع موقعها إلا إذا كان من ورائها ضرب من تحريم الربا على المسلمين ، ولكنه حتى الآن تحريم بالتلويح والتعريض لا بالنص الصريح . ومهما يكن من أمر فإن هذا الأسلوب كان من شأنه أن يدع المسلمين فى موقف ترقب وانتظار لنهى يوجه إليهم قصدا فى هذا الشأن ، نظير ما وقع بعد المرحلة الثانية فى الخمر ، حيث استشرفت النفوس

إذ ذاك إلى ورود نهى صريح فيه ؛ وقد جاء هذا النهى بالفعل فى المرحلة الثالثة ولكنه لم يكن إلا نهياً جزئيا : فى أوقات الصلوات .

وكذلك لم يجىء النهى الصريح عن الربا إلا فى المرتبة الثالثة ، وكذلك لم يكن إلا نهياً جزئيا ، عن الربا الفاحش : الربا الذى يتزايد حتى يصير « أضعافاً مضاعفة » .

وأخيراً وردت الحلقة الرابعة التى ختم بها التشريع فى الربا ، وفيها النهى الحاسم عن كل ما يزيد عن رأس مال الدَّين حيث يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

ولا دليل فى الآية على أن كلمة الأضعاف شرط لابد منه فى التحريم ، إذ من الجائز أن يكون ذلك عناية بذم نوع من الربا الفاحش بلغ مبلغاً فاضحاً فى الشذوذ عن المعاملات الإنسانية من غير قصد إلى تسويغ الأحوال المسكوت عنها التى تقل عنه فى هذا الشذوذ ، ومن جهة أخرى فإن قواعد العربية تجعل كلمة « أضعافاً » فى الآية وصفا للربا لا لرأس المال ، كما قد يفهم من تفسير هؤلاء الباحثين . ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن لا يحرم من الربا إلا ما بلغ ٦٠٠ ٪ من رأس المال بينما لو طبقنا القاعدة العربية على وجهها لتغير المعنى تغيراً تاما ، بحيث لو افترضنا ربحاً قدره واحد فى الألف أو المليون لصار بذلك عملا محظوراً غير مشروع بمقتضى النص الذى يتمسكون به ؛ أما القول بأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون إلا الربا الفاحش الذى يساوى رأس المال أو يزيد عليه، فإنه لا يصح إلا إذا أغمضنا أعيننا عما لا يحصى من الشواهد التى نقلها أقدم المفسرين وأجدرهم بالثقة . ولقد كان الشعب العبرانى ـ الذى يعيش والشعب العربى فى صلة دائمة منذ القدم ـ يفهم من كلمة

الربا كل زيادة على رأس المال ، قلت أو كثرت . وهذا هو المعنى الحقيقى والاشتقاقى للكلمة ، أما تخصيصها بالربا الفاحش فهو اصطلاح أوربى حادث ، يعرف ذلك كل مطلع على تاريخ التشريع وبعد ذلك فإننا لا نستطيع أن نطيل الوقوف عند هذا النص الانتقالى ، لأن الذى يعنى رجل القانون فى تطبيق الشرائع إنما هو دورها الأخير . وقد بينا أن الدور الأخير فى موضوعنا إنما تمثله الآيات التى تلوناها آنفا من سورة البقرة . كما رأينا أن الشريعة القرآنية تتجه كلها منذ البداية إلى استنكار كل تعويض يطلب من المقترض . أفلا يكون من التناقض أن هذه الشريعة التى تضع الإحسان إلى الفقير فى أبرز موضع من قانونها والتى تحث على إنظار المعسر ، أو على ترك الدين له ، تعود فتأخذ منه بالشمال ما منحته باليمين ، إذ تأذن للغنى بأن يطالبه ببعض الزيادة على الدين ؟

واللمحة البارزة فى التشريع القرآنى ، وكذلك فى كل تشريع اجتماعى جدير بهذا الإسم ، هى الحيلولة دون المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح ، والسعى لتحقيق نوع من التجانس والمساواة بين أفراد الأمة . وإنها لكلمات قصيرة ولكنها ذات مدى بعيد ، تلك التى يرسم فيها القرآن دستور هذه السياسة ، حيث يقول : « . . . كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

ويقول أنصار مشروعية الربا : إن الربح يحصل عليه المقترض من عمله فى المال الذى اقترضه إنما ينشأ وليداً من التزاوج بين العمل ورأس المال ؛ فكيف تخولون العمل حقاً فى الربح ، ولا تخولون للمال حقه فيه . مع أنه زوجه وشريكه فى هذا النتاج ؟ . أما أن الربح ليس ثمرة عنصر واحد بل ثمرة عنصرين متزاوجين فذلك حق لا شبهة فيه ، وليس لنا أن نتلكأ فى قبوله . غير أن المعارضين قد فاتهم شىء جوهرى ، وهو أنه بمجرد عقد القرض أصبح العمل ورأس المال فى يد شخص واحد ، ولم يبق للمقرض علاقة ما بذلك المال ، بل صار المقترض هو الذى يتولى تدبيره تحت مسئوليته التامة ، لربحه أو لخسره . حتى إن المال إذا هلك أو تلف فإنما يهلك أو يتلف على ملكه .

فإذا أصررنا على إشراك المقرض فى الربح الناشىء وجب علينا فى الوقت نفسه أن نشركه فى الخسارة النازلة ؛ إذ كل حق يقابله واجب ، أو كما تقول الحكمة النبوية : « الخراج بالضمان » . أما أن نجعل الميزان يتحرك من جانب واحد فذلك معاندة للطبيعة . ومتى قبلنا اشتراك رب المال فى الربح والخسر معا انتقلت المسألة من موضوع القرض إلى صورة معاملة أخرى ، وهى الشركة التضامنية الحقيقية بين رأس المال والعمل . وهذه الشركة لم يغفلها القانون الإسلامى . بل أساغها ونظمها تحت عنوان « المضاربة » أو « القراض » . غير أنه لكى يقبل رب المال الخضوع لهذا النوع من التعامل يجب أن يكون لديه من الشجاعة الأدبية مايواجه به المستقبل فى كل احتمالاته . وهذه فضيلة لايملكها المرابون ؛ لأنهم يريدون ربحا بغير مخاطرة ؛ وذلك هو مايسمى: تحريف قواعد الحياة ومحاولة تبديل نظمها . هكذا إذا سرنا وفقا للأصول والمبادىء الإقتصادية فى أدق حدودها كانت لنا الخيرة بين نظامين اثنين ؛ فإما نظام يتضامن فيه رب المال والعامل فى الربح والخسر ؛ وإما نظام لا يشترك فيه معه فى ربح ولا خسر. ولا ثالث لهما إلا أن يكون تلفيقا من الجور والمحاباة .

وإلى جانب هذه النصوص القرآنية . نجد فى بيان السنة النبوية ماهو أكثر تفصيلا وأشد صرامة ، فإن الرسول صلوات الله عليه لم يكتف بتحريم الربا على آكله كما ورد فى القرآن الكريم ، ولم يكتف بجعل المعطى والآخذ والكاتب والشاهد سواء فى اللعن والإجرام ، بل إنه أحاط هذه الجريمة بنطاق من الذرائع والملابسات جعلها حمى محرما تحريم الوسائل الممهدة إلى الحرمة الأصلية . وقد جعلت السنة التحريم فيها على مراتب متفاوتة فى تدرج حكيم يتنقل من الحظر الكلى إلى الإباحة التامة رويداً رويداً مارا بكل المراتب المتوسطة بينهما. وهذه القاعدة الجديدة ليس موضوعها القروض ، ولا الديون المتقررة ، بل عقود البيع أو بالأحرى المقايضات . فبعض هذه المقايضات حظر الرسول الحكيم أن تكون مؤجلة ، ولو بدون ربح ؛ وأن يؤخذ فيها

ربح[١] ولو كانت يداً بيد . وبعضها منع التأجيل فيها دون التفاضل . وبعضها لم يمنع فيها واحداً منهما .

يقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة،[٢] والقمح بالقمح ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، يداً بيد ، سواء بسواء . فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » . وقد وقف أهل الظاهر بهذا الحظر عند الأنواع الواردة فى الحديث . وذهبت سائر المدارس الفقهية إلى اعتبار هذه الأنواع أمثلة من قاعدة عامة تنطبق على سائر المواد التى تقوم عليها الحياة والتى مردها — فى الرأى الراجح عند الفقهاء — إلى نوعين : الأثمان والمطعومات . ومهما يكن من أمر فى شأن هذا الاختلاف ، فإن هذه القاعدة تقضى بتقسيم الأشياء التى يراد تبادلها إلى ثلاثة أضرب : الضرب الأول : أن يكون البدلان من نوع واحد ، كالذهب بالذهب ؛ فهاهنا يخضع التبادل لشرطين اثنين : التساوى فى الكم ، والفورية فى التبادل ، أعنى عدم تأجيل شىء من البدلين . الضرب الثانى : أن يكونا من نوعين مختلفين من جنس واحد ، كالذهب بالفضة وكالقمح بالشعير ؛ فهنا يشترط شرط واحد ، وهو الفورية ، فلا يضر اختلاف الكم . الضرب الثالث : أن يكونا من جنسين مختلفين كالفضة والطعام ، فلا يشترط فى هذا شىء من القيدين المذكورين ، بل يكون التقايض فيهما حراً : هكذا كلما كان البدلان من طبيعتين مختلفتين تمام الاختلاف ، بحيث لا توجد شبهة القصد إلى القرض بفائدة ، فإن الشريعة لا تضع أمام حرية التبادل حداً من الحدود ، اللهم إلا المبدأ العام فى المعاملة ، وهو تحرى الصدق والأمانة . فإذا ما أخذت طبيعة البدلين تتقارب ، بدون أن تتحد ، نرى عند المشرع شيئاً من الحذر

---

(١) هذا المحظور (الذى يسميه الفقهاء ربا الفضل ، ويسميه ابن القيم الربا الخفى) كان موضع اختلاف بين الصحابة وكان جمهورهم على القول بحرمته . أما بعض الباحثين المعاصرين الذين ظنوا أن هذا الاختلاف كان فى شأن الربا القليل فقد انتقل نظرهم والتبس عليهم الأمر التباساً يؤسف له

(٢) وفى رواية أخرى : « الدرهم بالدرهم والدينار بالدينار الخ » ويلوح أن هذه الرواية هى التى اعتمد عليها معاوية فى فتواه .

المعقول ، المبنى على احتمال أن يكون المتعاملان يقصدان إلى معاملة ربوية ؛ ولذلك نجده مع ترخيصه لهما بتفاوت البدلين فى الكم يحظر عليهما تأجيل أحد العوضين ، سداً للطريق أمام فكرة القرض المحرم تحت ستار البيع . أما إذا اتحدت طبيعة البدلين — مع التفاوت فى الأوصاف والقيم طبعا ، وإلا لما كان هناك معنى للتبادل — فإنه من السهل أن نفهم الحكمة التى من أجلها منع تأجيل البدل ، وذلك أن من شأن هذا التأجيل أن يحمل فى طيه فكرة محظورة ، وأن يكون القصد هو القرض باسم البيع . ولكن الذى يصعب فهمه هنا هو إلزام المتبادلين فى حال الدفع على الفور بأن تتساوى الكميتان المتبادلتان بينهما . فهل معنى ذلك أن الشريعة تتجاهل إلى هذا الحد فروق الكيفيات التى فى كل من العوضين ؟ إن الجواب على هذا السؤال نجد مفتاحه فى الحديث الذى رواه مسلم فى جامعه الصحيح . يروى لنا هذا الإمام أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء من التمر . فقال له النبى : « ما هذا من تمرنا » فقال الرجل : يارسول الله بعنا تمرنا : صاعين بصاع . فقال صلى الله عليه وسلم : « ذلك الربا . ردوه ، ثم بيعوا تمرنا ، ثم اشتروا لنا من هذا » . ومن هنا نلمح الهدف الذى ترمى إليه القاعدة ، ونطمئن إلى أنه ليس من شأنها أن تفرض على المتبادلين — اعتباطا أو تعنتا — تساوى الكمية بين صنفين مختلفين من نوع واحد ، بل أنها على العكس من ذلك فتحت لهما باب الاختيار بين أمرين يمتنع معهما كل قهر وإلزام ؛ ذلك أنها خيرتهما بين أن يتغاضيا عن الفروق الطفيفة التى بين الصنفين ، أو أن يلجآ فى تقدير تلك الفروق إلى حكم القيمة النقدية . ونحن إذا تأملنا فى هذا الوضع نجده ينطوى على حكمة عميقة ، ويقوم على مبدأ سليم من مبادىء التشريعين المدنى والاقتصادى . ذلك أنه حيث يكون هناك كميتان متساويتان من نوع واحد ولكن إحداهما تمتاز بجودة أوصافها ، لا يكون هناك مجال للتردد : أىّ المتبايعين أوفر حظا ؟ فالذى يقبل الصنف الأقل جودة يقبله بملء حريته عن سماحة نفس وكرم طبع ، وهو عالم بما يفعل . وليس الأمر كذلك فى الحال التى

تكون فيها الجودة من ناحية يقابلها وفرة فى الكم من الناحية الأخرى ؛ إذاً نرى هاهنا تقابلا بين أمرين ليس بين طبيعتهما مقياس مشترك ثابت ، صالح لتقويم كل منهما بالنسبة إلى هذا الحد المشترك ، ثم بالنسبة إلى الطرف المقابل. والواقع أنه فى هذا النوع من التبادل يلجأ كل من المتعاملين فى نفسه إلى فكرة غامضة ، وهى إرادة التضحية بما هو أدنى فى سبيل ما هو خير منه . وهكذا يصبح قبولها الظاهرى للصفقة قبولا زائفا ، وقد ينكشف عن خيبة أمل . ولا مخرج من هذا اللبس إلا بالرجوع إلى القيمة الثمنية لكل بضاعة على حدة ، ثم إلى المقارنة بينهما على ضوء هذا المقياس الثابت . وهذا ـ الرجوع إلى المقياس الثابت ـ هو المعنى الذى قصد التشريع الإسلامى إبرازه حتى يكون كل من طرفى العقد على بينة فى معاملته المالية ، وحتى يجتنبا التدليس ، ويتطهرا من السحت المأخوذ بالحيلة والمكر ؛ فإذا صح ما ذهبنا إليه فى تفهم مقاصد الشريعة من هذا الحكم لم يبق هناك حرج قط ـ كما أوضحه ابن القيم [1] فى أعلام الموقعين ج ٢ ص ٢٧٣ ـ فى أن تباع المصوغات الذهبية بأكثر من وزنها ذهباً ، أو المصوغات الفضية بأكثر من وزنها فضة . ذلك لأن قيمة الصنعة قد قدرت هنا بمعيارها الواضح المحدد ، الذى لا يدع مجالا لتزييف تراضى المتبايعين . على أن هذه الرخصة فى المبادلة بين الصياغة والنقد لا ينبغى أن تسرى على التبادل بين نقدين من نوع واحد مع اختلافهما فى الأوصاف ، بل الإعتماد فى النقدين على تساوى العوضين وزناً هو الحل العادل ، أو هو أعدل الحلول ، إذ لو اعتبرت هذه الصفات ونحوها فى النقود مبررة لزيادة قيمتها فى المبادلة ، إذاً لأصبحت النقود نفسها بضاعة ، وصارت معرضاً للمضاربة وتقلب الأسواق ، وعادت محتاجة إلى معيار آخر لتقدير قيمتها ،

---

(١) سلفه فى هذه الفتوى معاوية بن أبى سفيان . وخالفه عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبو الدرداء . راجع الموطأ فى كتاب البيوع ، باب بيع الذهب والفضة وبرى ابن القيم أن هذا الاختلاف إنما هو فى الصياغة المحرمة كصياغة الآنية . وعلى هذا تكون الصياغة المباحة محل اتفاق على جواز الفضل فيها نقداً .

بدل أن تكون هى المعيار لغيرها . فالتشريعات النبوية تهدف إلى غرضين مزدوجين : فهى من إحدى الجهتين تريد أن تحمى النقود والأطعمة ، وهما أهم حاجات الجماعة وأعظم مقومات حياتها ، وذلك بمنع وسائل احتكارهما أو إخفائهما من الأسواق ، أو تعريضهما للتقلبات الثمنية المفاجئة ، وهى من الجهة الأخرى تحرص على حماية الفقراء والإغرار من طرق الغبن والاستغلال التى يتبعها بعض التجار الجشعين . وواضح أن تسمية الربح المجتلب من طريق هذا التبادل الذى تنقصه الصراحة والأمانة باسم «الربا» إنما هى تسمية مجازية قصد منها إلى إبراز ما فيه من مخالفة لقانون الأخلاق ، ومجافاة لقواعد الرحمة الإنسانية . وذلك بتشبيهه بالربا الحقيقى الذى هو مثلٌ فى السحت وأكل المال بالباطل .

يقول الله تعالى : « الذين يأكلون الربا » أى يأخذونه ، وهو لغة الزيادة وشرعاً عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير فى البدلين أو أحدهما ، وهو ثلاثة أنواع : ربا الفضل ـ وهو البيع مع زيادة أحد العوضين على الآخر ، وربا اليد ـ وهو البيع مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما ، وربا النسيء وهو البيع إلى أجل ، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال بقوله تعالى « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما » فنبه بالأكل على ما سواه من وجوه الإتلافات ، ولأن نفس الربا الذى هو الزيادة لا يؤكل وإنما يتصرف فى المأكول ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه والمحلل له » فعلمنا أن الحرمة غير مختصة بالآكل . ولما كان بين الصدقة والربا مناسبة من جهة التضاد ـ لأن الصدقة عبارة عن تنقيص المال بأمر الله بذلك ، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهى الله عنه فكان كالمتضادين ذكر عقب الصدقة « لا يقومون » أى يبعثون من قبورهم « إلا » أى قياما « كما يقوم الذى يتخبطه » أى يصرعه « الشيطان من المس » أى الجنون ، يتعلق بيتخبطه من جهة الجنون والمعنى أن آكل الربا يبعث يوم القيامة وهو كالمصروع ، تلك سيماه يعرف بها عند أهل الموقف . هذا

وقيام آكلى الربا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، قال ابن عطية فى تفسيره : المراد تشبيه المرابى فى الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة : قد جُنّ . أقول : وهذا هو المتبادر ، ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه وقالوا إن المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث وإن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين . ورووا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود بل روى الطبرانى من حديث عوف بن مالك مرفوعا « إياك والذنوب التى لا تغفر ـ الغلول ، فمن غلّ شيئاً أتى به يوم القيامة والربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونا يتخبط » أقول والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قال ابن عطية ، لأنه إذا ذكر القيام انصرف إلى النهوض المعهود فى الأعمال ، ولا قرينة تدل على أن المراد به البعث ، وهذه الروايات لا يسلم منها شىء من قول فى سنده وهى لم تنزل مع القرآن ولا جاء المرفوع منها مفسراً للآية . ولولاها لما قال أحد بغير المتبادر الذى قاله ابن عطية إلا من لم يظهر له صحته فى الواقع ، وكان الوضاعون الذين يختلقون الروايات يتحرون فى بعضها ما أشكل عليهم ظاهره من القرآن ، فيضعون له رواية يفسرونه بها ، وقلما يصح فى التفسير شىء كما قال الإمام أحمد .

أما ما قاله ابن عطية فهو ظاهر فى نفسه ، فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضريت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصودا لذاته ، وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعى ، تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذى عليه أكثر الناس ، ويظهر ذلك فى حركاتهم وتقلبهم فى أعمالهم ، كما تراه فى حركات المولعين بأعمال البورصة والمغرمين بالقمار ، يزيد فيهم النشاط والانهماك فى أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس ، فإن التخبط من الخبط وهو ضرب غير منتظم وكخبط العشواء . وبهذا يمكن الجمع بين ما قاله ابن عطية وماقاله الجمهور ، ذلك بأنه إذا كان ما شنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم ، كان لابد أن يبعثوا عليه

فإن المرء يبعث على ما مات عليه، لأنه يموت على ما عاش عليه ، وهناك تظهر صفات النفس الخسيسة فى أقبح مظاهرها ، كما تتجلى صفات النفس الزكية فى أبهى مجاليها .

ثم إن التشبيه مبنى على أن المصروع الذى يعبر عنه بالممسوس يتخبطه الشيطان ، أى أنه يصرع بمس الشيطان له وهو ما كان معروفا عند العرب وجاريا فى كلامهم مجرى المثل ، قال البيضاوى فى التشبيه : « وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء » اهـ وتبعه أبو السعود كعادته فذكر عبارته بنصها . فالآية على هذا لا تثبت أن الصرع المعروف يحصل بفعل الشيطان حقيقة ولا تنفى ذلك . وفى المسألة خلاف بين العلماء أنكر المعتزلة وبعض أهل السنة أن يكون للشيطان فى الإنسان غير ما يعبر عنه بالوسوسة ، وقال بعضهم: إن سبب الصرع مس الشيطان كما هو ظاهر التشبيه وإن لم يكن نصا فيه ـ وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التى تعالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديثة ، وقد يعالج بعضها بالأوهام ، وهذا ليس برهانا قطعيا على أن هذه المخلوقات الخفية التى يعبر عنها بالجن يستحيل أن يكون لها نوع اتصال بالناس المستعدين للصرع ، فتكون من أسبابه فى بعض الأحوال . والمتكلمون يقولون إن الجن أجسام حية خفية لا ترى .

وهذا كله مما نسب فيه التخبط إلى الشيطان وارد على ما تزعم العرب أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط الضرب على غير استواء يقال : ناقة خبوط التى تطؤ الناس وتضرب الأرض بقوائمها ، ويقال للرجل الذى يتصرف فى أمره ولا يهتدى فيه أنه يخبط خبط عشواء ، ويخبطه الشيطان إذا مسه بخبل أو جنون ، لأنه كالضرب على غير استواء «ذلك» أى الذى نزل بهم « بأنهم » أى بسبب أنهم « قالوا إنما البيع مثل الربا » فى الجواز ، فإن قيل ما الحكمة فى قلب القصة ، ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق لأن حل البيع متفق عليه وهم أرادوا قياس الربا عليه ، فكان نظم الكلام أن يقال : إنما

الربا مثل البيع ـ أجيب بأن هذا من عكس التشبيه مبالغة ، إذ به صار المشبه مشبها به وبالعكس ، أو بأنهم لم يكن مقصودهم أن يتمسكوا بنظم القياس ، بل كان غرضهم أن البيع والربا متماثلان فى جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين « وأحل الله البيع وحرم الربا » إنكار لتسويتهم وإبطال القياس لمعارضة النص ، هذا وأظهر قولى الشافعى أن هذه الآية عامة فى كل بيع إلا ماخص بالسنة ، والثانى أنها مجملة والسنة مبينة لها ، وتظهر فائدة الخلاف فى الاستدلال بها فى مسائل الخلاف : فعلى الأول يستدل بها ، وعلى الثانى لا يستدل « فمن جاءه » أى بلغه « موعظة » أى وعظ « من ربه » وزجر بالنهى عن الربا « فانتهى » أى فاتبع النهى وامتنع عن أكله « فله ماسلف » أى مامضى قبل النهى ، فلا يسترد منه ماأخذه من الربا . وقيل : مامضى من ذنبه قبل النهى مغفور له « وأمره إلى الله » بعد النهى ، إن شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء وإن شاء حل له حتى يعود ، وقيل : أمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس له من أمر نفسه شىء « ومن عاد » إلى تحليل الربا مشبها له بالبيع فى الحل « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » لأنهم كفروا بذلك .

يقول صاحب المنار : أول الخلود المفسرون لتتفق الآية مع المقرر فى العقائد والفقه من كون المعاصى لا توجب الخلود فى النار ، فقال أكثرهم إن المراد : ومن عاد إلى تحليل الربا واستباحته اعتقادا : ورده بعضهم بأن الكلام فى أكل الربا وماذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم فيه قبل التحريم ، فهو ليس بمعنى استباحة المحرم ؛ فإذا كان الوعيد قاصرا على الاعتقاد بحله لايكون هناك وعيد على أكله بالفعل . والحق أن القرآن فوق ماكتب المتكلمون والفقهاء يجب إرجاع كل قول فى الدين إليه ، ولا يجوز تأويل شىء منه ليوافق كلام الناس . وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود فى آية قتل العمد ، وليس هناك شبهة فى اللفظ على إرادة الاستحلال . ومن العجيب أن يجعل الرازى الآية هنا حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة فى النار

اقتصارا لأصحابه إلا شاعرة، وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم للخلود بطول المكث . أما نحن فنقول : ما كل مايسمى إيمانا يعصم صاحبه من الخلود فى النار ، الإيمان إيمانان : إيمان لايعد والتسليم الاجمالى بالدين الذى نشأ فيه المرء أو نسب إليه ، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه . وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان ، متمكنة فى العقل بالبرهان ، مؤثرة فى النفس بمقتضى الإذعان ، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح فى الأعمال ، بحيث يكون صاحبها خاضعا لسلطانها فى كل حال ، إلا مالا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان ، وليس الربا من المعاصى التى تنسى أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش كالحدة وثورة الشهوة ، أو يقع صاحبها منها فى غمرة النسيان كالغيبة والنظرة ، فهذا هو الإيمان الذى يعصم صاحبه بإذن الله ، من الخلود فى سخط الله ، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمداً إيثارا لحب المال ، واللذة على دين الله وما فيه من الحكم والمصالح . وإما الإيمان الأول فهو صورى فقط فلا قيمة له عند الله تعالى ، لأنه تعالى لاينظر إلى الصور والأقوال ، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال ، كما ورد فى الحديث . والشواهد على هذا الذى قررناه فى كتاب الله تعالى كثيرة جدا ، وهو مذهب السلف الصالح وإن جهله كثير ممن يدعون اتباع السنة ، حتى جرءوا الناس على هدم الدين بناء على أن مدار السعادة على الاعتراف بالدين وإن لم يعمل به ، حتى صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات مع الاعتراف بأنها من كبائر ماحرم الله ، كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال : إننى آكل الربا ولكننى مسلم أعترف بأنه حرام . وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد ، وبأنه يرضى أن يكون محاربا لله ولرسوله وظالما لنفسه وللناس كما سيأتى فى آية أخرى ؛ فهل يعترف بالملزوم أم ينكر الوعيد المنصوص ، فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ؟ نعوذ بالله من الخذلان .

وورد أنه صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله « يمحق الله الربا » أى يذهب بركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ، وعن ابن مسعود : الربا وإن

كثر فإلى قل «ويربى الصدقات» أى يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت، روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربى أحدكم ولده، وروى الإمام أحمد ما نقص مال من زكاة صدقة «والله لايحب كل كفار» أى مصر على تحليل المحرمات كمن يحل الربا «أثيم» منهمك فى ارتكابه «إن الذين آمنوا» بالله وبرسوله وبما جاء لهم عنه «وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة» وإنما عطفهما على مايعمهما لشرفهما «لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم» من آت «ولاهم يحزنون» على فائت، وتقدم مثل هذه الآية، ولكن جرت عادة الله سبحانه وتعالى فى القرآن حين يذكر وعيد أن يذكر بعده وعد، فلما بلغ هاهنا فى وعيد الربا أتبعه بهذا الوعد، فإن قيل: إن الإنسان إذا بلغ عارفا بالله وقبل وجوب الصلاة والزكاة عليه ثم مات فهو من أهل الثواب بالاتفاق، فدل على أن استحقاق الثواب لايتوقف على حصول العمل، فالجواب أنه تعالى إنما ذكر هذه الخصال لالأجل أن استحقاق الثواب مشروط بهذا، قيل: لأجل أن لكل منهما أثرا فى جلب الثواب كما قال تعالى فى ضد هذا «والذين لايدعون مع الله إلها آخر»، ثم قال تعالى «ومن يفعل ذلك يلق أثاما» ومعلوم أن من ادعى مع الله إلها آخر لا يحتاج فى استحقاقه العذاب إلى عمل آخر، وإنما جمع الله تعالى (الربا وقتل النفس مع دعاء غير الله إلها) لبيان أن كل واحد من هذه الخصال يوجب العقوبة .

«ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا» أى اتركوا بقايا ماشرطتم على الناس من الربا الذى أخذتم بعضه قبل التحريم «إن كنتم مؤمنين» أى بقلوبكم، أو أن (إن) بمعنى إذ، فإن دليل الإيمان امتثال ما أمرتم به . روى أنها نزلت لما طالب بعض الصحابة بعد النهى بربا كان له قبل . وروى أنها نزلت فى ثقيف وكان لهم على قوم من قريش مال وطالبوهم عند المحل بالمال والربا «فإن لم تفعلوا» أى تذروا مابقى من الربا «فأذنوا» أى اعلموا من أذن بالشىء إذا علم به أى فاعلموا أنتم وأيقنوا «بحرب من الله ورسوله» فإن قيل هذا

حكمهم إن تابوا فما حكمهم إن لم يتوبوا ؟ فالجواب أن مقتضى ذلك أنهم يقاتلون إن لم يرجعوا ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : يقال لآكل الربا يوم القيامة : خذ سلاحك للحرب ، قال أهل المعانى : حرب الله تعالى النار وحرب رسوله صلى الله عليه وسلم السيف . « وإن تبتم » أى تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه، «فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون» بطلب الزيادة، «ولا تظلمون» بالنقصان عن رأس المال ، ولم يقل الله تعالى: « بحرب الله ورسوله » لأن هذا أبلغ ، لأن المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله . ولما نزلت هذه الآية قال المرابون : بل نتوب إلى الله فإنه لاثبات لنا من الله ورسوله فرضوا برأس المال، فشكا من عليه الدين العسرة ، وقال لمن لهم الدين : أخرونا إلى أن تدرك الغلة فأبوا أن يؤخروا ، فأنزل الله تعالى: « وإن كان ذو عسرة فنظرة » له أى عليكم تأخيره « إلى ميسرة » أى وقت يسرة ، وكان هنا فيها وجهان: أظهرهما أنها تامة بمعنى حدث ووجد أى وإن حدث ذو عسرة، والثانى أنها ناقصة وخبرها محذوف قال أبو البقاء: تقديره : وإن كان ذو عسرة لكم عليه حق أو نحو ذلك ، وقدره بعضهم : وإن كان ذو عسرة عديما ، « وأن تصدقوا » أى بالإبراء ، « خير لكم » أى أكثر ثوابا من الانتظار ، وهذا مما فضل المندوب فيه الواجب ، فإن الإبراء مندوب إليه والانتظار واجب ، فيحرم حبس المعسر، وهل القول قوله فى إعساره أولا بد من بينة تشهد بذلك؟ إن كان الدين عن عوض كالبيع والقرض فلابد من بينة ، وإن كان عن غير عوض كالضمان والإتلاف والصداق فالقول قول المعسر بيمينه ، وعلى الغريم البينة إلا أن يعرف له مال فلابد من بينة ، « إن كنتم تعلمون » فضل التصدق على الانتظار فافعلوا ، وقيل : المراد بالتصدق الانتظار نفسه ، ورد هذا بأن الإنظار قد علم مما قبل فلابد من حصول على فائدة جديدة ، قال عليه الصلاة والسلام : لايحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة ، وروى : من أنظر معسرا أو وضع عنه أنجاه الله من كرب يوم القيامة ، وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة تلقت

روح رجل كان قبلكم فقالوا له : هل عملت خيرا قط؟ قل : لا. قالوا : تذكر، قال: إلا أنى رجل كنت أداين الناس، فكنت آمر فتيانى أن ينظروا الموسر وأن يتجاوزوا عن المعسر ، قال الله تعالى : تجاوزوا عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم : من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله .. « واتقوا يوما ترجعون » أى تصيرون « فيه إلى الله » هو يوم القيامة أى تأهبوا لمصيركم إليه « ثم توفى » فيه « كل نفس » جزاء « ما كسبت » أى عملت من خير أو شر « وهم لا يظلمون » بنقص حسنة أو زيادة سيئة ، قال ابن عباس : هذه آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جبريل رضوان الله عليه : ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة ، وعاش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا وعشرين يوما ، وقال جريج : تسع ليال ، وقال سعيد بن جبير : سبع ليال ، ومات يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ، وقيل: ثلاث ساعات ، وقال الشعبى عن ابن عباس : آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا ، ولما منع الله من الربا أذن فى السلم والقرض بما يعمهما كما فى الآيات التالية . .

هذه هى الآيات القرآنية من سورة البقرة ، التى تناولت الربا وأحكامه بالتفصيل ، فتناولت بذلك جزء كبيرا من حياتنا الإقتصادية ، وحذرتنا من هذه الجريمة الاجتماعية ، جريمة الربا ، التى طالما خربت بيوتا ، وشتتت أسرا ، وأفقرت أغنياء ، وسلطت على الناس شراذم المرابين من اليهود وأمثالهم ، فساموهم الخسف وسوء الوبال، وخاصة فى الاقتراض . ولقائل أن يقول : إن الربا أصل من أصول حياتنا اليوم ، لا يمكن التخلى عنه ، فكيف نوفق بين النهى عنه وكونه أصلا من أصول حياتنا الحاضرة ؟ والجواب على ذلك فى رأى الدكتور المرحوم محمد عبد الله دراز ، وقد نشر هذا الرأى فى مجلة الأزهر عام ١٣٧٣ هـ ، أن الضرورات تبيح المحظورات ، وفى رأيى أنه لا بد من إقامة أسس حياتنا على منهج اقتصادى إسلامى سليم ، من ألفه إلى يائه ، وأن المال عليه وظيفة اجتماعية يجب أن يؤديها لصالح المجتمع دون ما تأخير

أو تسويف . ورأى الفقهاء أن جميع أنواع الربا فى جميع المعاملات حرام ، وإن كانت هذه الآيات كما فهمنا منها هنا تتناول الربا فى عملية القرض لا غير ، ويؤيد هذا الفهم الآيات التالية فى الاستدانة وكتابة الدين ، فهى ترشح أن الربا المقصود به هنا ما جاء فى عمليات الاقتراض ، وإذا ساغ هذا الفهم كان تحريم الربا فى المعاملات المالية الأخرى عدا القرض بالسنة وبالقياس على تحريمه فى عمليات القرض ، أو بدلالة نصوص أخرى من القرآن والسنة ، ولقائل أن يقول : إن الزيادة المشروطة فى عمليات التداول التجارى اليوم إنما هى جزء من ناتج الاستثمار ، ومنفعة مصاحبة له ، وصاحب المال أولى بها ، لأنها ليست ربا بل ربحا ، وجواب ذلك أن هذا وإن صح وجهها من وجوه الدفاع عن نظام المصارف المالية اليوم ، لا يتفق مع إجماع الأمة على تحريم الربا فى الإسلام ، فى كل الأنواع ، وبكل وسائل التحريم . .

٢٨٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً

حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٢٨٣ — وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ.

آيتان كريمتان تنظمان حياتنا على أسس سليمة ، من حيث الجانب الاقتصادى الذى هو أساس الحياة الحاضرة لمجتمعات اليوم . . والصلة بينها وبين الآيات السابقة أن الآيات السابقة تناولت شئون الإنفاق للمال فى سبيل الله ، كما تناولت تحريم الربا فى الإسلام ، وهو ينافى الإنفاق فى سبيل الله ، ومن أجل ذلك طالب القرآن الكريم الدائنين بالانتظار إلى ميسرة إن كان المدين ذا عسرة ، مما يقرب فهم موضوع الربا هنا على أنه ما جاء فى عمليات الاقتراض ؛ ولما جاء ذكر الدين والإقراض هنا بالفحوى ناسب النص على تنظيم مسائل الديون هذه تنظيما دقيقا مريحا للدائن والمدين معا ، على أسس سليمة ، فذكر القرآن الكريم هاتين الآيتين اللتين تعدان من الأصول الجامعة ؛ وتعد الآية الأولى منهما من أطول الآيات فى القرآن الكريم .

وذكر الرازى وجها آخر للاتصال فى النظم عزاه إلى قوم من المفسرين قالوا : إن المراد بالمداينة السلم ، فالله سبحانه لما منع الربا فى الآية المتقدمة أذن فى السلم فى جميع هذه الآية ، مع أن جميع المنافع المطلوبة من الربا حاصلة فى السلم ؛ ولهذا قال بعض العلماء : لا لذة ولا منفعة يوصل إليها بالطريق الحرام إلا وضع الله سبحانه وتعالى — لتحصيل مثل تلك اللذة — طريقا حلالا وسبيلا

مشروعاً . والفرق بين الربا القطعي المحرم فى القرآن وبين السلم : أن الربح فى السلم ليس من شأنه أن يكون أضعافاً مضاعفة كربا النسيئة ، ولولا ذلك لم يظهر لتحريم الربا مع إباحة السلم فائدة ؛ إذ ليس فى أمور المكاسب والمعايش تعبد لا يعقل . . .

قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » صدق الله وكتابه الحكيم .. «تداينتم» أى داين بعضكم بعضاً ، وهو يأتى بمعنى تعاملتم بالدين ، وبمعنى تجازيتم ، ولما قال « بدين » تعين المعنى بالنص القطعى ، والمراد بالدين المال الذى يكون فى الذمة لا المصدر. وقد حمل المداينة بعضهم على السلف «السلم» وروى عن ابن عباس؛ فقد أخرج البخارى وغيره عنه أنه قال: أشهد فى السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله قد أحله ، وقرأ هذه الآية . وبعضهم على القرض ، وضعفه الرازى بأن القرض لا يمكن أن يشترط فيه الأجل، وما فى الآية قد اشترط فيه الأجل ، وقوله هذا هو الضعيف ، وقال الجمهور : إن الدين عام يشمل القرض والسلم وبيع الأعيان إلى أجل وهو الصواب ، والأجل : الوقت المضروب لانتهاء شىء ، والمسمى: المعين بالتسمية كشهر وسنة مثلا ـ وفائدة قوله « مسمى » ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام ، ولو قال: إلى الحصاد أو الدراس أو رجوع الحاج لم يجز للجهل بوقت الأجل ، وإنما أمر بكتابة الدين لأن ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود ، فإن قيل : إن كلمة « إذا » لا تفيد العموم والمراد من الآية العموم؛ لأن المعنى : كلما تداينتم بدين فاكتبوه، فلم عدل عن «كلما» وقال «إذا..تداينتم» ، فالجواب أن كلمة « إذا » وإن كانت لا تقتضى العموم إلا أنها لا تمنع من العموم ، وها هنا قام الدليل على أن المراد هو العموم ،واختلفوا فى هذه الكتابة فقال بعضهم : هى واجبة والأكثرون على أنها أمر استحباب ؛ فإن ترك فلا بأس، كقوله تعالى : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وقال بعضهم : كانت كتابة الدين والإشهاد والرهن فرضاً، ثم نسخ الكل بقوله « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته »

ثم بين كيفية الكتابة فقال تعالى «وليكتب» أى كتاب الدين «بينكم كاتب بالعدل» أى بالحق فى كتابته، لا يزيد فى المال أو الأجل ولا ينقص، وهو فى الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين، حتى يجيء مكتوبه موثوقا به معدلا بالشرع «ولا يأب» أى لا يمتنع «كاتب» من «أن يكتب» «إذا دعى إليها «كما علمه» أى فضله «الله» بالكتابة فلا يبخل بها، بل ينفع الناس بها كما نفعه الله بتعليمها لقوله تعالى «وأحسن كما أحسن الله إليك» والكاف متعلقة بيأبَ «فليكتب» تلك الكتابة المعلمة ـ أمر بها بعد النهى عن الإباء تأكيدا، «وليملل الذى عليه الحق» أى وليكن المملل على الكاتب من عليه الحق؛ لأنه المقر المشهود عليه. والإملال والإملاء لغتان فصيحتان ومعناهما واحد جاء بهما القرآن، والإملال هاهنا هو لغة الحجاز، والإملاء كما فى قوله تعالى: فهى تملى عليه بكرة وأصيلا هو لغة تميم «وليتق الله ربه» أى كل من المملى والكاتب «ولا يبخس» أى لا ينقص «منه» أى من الحق أو مما أملى عليه «شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها» أى مبذرا «أو ضعيفا» أى صغيرا أو كبيرا اختل عقله لكبره «أو لا يستطيع أن يمل هو» لخرس أو جهل باللغة أو نحو ذلك؛ فليملل وليه أى متولى أمره، من والد ووصى ووكيل ومترجم «بالعدل» وفى هذا دليل على جواز النيابة فى الإقرارات، قال البيضاوى: ولعله مخصوص بما تعاطاه القيم أو الوكيل دون المترجم ودونهما فيما لم يتعاطياه «واستشهدوا» أى وأشهدوا «شهيدين» أى شاهدين «من رجالكم» أى البالغين الأحرار المسلمين دون الصبيان والعبيد والكفار، واختار ابن سيرين شهادة العبد وأبو حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض «فإن لم يكونا رجلين فرجل» أى فليشهد أو فالمشهد رجل «وامرأتان» وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال فى الأموال حتى ثبت برجل وامرأتين، واختلفوا فى غير الأموال، فذهبت جماعة إلى أنه يجوز شهادتهن مع الرجال فى غير العقوبات، وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى، وذهب جماعة إلى أن غير المال لا يثبت إلا برجلين عدلين، وذهب الشافعى إلى أن ما يطلع عليه النساء غالبا كالولادة والرضاع والثيوبة والبكارة

أو نحوها يثبت بشهادة رجل وامرأتين وشهادة أربع نسوة ؛ واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة فى العقوبات « ممن ترضون من الشهداء » أى من كان مرضيا لدينه وأمانته ـ هذا وشروط قبول الشهادة سبعة : الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروءة وانتفاء التهمة ؛ فمتى فقد شرط منها لم تصح تلك الشهادة وإنما اشترط التعدد فى النساء لأجل « أن تضل » أى تنسى « إحداهما » أى الشهادة ، لنقص عقلهن وضبطهن « فتذكر إحداهما » أى الذاكرة « الأخرى » أى الناسية « ولا يأب » أى لا يمتنع « الشهداء إذا ما » أى إذا « دعوا » لأداء الشهادة والتحمل ، فما مزيدة ، وسموا شهداء على هذا الثانى تنزيلا لما يشارف منزلة الواقع « ولا تسأموا » أى تملوا من « أن تكتبوه » أى ما شهدتم عليه من الحق لكثرة وقوعه ، أو تكسلوا عن أن تكتبوه « صغيراً » كان ذلك الحق « أو كبيرا » قليلا أو كثيرا ، وقوله تعالى « إلى أجله » أى وقت حلوله الذى أقر به المدبون، حال من الهاء فى «يكتبوه» « ذلكم » أى التسجيل بالكتابة « أقسط » أى أعدل « عند الله وأقوم للشهادة » أى أعون على إقامتها لأنه يذكرها « وأدنى » أى وأقرب إلى « أن لاترتابوا » أى تشكوا فى قدر الحق وجنسه والشهود والأجل ونحوذلك « إلا أن تكون تجارة حاضرة » وهى تعم المبايعة بدين أوعين « تديرونها بينكم » أى تتعاطونها يدا بيد « فليس عليكم جناح » أى لا بأس إذا تبايعتم يدا بيد « أن لا تكتبوها » فهو استثناء من الأمر بالكتابة لبعده حينئذ عن التنازع والنسيان « وأشهدوا إذا تبايعتم » عليه ، فإنه أدفع للاختلاف ؛ فهو تعميم بعد تخصيص احتياطا فى جميع المبتاعات ، ويجوز أن يراد هنا التبايع الذى هو التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كان فيه دون الكتابة « ولا يضار كاتب ولا شهيد » اختلفوا فمنهم من قال: أصله يضارِرُ بكسر الراء الأولى ، وجعل الفعل للكاتب والشهيد، ومعناه نهيهما عن ترك الإجابة والتحريف والتغيير فى الكتابة والشهادة ، ومنهم من قال : أصله يضارَرُ بفتح الراء على الفعل المجهول، وجعلوا الكاتب

والشاهد مفعولين ومعناه : النهي عن الضرر بهما ، مثل أن لا يعطى الكاتب جعله ولا الشهيد ما يعوض نفقات مجيئه حيث كان ، والمنهي حينئذ المتبايعان ؛ فالآية محتملة للبناء للفاعل وللبناء للمفعول، فتحمل عليهما معا أو على كل منهما والأول أولى « وإن تفعلوا » ما نهيتم عنه من الضرار « فإنه فسوق بكم » أى معصية وخروج عن الأمر « واتقوا الله » فى مخالفة أمره ونهيه « ويعلمكم الله » أحكامه المتضمنة لمصالحكم « والله بكل شيء عليم » كرر لفظ الله فى الجمل الثلاث لاستقلالها ، فإن الأولى حث على التقوى ، والثانية وعد بإنعامه ، والثالثة تعظيم لشأنه عز وجل ، ولأنه أدخل فى التعظيم من الضمير .

وهذا آخر آية الدين ، وقد حث سبحانه وتعالى فيها على الاحتياط فى أمر الأموال لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد ، قال القفال رحمه الله تعالى: ويدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية فى الأكثر على الاختصار ، وفى هذه الآية بسط شديد ، ألا ترى أنه قال « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، ثم قال ثانيا « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » ، ثم قال ثالثا « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » فكان هذا كالتكرار لقوله «فليكتب بينكم كاتب بالعدل» لأن العدل هو ما علمه الله ، ثم قال رابعا « فليكتب » وهذا إعادة للأمر الأول ، ثم قال خامسا « وليملل الذى عليه الحق » وفى قوله « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » كناية عن قوله « وليملل الذى عليه الحق » لأن الكاتب بالحق إنما يكتب ما يملى عليه ، ثم قال سادسا « وليتق الله ربه » وهذا كالمستفاد من قوله « وليتق الله ربه » ، ثم قال سابعا « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله » وهو أيضا تأكيد لما مضى ، ثم قال ثامنا « ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا » فذكر هذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السالفة . وكل ذلك يدل على المبالغة فى التوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك ليتمكن الإنسان بواسطته من الانفاق فى سبيل الله ، والإعراض عما يغضب الله من الربا وغيره ، والمواظبة على تقوى الله .

« وإن كنتم على سفر » أى مسافرين وتداينتم ، فعلى بمعنى فى لئلا يتوهم أن المعنى على نية سفر « ولم تجدوا كاتبا فرهان » أى فعليكم رهان « مقبوضة » تستوثقون بها . وبينت السنة جواز الرهن فى الحضر مع وجود الكاتب ، فقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعا من شعير أخذها لأهله ، فالتقييد بما ذكر لأن التوثق فيه أشد ، وعن مجاهد والضحاك أنهما لم يجوزاه إلا فى السفر أخذا من ظاهر الآية ، وأفاد قوله « مقبوضة » اشتراط القبض فى لزوم الرهن لا فى صحته والاكتفاء به من المرتهن ووكيله ، ولا يشترط القبض عند مالك « فإن أمن بعضكم » أى الدائن « بعضا » أى المديون واستغنى بأمانته عن الارتهان « فليؤد الذى اؤتمن » أى المدين « أمانته » أى دينه ، سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان « وليتق الله ربه » فى الخيانة وإنكار الحق وفيه مبالغات من حيث الإتيان بصيغة الأمر الظاهرة فى الوجوب والجمع بين ذكر الله والرب وذكره عقب الأمر بأداء الدين « ولا تكتموا الشهادة » أيها الشهود إذا دعيتم لإقامتها أو المديونون وعلى هذا فشهادتهم إقرارهم على أنفسهم « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » فائدة ذكر القلب والجملة هى الآثمة لا القلب وحده ، لأن كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها ، فلما كان الكتمان إثما مختلطا بالقلب أسند إليه لأنه محل كتمان الشهادة، وإسناد الفعل إلى الجارحة التى تعمل بها أبلغ ، ألا ترى أنك تقول إذا أردت التأكيد : هذا مما أبصرته عينى ومما سمعته أذنى ومما عرفه قلبى؛ ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط ، وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه. واللسان ترجمان عنه ، ولأن أفعال القلوب، أعظم من سائر أفعال الجوارح، وهى لها كالأصول التى تتشعب منها ، ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر وهما من أفعال القلوب، وإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب ؛ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما :

أكبر الكبائر الإشراك بالله وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة .

« والله بما تعملون عليم » تهديد لأنه لا يخفى عليه منه شيء .

هذا وقد ذهب الجمهور إلى أن الأمر بكتابة الدين للندب ، واستدلوا بثلاثة أمور :

١ — قوله تعالى « فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته » فإنه أجاز ذلك بإقرارهم عليه وهو يستلزم عدم الكتابة والاستشهاد .

٢ — كون المسلمين لم يلتزموا الكتابة والاستشهاد فى العصر الأول ولا فيما بعده ، بل كانوا يأتونه تارة ويتركونه تارة ولو فهموا أنه واجب لالتزموه .

٣ — أن فى الكتابة حرجا وهو منفى بالنص .

وذهب آخرون إلى أن الأمر للوجوب وبه قال عطاء والشعبي وابن جرير فى تفسيره ، وهو الأصل فى الأمر عند الجمهور ، وقد تتابعت الأوامر فى الآية وتأكدت حتى فى حال السفه والضعف والعجز ؛ فقد أمر ولى من عليه الحق من هؤلاء بأن يملى عنه للكاتب ولم يعفهم من الكتابة ، ومثل هذا التأكيد لا يكون فى غير الواجب ، ويؤيده التعليل بكون ذلك أقسط عند الله الخ ، أما قوله تعالى « فإن أمن بعضكم بعضا » الخ فهو محمول على حال الضرورة كالأوقات التى لا يوجد فيها كاتب ولا شهود ، فإذا احتاج امرؤ إلى الاقتراض من أخيه فى مثل هذه الحال ، فإن الله تعالى لا يحرم عليه قضاء حاجته وسد خلته إذا هو ائتمنه .

هذا ومن متعلقات هاتين الآيتين أن قوله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » قد اشتهر فى معناه عند المتصوفين ، كما يقول الإمام محمد عبده : إن التقوى تكون سببا للعلم ، وبنوا على ذلك أن طريقة الصوفية فى عبادة الله والإخلاص له وتقواه حق تقاته تثمر لهم العلوم الإلهية وعلم النفس وغير ذلك من العلوم بدون تعلم ، وهذا الزعم فتح للجاهلين الذين يلبسون لباس الصلاح دعوى العلم بالله وفهم القرآن والحديث ومعرفة أسرار الشريعة ، من غير أن يكونوا

قد تعلموا من ذلك شيئا ، والعامة تسلم لهم بهذه الدعوى وتصدق قولهم إن الله هو الذى تولى تعليمهم ، ونحن لا ننكر العلم الذى يسمونه لدنيا ، وإنما ننكر أن الله يكون غاية لذلك الطريق الجائر الذى يشترط فيه الجهل ونقول : إن العلم بالله تعالى والعلم بالشرع والعمل به مع الإخلاص قد يصرف العالم العامل المخلص إلى الله تعالى حتى يكون كالمنفصل بقلبه وروحه عن العالم الطبيعى ؛ وقد يحصل له عند ذلك إشراف على ما لا يشرف عليه غيره من أسرار الحكمة الإلهية والتحقق ببعض المعارف الغيبية ، فيعلم بما قصه الله علينا من خبر الآخرة والملائكة مالا يعلمه كل ناظر فى معانى الألفاظ والأساليب فى الكتاب ، وأين هذا مما يدعيه أعوان الجهل وأعداء العلم .

٢٨٤ — لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

« لله ما فى السموات وما فى الأرض » خلقا وملكا « وإن تبدوا » أى تظهروا « ما فى أنفسكم » من السوء والعزم عليه « أو تخفوه » أى تسروه « يحاسبكم » أى يجازيكم « به الله » يوم القيامة والآية حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض « فيغفر لمن يشاء » مغفرته « ويعذب من يشاء » تعذيبه وهذا صريح فى نفى وجوبه « والله على كل شىء قدير » فيقدر على جزائكم ومحاسبتكم .

هذا والمراد بقوله تعالى « وإن تبدوا ما فى أنفسكم » الأشياء الثابتة فى أنفسكم التى تصدر عنها أعمالكم كالحقد والحسد وألفة المنكرات التى يترتب عليها ترك النهى عن المنكر ، فإن السكوت عن النهى أمر كبير يحل الله عقوبته فى الأمة بسببه ، وليس هو مجرد اتفاق السكوت وإنما هو باعتبار سببه فى النفس وهو ألفة المنكر والأنس به ، وللإنسان عمل اختيارى فى نفسه هو الذى يحاسب عليه ، نعم إن الخواطر والهواجس قد تأتى بغير إرادة الإنسان ولا يكون له فيها عمل ، ولكنه إذا مضى معها واسترسل تحسب عليه عملا يجازى عليه لأنه سايرها مختارا

وكان يقدر على مطاردتها وجهادها. وسواء كانت هذه الخواطر والهواجس صادرة عن ملكة فى النفس تثيرها أو عن شىء لا يدخل فى حيز الملكة ، مثال ذلك : الحسود، تبعث ملكة الحسد فى نفسه خواطر الانتقام من المحسود والسعى فى إزالة نعمته لبمكنها فى نفسه وامتلاكها لمنازع فكره ، وهذه الخواطر بما يحاسب عليها ـ أبداها أو أخفاها إلا أن يجاهدها ويدافعها فذلك مايكلفه ؛ ومثال الثانى : المظلوم، يذكر ظالمه فيشتغل فكره فى دفع ظلمه والهرب من أذاه، وربما استرسل مع خواطره إلى أن تجره إلى تدبير الحيل للإيقاع به ومقابلة ظلمه بما هو شر منه ، فيكون مؤاخذا عليها ـ أبداها أو أخفاها. وهكذا يقال فى كل أعمال القلب التى أمرنا الشرع بمجاهدتها ولا يدخل فى هذا ما يمر فى النفس من الخواطر والوساوس كما قيل ، وبنوا عليه أن الصحابة رضى الله عنهم شق عليهم العمل بالآية وشكوا للنبى صلى الله عليه وسلم الوسوسة فنزلت الآية التى بعدها دفعا للحرج . ولفظ الآية يدفع هذا ، لأنها نص فيما هو ثابت فى النفس ومتمكن منها ، كالأخلاق والملكات والعزائم القوية التى يترتب عليها العمل بأثرها فيها إذا انتفت الموانع وتركت المجاهدة ، وكذلك يدفعه ما كان عليه الصحابة الكرام من علو الهمة والأخذ بالعزائم ، وهم الذين كانوا يفهمون القرآن حق الفهم ويتأدبون به ويقيمونه كما يجب ، وما أبعدهم عن الاسترسال مع الوساوس والأوهام وهذا هو المتبادر من لفظ الآية ، ولا شك أن مايجازى عليه مما فى النفس يعم الملكات الفاضلة والمقاصد الشريفة ، وإنما مثل هو وغيره بالحقد والحسد لمناسبة السياق ، ولهذا السياق خصه بعضهم بكتمان الشهادة ، وهو مروى عن ابن عباس وعكرمة والشعبى ومجاهد ، ورد ذلك الأكثرون بأنه مخالف لعموم اللفظ ، وخصه بعضهم بالكفار وهو تخصيص بلا مخصص أيضا ، وذهب الجمهور إلى أن الآية منسوخة بما بعدها . أخرج أحمد ومسلم وأبو داود فى ناسخه وغيرهم عن أبى هريرة قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله ثم جثوا

على الركب ، فقالوا : يارسول الله كلفنا من الأعمال مانطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا ، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى أثرها « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » الآية ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » إلى آخرها . وأخرج البخارى والبيهقى عن رجل من الصحابة أحسبه ابن عمر « وإن تبدوا ما فى أنفسكم » الآية ، قال : نسخها مابعدها . واحتجوا للنسخ بحديث أبى هريرة فى الصحيحين والسنن « إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به » .

ويرى صاحب المنار ان النسخ فى الآية هنا ممنوع لعدة وجوه :

١ - أن قوله تعالى «يحاسبكم به الله» خبر والأخبار لاتنسخ كما هو معروف.

٢ - أن كسب القلب وعمله مما دل الكتاب والسنة والإجماع والقياس على ثبوته والجزاء عليه - ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر - وهو مادلت عليه الآية ، فالقول بنسخها إبطال للشريعة ونسخ للدين كله ، أو إثبات لكونه دينا ماديا لاحظ للأرواح والقلوب منه - قال تعالى « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » ، وقال « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، وقال « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ، والحب من أعمال القلب الثابتة فى النفس ، فقوله تعالى « مافى أنفسكم » معناه ماثبت واستقر فى أنفسكم كما تقدم ، ويدخل فيه الكفر والأخلاق الراسخة والصفات الثابتة : من الحب والبغض والجور وكتمان الشهادة وقصد السوء أو سوء القصد وفساد النية وخبث السريرة ، وهذه الأعمال والصفات هى الأصل فى الشقاوة وعليها مدار الحساب والجزاء ، ولولا أن للأعمال البدنية

آثارا فى النفس تزكيها أو تدسيها ، لما آخذ الله تعالى فى الآخرة أحدا عليها ، لأنه تعالى لايعاقب الناس حبا فى الانتقام ولا يظلم نفسا شيئا ، ولكنه جعل سنته فى الإنسان أن يرتقى أو يتسفل نفسا وعقلا بالعمل ، فلهذا كان العمل مجزيا عليه فى الآخرة فإن أثره فى النفس هو متعلق الجزاء.

٣ — أن الخواطر السانحة ، والوساوس العارضة وحديث النفس الذى لا يصل إلى درجة القصد الثابت والعزم الراسخ ، لايدخل فى مفهوم الآية كما قال المحققون ، واختاره الأستاذ الإمام كما تقدم ، لأن ماذكر غير ثابت ولامستقر وقوله « فى أنفسكم » يفيد الثبات والاستقرار ، وإنما كان هذا وجها لإبطال النسخ، لأنه إذا ثبت أن ماذكر داخل فى الآية فلقائل أن يقول: إن الآية خبر يفيد النهى عن هذه الخواطر والوساوس فى المعنى فهو من تكليف مالا يطاق فيجب أن يكون قوله بعده « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ناسخا له ، وبهذا تعلم أن حديث التجاوز عن حديث النفس لا ينافى الآية ، ولا يصلح دعامة للقول بنسخها .

٤ — أن تكليف ماليس فى الوسع ينافى الحكمة الإلهية البالغة ،والرحمة الربانية السابغة ، فهو لم يقع فيقال : إن الآية منه ونسخت بما بعده .

٥ — المعقول فى النسخ أن يشرع حكم يوافق مصلحة المكلفين ، ثم يأتى زمن أو تطرأ حال يكون ذلك الحكم فيه مخالفا للمصلحة ، وكون مافى النفس محاسب عليه هو من الحقائق التى لاتختلف باختلاف الأزمنة والأحوال .

ثم قال صاحب المنار : إن الصحابة عليهم الرضوان قد دخلوا فى الإسلام، وأكثرهم رجال قد تربوا فى حجر الجاهلية ، وانطبعت فى نفوسهم قبله أخلاقها، وأثرت فى قلوبهم عاداتها ، فكانوا يتزكون منها ويتطهرون من لوثها تدريجا بزيادة الإيمان ، كلما نزل شىء من القرآن ، وباتباع الرسول ، فيما يفعل ويقول ، فلما نزلت هذه الآية خافوا أن يؤاخذوا على ما كان لا يزال باقيا فى أنفسهم من أثر التربية الجاهلية الأولى ، وناهيك بما كانوا عليه من الخوف من الله

عز وجل، واعتقاد النقص فى أنفسهم حتى بعد كمال التزكية وتمام الطهارة ، حتى كان مثل عمر بن الخطاب يسأل حذيفة بن اليمان هل يجد فيه شيئا من علامات النفاق، فأخبرهم الله تعالى بأنه لايكلف نفساً إلا وسعها ولا يؤاخذها إلا ما كلفها، فهم مكلفون بتزكية أنفسهم ومجاهدتها بقدر الاستطاعة والطاقة وطلب العفو عما لا طاقة لهم به كما سيأتى تفصيله ، ولا يبعد أن يكون بعضهم قد خاف أن تدخل الوسوسة والشبهة قبل التمكن من دفعها فى عموم الآية ، فكان ما بعدها مبينا لغلطهم فى ذلك . وأما تسمية بعضهم ذلك نسخا فقد أجاب عنه بعض المفسرين بأنه عبر بالنسخ عن البيان والإيضاح تجوزا ، ولك أن تقول : إن المراد به النسخ اللغوى ، وهو الإزالة والتحويل لا الاصطلاحى، أى أن الآية الثانية كانت مزيلة لما أخافهم من الأولى أو محولة له إلى وجه آخر ، ويحتمل أن يكون الصحابى لم ينطق بلفظ النسخ ، وإنما فهمه الراوى من القصة فذكره ، وكثيرا ما يروون الأحاديث المرفوعة بالمعنى على أنه ليس من النص المرفوع ، ورأى الصحابى ليس بحجة عند الجماهير لا سيما إذا خالف ظاهر الكتاب . وإننى لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم صحابى يخالف ظاهر القرآن ، وإن وثقوا رجاله ، فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله وهو سيء الباطن ، ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها كما تنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض ، وقد قالوا : إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة فى الشريعة ، أو للبرهان العقلى ، أو للحس والعيان وسائر اليقينيات . أما إبداء ما فى النفس فهو إظهاره بالقول أو بالفعل ، وأما إخفاؤه فهو ضده ، والإبداء والإخفاء سيان عند الله تعالى لأنه « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » فالمدار فى مرضاته على تزكية النفس وطهارة السريرة لا على لوك اللسان وحركات الأبدان . وأما المحاسبة فهى على ظاهرها وإن فسرها بعض بالعلم وبعض بالجزاء الذى هو غيها ولازمها ، ذلك أن للنفوس فى اعتقاداتها وملكاتها وعزائمها وإراداتها موازين يعرف بها يوم الدين رجحان الحق والخير أو الباطل والشر ، هى أدق مما وضع البشر من موازين الأعيان

وموازين الأعراض كالحر والبرد « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » وسيأتى الكلام فى الحساب والجزاء .

وقوله تعالى « فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » أى فهو بماله من الملك المطلق يغفر لمن يشاء أن يغفر له ويعذب من يشاء عذابه ، والأصل فى العدل أن يكون الجزاء السيء على قدر الإساءة وتأثيرها فى تدسية نفوس المسيئين ، والجزاء الحسن على قدر الإحسان وتأثيره فى أرواح المحسنين ؛ ولكنه تعالى برحمته وفضله يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعاف ويزيد من يشاء ، ولا يضاعف السيئة . والآيات المفصلة فى هذا المعنى كثيرة وبها يفسر المجمل ، وقد بينا معنى المغفرة غير مرة بإيضاح ، وحسبك هنا أن تعلم أن الذنب المغفور هو الذى يوفق الله صاحبه لعمل صالح يغلب أثره فى النفس . والجاهل بهدى الكتاب يحسب أن الأمر فوضى والكيل جزاف ، ويمنى نفسه بالمغفرة على إصراره ، وإقامته على أوزاره ، ألم يقرأ فى دعاء الملائكة للمؤمنين « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم »

هذا وشأن الله تعالى فى المحاسبة أن يذكر الإنسان أو يسأله لم فعلت ، فبعد أن يرى العبد أعماله الظاهرة والباطنة يغفر أو يعذب ، فمن الناس من لم تصل أعماله المنكرة إلى أن تكون ملكات له ، فالله سبحانه يغفرها له ، ومنهم من تكون ملكات له فهو يعاقبه عليها ، وهو يفعل ما يشاء ويختار . وقد يظن من لا يؤمن بالكتاب كله أن فى هذا سبيلا للمروق من التكليف ، لأن أمر المغفرة والتعذيب موكول للمشيئة والرجاء فيه أكبر ، وهذا ضلال عن فهم الكتاب بالمرة ، فالآية إنذار وتخويف ليس فيها موضع للقطع بمغفرة ذنب ما ، وإن كان صغيراً .

هذا ويرى السيد عبد الحميد الخطيب فى تفسيره ، « تفسير الخطيب » أن الضمير فى قوله تعالى « فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » راجع إلى العبد

لا إلى الله تعالى ، والمعنى أن الله يغفر لكل من استغفره وأناب إليه برا بوعده فى سورة طه ، إذ يقول : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » ، ويعذب من يشاء لنفسه العذاب بمن خالف شرائعه وعصى أمره ، واستحق عقابه . وأضيف إلى ما قاله السيد الخطيب إلى جواز أن يكون المعنى فى قوله تعالى «فيغفر لمن يشاء» ، أى للعبد الذى يشاء أن يغفر الله له بأن يكون طائعا لله ممتثلا لأوامره ، مبتعدا عن معاصيه .

٢٨٥ — ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ .

٢٨٦ — لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ .

آيتان جليلتان جامعتان رائعتان ، تبين منهج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته فى العقيدة والحياة ؛ وتشرح إخلاصهم لله ، وطاعتهم إياه ، ولجوءهم إلى ساحته الكريمة فى الشدائد والخطوب ، كما تبين أن الله عز وجل يعطف على هؤلاء المؤمنين من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، حيث لم يكلفهم إلا ما يطيقون ، ولم يحاسبهم إلا بما عملت أيديهم من خير أو شر .

وكما بدئت هذه السورة الجامعة بصفات المتقين ، ختمت بصفات المؤمنين ، وقد وصف المتقون هناك بأنهم آمنو بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقهم الله ، وهنا وصف المؤمنون بأنهم آمنوا برسالة الإسلام ، وامنوا بالله

وملائكته وكتبه ورسله ، وأخلصوا لله فى السمع والطاعة ، وسألوه المغفرة والرحمة ، وأقروا بأن مصيرهم إلى الله وحده فيحاسبهم على ماقدموا من طاعات وسيئات ، وسألوه أن يرفع عنهم العقاب فيما أخطأوا فيه وفيما كان فيه نسيان ، وسألوه أن يخفف عنهم أعباء التكاليف وإصرها ، وما لا طاقة لهم به ، وتضرعوا إليه أن يمنحهم العفو والمغفرة والرحمة ، وأقروا بعبوديتهم له ، وأخلصوا له الدعاء بأن ينصرهم على أعدائهم من الكافرين .

وقوله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » أى صدق الرسول بما أنزل إليه فى هـذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام والسنن والبينات والهدى ، تصديق إذعان واطمئنان، وكذلك المؤمنون من أصحابه ، وقد شهد لهم بهذا الإيمان أثره فى نفوسهم الزكية وهممهم العلية وأعمالهم المرضية والله أكبر شهادة . وقد اعترف كثير من علماء الإفرنج الباحثين فى شؤون المسلمين وعلومهم وسائر شؤون أمم الشرق بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان على اعتقاد جازم بأنه مرسل من الله وموحى إليه ، وكانوا من قبل متفقين على أنه ادعى الوحى لأنه رآه أقرب الطرق لنشر حكمته والإقناع بفلسفته أو لنيل السلطة وهو غير معتقد به « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » وقرأ حمزة (وكتابه) أى كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه وكمال صفاته وحكمته وسننه فى خلقه ، وبوجود الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين الرسل من البشر ينزلون بالوحى على قلوب الأنبياء ، قال المفسرون : ليس المراد بالإيمان بالملائكة الإيمان بذواتهم بل الإيمان بسفارتهم فى الوحى كما يفهم من النظم والترتيب ، ولذلك عطف عليهم الإيمان بحقية كتبه وصدق رسله . لكن ما يفيده الترتيب والنظم من إرادة الإيمان بالملائكة من حيث هم حملة الوحى إلى الرسل لا ينافى ملاحظة الإيمان بهم من حيث هم من عالم الغيب بل يستلزمه. وأما البحث عن ذواتهم ما هى، وعن صفاتهم وأعمالهم كيف هى؟ فهو مما لم يأذن به الله فى دينه . والمراد بالإيمان بالكتب والرسل جنسها أى يؤمنون بذلك إيمانا إجماليا فيما أجمله القرآن وتفصيليا فيما فصله ، لا يزيدون على ذلك شيئا

ويقولون « لا نفرق بين أحد من رسله » قرأ يعقوب وأبو عمرو فى رواية عنه « لا يفرق » وهو يعود على لفظ كل وذكر المقول مع حذف القول كثير فى الكلام البليغ ، وله مواضع فى الكتاب لا يقف الفهم فى شىء منها ، قال الأستاذ الإمام : والمعنى إن من شأن المؤمنين أن يقولوا هذا معتقدين أنهم فى الرسالة والتشريع سواء ، كثر قومُ الرسول منهم أم قلوا ، وكثرت الأحكام المنزلة عليه أم قلت، وتقدمت البعثة أم تأخرت ؛ وهذا لا ينافى قوله تعالى « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » فإن التفضيل ليس فى أصل الرسالة والوحى كما تقدم فى تفسير الآية . أقول : وفى هذا مزية للمؤمنين من هذه الأمة على غيرهم من أهل الكتاب الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، كأنهم لم يعقلوا معنى الرسالة فى نفسها ، إذ لو عقلوها لما فرقوا بين من أوتوها ، وقد رأيت غير واحد من أذكياء النصارى يدرك هذه المزية .

« وقالوا سمعنا » أى ماأمرنا به سماع قبول « وأطعنا » أمرك ، نسألك « غفرانك ربنا وإليك المصير » أى المرجع بعد الموت ، وهو إقرار منهم بالبعث ، روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم « لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » الآية قال : فاشتد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب وقالوا : أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، فلما قرأها القوم أنزل الله تعالى فى إثرها « آمن الرسول » الآية ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله بقوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » أى ما تسعه قدرتها وإن شق فضلا ورحمة « لها ما كسبت » من الخير أى ثوابه « وعليها ما اكتسبت » من

الشر أى وزره ، فلا ينتفع بطاعتها غيرها ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد ولا بما لم يكسبه مما وسوست به نفسه كما يفيده تقديم الخبر وهو لها وعليها من الحصر، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تجاوز عن أمتى ماوسوست به أنفسها مالم تتكلم أوتعمل به . وخص الخير بالكسب والشر بالاكتساب لأن فى الاكتساب اعتمالا أى اضطرابا فى العمل ومبالغة واجتهادا ، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به كانت أشد حبا فى تحصيله ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لادلالة فيه على الاعتمال ، قولوا «ربنا لاتؤاخذنا » أى لاتعاقبنا « إن نسينا أو أخطأنا » أى بما أدى بنا إلى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة ، لأن المؤاخذة إنما هى بالمقدور، والنسيان والخطأ ليسا بمقدورين، ويجوز أن يراد نفس النسيان والخطأ أى لاتؤاخذنا بهما كما آخذت بهما من قبلنا ، ويروى أن بنى إسرائيل كانوا إذا نسوا شيئا مما أمروا به أو أخطأوا عجلت لهم العقوبة ، فحرم الله عليهم شيئا من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب ، فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، فإن قيل: النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة ؟ فالجواب أن المراد بذكرهما ماهما سببان عنه من التفريط والانفعال ، ألاترى إلى قوله تعالى « وما أنسانيه إلا الشيطان » ، والشيطان لايقدر على فعل النسيان وإنما يوسوس فتكون وسوسته سببا للتفريط الذى منه النسيان ، ويجوز أن يدعو الإنسان بما يعلم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته، وذكره بلفظ الدعاء على معنى التحدث بنعمة الله، قال الله تعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » ، « ربنا ولا تحمل علينا إصرا » أى تكلفنا أمرا يثقل علينا حمله « كما حملته على الذين من قبلنا » أى بنى إسرائيل من قتل النفس فى التوبة وإخراج ربع المال فى الزكاة وقطع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك ، « ربنا ولا تحملنا مالا طاقة » أى قوة « لنا به » من البلاء والعقوبة ومن التكاليف التى لاتفى به الطاقة البشرية ،

وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق ، وإلا لما سأل التخلص عنه « واعف عنا » أى امح ذنوبنا «واغفر لنا» أى استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة بها « وارحمنا » أى تعطف بنا وتفضل علينا ، فإننا لا ننال العمل بطاعتك وبترك معصيتك إلا برحمتك « أنت مولانا » أى سيدنا ومتولى أمورنا « فانصرنا على القوم الكافرين » بإقامة الحجة والغلبة فى قتالهم ؛ فإن من حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء ، أو المراد بالكافرين عامة الكفر ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى « غفرانك ربنا » قال الله تعالى : قد غفرت لكم وفى قوله « لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » قال : لا أؤاخذكم ، وقوله تعالى « ربنا ولا تحمل علينا إصرا » أى لا أحمل عليكم ، وفى قوله « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا » يقول الله تعالى : قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين .

هذا وقوله تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » قيل : إن الكسب والاكتساب واحد فى اللغة ، نقل عن الواحدى ، وقيل : إن الاكتساب أخص والفرق بينهما كالفرق بين عمل واعتمل ، فكل من اكتسب واعتمل يفيد الاختراع والتكلف ، فالآية تشير أو تدل على أن فطرة الإنسان مجبولة على الخير ، وأنه يتعود الشر بالتكلف والتأسى ، والمعنى أن لها ثواب ما كسبت من الخير وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر . وقد اختلف الناس فى الإنسان : هل هو خيِّر بالطبع أو شرير بالطبع ، وإلى أى الأمرين يكون أميل بفطرته مع صرف النظر عما يتفق له فى تربيته ؟ ويرى كثيرون أنه لا شك فى أن الميل إلى الخير مما أودع فى طبع الإنسان ، والخير كل ما فيه نفع نفسك ونفع الناس ، جماع ذلك كله أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك والإنسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذته ويميل إلى عبادة الله تعالى ، لأن شكر المنعم مغروس فى الطبع ويظهر أثره فى كل إنسان ، وأقله البشاشة والارتياح للنعم ، ولا يحتاج الإنسان إلى تكلف فى فعل الخير ، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إليه ويراه بعين الرضى .

وأما الشر فانه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا مقتضى فطرتها ، ومهما كان الإنسان شريرا فإنه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت فى نظر الناس وصاحبه مهين عندهم ، فإن الطفل ينشأ على الصدق حتى يسمع الكذب من الناس فيتعلمه ، وإذا رأى إعجاب الناس بكلام من يصف شيئاً يزيد فيه ويبالغ كاذبا استحب الكذب وافتراه لينال الحظوة عند الناس ويحظى بإعجابهم ، وهو مع ذلك لا ينفك يشعر بقبحه حتى إذا نبز أمامه أحد بلقب الكاذب أو الكذاب أحس بمهانة نفسه وخزيها . وهكذا شأن الإنسان عند اقتراف كل شر يشعر فى نفسه بقبحه ويجد من أعماق سريرته هاتفا يقول له : لاتفعل ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا فى النادر ، ومن النادر أن يصير الانسان شراً محضا ، إذ أنه قلما يألف أحد الشر وينطبع به حتى يكون طبعا له لا تشعر نفسه بقبحه عند الشروع فيه ، ولا فى أثنائه، ولا بعد الفراغ منه. والذين ذهبوا إلى أن الإنسان شرير بالطبع أرادوا من الطبع مايرون عليه غالب الناس ولم يلاحظوا فيه معنى الغريزة والفطرة . والإنسان إذا رجع إلى أصل فطرته لا يرى إلا الخير ولا يميل إلا إليه ، وإذا تأمل فى الشر الذى يعرض له لم يخف عليه أنه ليس من أصل الفطرة ، وإنما هو من الطوارىء التى تعرض عليها ، لا سيما من ينشأ بين قوم فسدت فطرتهم ؛ وأشد ما يضر الإنسان فى ذلك نظره إلى حال غيره ، ولذلك أمرنا فى الحديث أن ننظر فى شؤون الدنيا إلى من دوننا ، وهذا الأمر خاص بالأفراد بعضهم مع بعض ، فإن نظر الواحد إلى من دونه يجعله راضيا بما أوتيه من النعم ، بعيداً عن الحسد الذى هو منبع الشرور ، وأما الأمم فينبغى أن تنظر فى حال من فوقنا منها لأجل مباراتها ومساماتها . ومن هذا يعلم وجه قوله تعالى فى الخير « كسبت » ، « وفى الشر « اكتسبت » ، وأحق ما يتعجب له من حال الإنسان كثرة عمل الشر وقلة عمل الخير ، وذلك أن عمل الخير سهل وعاقبته حميدة ، وعمل الشر عسر ومغبته ذميمة .. وبعد فهاتان الآيتان تجمعان صفات المؤمنين الفاضلة ، وعقائدهم المثلى ، وتصوران ما يجب أن يتحلوا به من إيمان وطاعة وإخلاص لله وتضرع إليه وامتثال لأوامره واجتناب لمعاصيه .

هـذه هى سورة البقرة بجلالها وروعتها وبلاغتها وعظمتها ، وبسحرها وإشراقها وإعجازها ؛ وبما تناولت من أصول العقيدة ، وأصول الاجتماع ، وأصول التشريع ، وبما فيها من تنظيمات مدنية واجتماعية وتشريعية فى قمة السمو والرفعة ، وقد تناولت هذه السورة الكريمة شئون الأسرة، من زواج وطلاق ووصية وميراث بالتفصيل والتحليل .

وفى هـذه السورة قصص طويلة لعناد اليهود مع أنبيائهم ورسلهم ، وطرائف شتى من قصص كثير من الأنبياء والمرسلين، ومن بينها قصة إبراهيم وإسماعيل وسواها .

وفى فضـل هـذه السورة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اقرأوا الزهراوين » : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، اقرأوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة وتركها حسرة .

وأخرج مسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قال : « لاتجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة » وأخرج ابن حبان فى صحيحه عن سهل بن سعد رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لـكل شىء سناماً ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، من قرأها فى بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ، ومن قرأها نهاراً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام » وروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : اقرأوا سورة البقرة فى بيوتكم ، فإن الشيطان لا يدخل بيتاً يقرأ فيه سورة البقرة ، وفى مسند الدارمى عن الشعبى قال : قال عبد الله - يعنى ابن مسعود - : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ، أربعاً من أولها وآية الـكرسى وآيتين بعـدها ، وثلاث خواتيمها أولها « لله مافى السموات ومافى الأرض » .

وأخرج البخارى تعليقاً ومسلم والنسائى وأبو عبيد فى فضائل القرآن ،

وابن حبان فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى ، عن أسيد بن حضير رضى الله عنه قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكنت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه ، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء ، فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فقال له : « اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير » قال فأشفقت يارسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً ، فانصرفت إليه ، فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فعرجت حتى لا أراها ، قال : « أوتدرى ما ذاك ؟ » قال : لا . قال : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لاتتوارى منهم » وفى رواية ابن حبان « تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب » .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن : حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدثوه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل له : ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح ؟ قال « فلعله قرأ سورة البقرة » قال : فسئل ثابت فقال : قرأت سورة البقرة .

وأخرج الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى الصحيح عن أبى هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثا وهم ذوو عدد ، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ـ يعنى ما معه من القرآن ـ قال : فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال : « ما معك يا فلان ؟ » قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة . فقال : « أمعك سورة البقرة ؟ » قال : نعم . قال « اذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم : والله مامنعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تعلموا القرآن واقرأوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه ، كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل

مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه ، فمثله كمثل جراب أوكى على مسك ، هذا لفظ الترمذى وقال حديث حسن .

وأخرج الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، لايقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » .

وأخرج الحاكم عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذى تحت العرش ، فتعلموهن وعلموهن نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى مسعود ـ عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى ـ رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » أى أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن ، وقيل : كفتاه عن قراءة القرآن مطلقا فى الصلاة وفى غيرها ، وقيل: كفتاه فى الإيمان ، لاشتمالهما على الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل ، والابتهال إلى الله ودعائه ، إلى غير ذلك ، وقيل : كفتاه شر الشيطان ، وقيل : كفتاه شر الإنس والجن ، وقيل : كفتاه بثوابهما عن طلب شىء آخر .

إلى غير ذلك من الآثار النبوية الواردة فى سورة البقرة . وكل ما نقوله أن هذه السورة بتشريعاتها وآدابها وحكمها وقصصها ؛ كانت المعين الذى استقى منه المجتمع الإسلامى بعد الهجرة نظامه ونواميسه ، وكانت الينبوع الثر الذى ينهل منه شباب المسلمين وشيوخهم على السواء . كما أنها كانت بداية طيبة لإقامة مجتمع إسلامى متحضر ، يعرف النظام ، ويتأدب بأدب الإسلام والسلام ، ويقيم حياته على أصول فكرية وروحية واجتماعية رفيعة ؛ ويفشر لنفسه حياة كريمة مثلى .

إن « سورة البقرة » مثل رفيع لعقائد الإسلام وشرائعه ، وكتاب كامل حوى كل شىء ، وهى أطول سورة فى القرآن الكريم ، وتعد من السبع الطوال ومن الأمثلة الرفيعة للقرآن فى إعجازه وسموه وسحره .

وسورة البقرة مدنية كما علمت ، وآياتها مائتان وسبع وثمانون آية .

(٣)

سورة آل عمران

تمهيـــد

سميت هذه السورة الكريمة بسورة آل عمران ، تكريما لعمران الذى ورد اسمه فيها فى الآية الثالثة والخامسة والثلاثين ، وهو من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وتكريما لذريته .

وقد نزلت هذه السورة فى المدينة وآياتها مائتان .

وهذه السورة تشبه سورة البقرة إلى حد بعيد ، وذلك أن كلا من السورتين قد بدىء بذكر الكتاب وهدايته ، وفى كل من السورتين جدل لأهل الكتاب : اليهود فى البقرة والنصارى فى آل عمران . وخلق آدم مذكور فى الأولى ، وخلق عيسى فى الثانية .. وفى كل من السورتين أحكام مشتركة كأحكام القتال ؛ وفى آخر كل من السورتين دعاء كثير ، وختمت الثانية بما يناسب بدء السورة الأولى كأنها متممة لها ، ذلك أن الأولى بدئت بإثبات الفلاح للمتقين ، وختمت الثانية بقوله تعالى «واتقوا الله لعلكم تفلحون»

والسورتان من الطوال وتشتملان على أحكام كثيرة وأصول عديدة ، من أحكام وأصول الإسلام .

وقد أكد الله فى أول السورة أن القرآن هو هادى الإنسانية إلى سبيل الخير والسلام ، وهو نور المتقين فى سيرهم الدائم إلى المجد ورضوان الله . فمجد الله سبحانه وتعالى نفسه فى أول السورة ، ثم مجّد القرآن الكريم ، وذكر أنه متمم لرسالات الأنبياء من قبل .

ومطلع هذه السورة مناسب تمام المناسبة لختام سورة البقرة ، هذا الختام الذى بين الله عز وجل فيه أن المؤمنين يجمعون إلى توحيد الله والإيمان برسالة محمد صلوات الله عليه ، الإيمان بجميع الأنبياء والرسالات ، وهنا يؤكد الله عز وجل هذا المعنى ، فيذكر سبحانه وتعالى فى مطلع هذه السورة أن القرآن الكريم نزل من السماء على محمد عليه الصلاة والسلام مصدقا لما سبقه من رسالات وكتب سماوية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ — الٓمٓ .

٢ — ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ .

٣ — نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ .

٤ — مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ .

٥ — إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ .

٦ — هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

٧ — هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ .

٨ — رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ .

٩ — رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ .

تسع آيات كريمة تحتوى على تمجيد الله وتعظيمة ، وعلى تمجيد كتاب الله وتكريمه ، وعلى أوصاف كثيرة للمؤمنين بالله وبالقرآن الكريم . . وفى هذه الآيات ما فيها من تعظيم شأن الكتب السماوية وبيان هدايتها للناس ، ومن بيان أن القرآن الكريم نزل بالحق على محمد خاتم الأنبياء ، مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة عليه .

والآية الأولى هى التى بدئت بها سورة البقرة أيضا ، وتقرأ هكذا « ألف . لام ، ميم » .

وقد اختلف فى معناها على ماسبق أن فصلناه فى سورة البقرة ، وقد قلت إنها تنويه بالعربية التى هذا كتابها ، وبمحمد الذى تلك رسالته وهذا فرقانه ، وبالعرب الذين نزل عليهم هذا الدستور الإلهى الكريم المعجز ؛ وتمجيد لهذا النور والهدى والتبيان الذى احتوى على أصول الإسلام وفصوله ، وعلى أركانه وقواعده ، وعلى كل ما يحتاج إليه المسلم فى دينه ودنياه ، والذى لا بد أنه نازل من السماء لمكان أمية الرسول وبشريته ، مع عظمة هذا الإعجاز البيانى والفكرى ، ومع جلال روحه ومشربه ، ومع سمو نزعته وغايته ، مما لا يتصور صدوره من إنسان ، ولا أن يستطيع النطق بمثله مخلوق .

هذا وقد قيل إن «الم» اسم للسورة أو للقرآن أوالله ؛ أو إن كل حرف منها يدل على صفة من صفات الله عز وجل ؛ إلى غير ذلك من الآراء فى « ألم » .

قال الشعبى وجماعة : « ألم » وسائر حروف الهجاء فى أول السور من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه وهى سر القرآن ، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله سبحانه وتعالى. وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها، والسبب فى ذلك أن العقول الضعيفة لا تحتمل الأسرار القوية كما لا يحتمل نور الشمس ضعاف الأبصار ، والله تعالى استأثر بعلم لا يقدر عليه عقول العامة ، وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : فى كل كتاب سر وسر الله فى القرآن أوائل السور ، وقال على رضى الله عنه : إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف الهجاء ، قال

داود بن أبي هند : كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال: يا داود إن لكل كتاب سراً وإن سر القرآن فواتح السور فدعها وسل عما سوى ذلك .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : معنى « الم » أنا الله أعلم، ومعنى «الر» أنا الله أرى، ومعنى «المر» أنا الله أعلم وأرى، قال الزجاج : وهذا حسن ؛ إذ العرب تذكر حرفا من كلمة تريدها كقولهم : قلت لها: قفي، فقالت: قاف، أي وقفت .

وقيل : هي أسماء السور ، وعليه أطبق أكثر المتكلمين ، واختاره الخليل وسيبويه - سميت بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب، فلو لم يكن وحيا عن الله لم تسقط قدرتهم عند معارضتها، ونقضه الإمام الرازي بأنها لو كانت أسماء لها لوجب اشتهارها بها ، وقد اشتهرت بغيرها كسورة البقرة وآل عمران .

وقيل : هي أسماء للقرآن ، قال قتادة : والحكمة في الإتيان بهذه الحروف الثلاثة أن الألف من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام من طرف اللسان وهو وسطها ، والميم من الشفة وهي آخرها ، جمع الله تعالى بينها إيماء إلى أن العبد ينبغي أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى ، ولما تكاثر وقوع الألف واللام في تراكيب الكلام جاءتا في معظم الفواتح مكررتين، وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والأعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة .

فإن قيل : هلا عددت هذه الأحرف بجمعها في أول القرآن دون أن تذكر مفرقة على السور ، أجيب بأنه أعاده للتنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير وتحديده في موضع واحد أوصل إلى الغرض ، وأقرله في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة ، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره .

فإن قيل : هلا جاءت على وتيرة واحدة ، ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت ص و ق و ن على حرف ، وطه وطس ويس وحم على حرفين،

والم والر وطسم على ثلاثة أحرف ، والمص والمر على أربعة أحرف ، وكهيعص وحمعسق على خمسة أحرف ؟ فالجواب بأن هذا على عادة أفنانهم فى أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب عدة ، وكما أن أبنية كلامهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم يتجاوز ذلك سلك بهذه الفواتح تلك المسالك .

هذا ويجب قراءة البسملة فى مفتتح كل سورة ، وهى ليست آية من السورة نفسها ، والمراد : أبتدىء القراءة « بسم الله » الذى مهما أراده كان « الرحمن » أى الذى سرت رحمته خلال الوجود ، فشملت كل موجود بالكرم والجود « الرحيم » لمن توكل عليه بالعطف إليه.

والآية الثانية « الله لاإله إلا هو الحى القيوم » تقرير لحقيقة التوحيد ، الذى هو أعظم قواعد الدين .

وقوله تعالى « الحى القيوم » نعت لله ، والحى هو الفعال الدراك ، والقيوم هو القائم بذاته والقائم بتدبير خلقه ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور فى البقرة « الله لاإله إلا هو الحى القيوم » وفى آل عمران « الله لاإله إلاهو الحى القيوم » . وفى طه « وعنت الوجوه للحى القيوم » ونقل عن أكثر العلماء أن الإسم الأعظم هو الله .

وقال الكلبى والربيع بن أنس وغيرهما نزلت هذه الآية فى وفد نصارى نجران ، وكانوا ستين راكبا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وفى الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليه أمرهم ، العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذى لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح ، والسيد صاحب رحلهم واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة حبرهم ، دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى العصر عليهم ثياب الأحبار ، والحارث بن كعب يقول من ورائهم : ما رأينا وفدا مثلهم ، وقد حانت صلاتهم، فقاموا للصلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوهم ليصلوا إلى المشرق، ثم تكلم السيد

والعاقب فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسلما. قالا : قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما يمنعكما عن الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير ، قالوا : إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه ؟ وخاصموه جميعا فى عيسى ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ فقالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى له الفناء؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يحفظه ويرزقه؟ قالوا : بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ قالوا بلى ، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علمه الله قالوا: لا ، قال : فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء؟ وربنا لا يأكل ولا يشرب قالوا : بلى ، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلى قال، وكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

« نزل عليك » يا محمد « الكتاب » أى القرآن متلبسا « بالحق » أى بالصدق فى أخباره أو بالحجج المحققة أنه من عند الله « مصدقا لما بين يديه » أى قبله من الكتب ، وسمى ما مضى بأنه بين يديه لأن تلك الأخبار لغاية ظهورها وكونها موجودة سماها بهذا الاسم «وأنزل التوراة» جملة على موسى « والإنجيل» جملة على عيسى « من قبل » أى قبل تنزيل القرآن . والتوراة كلمة عبرانية معناها الشريعة أو الناموس ، وهى تطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفار ، يقولون إن موسى كتبها ، وهى سفر التكوين ، وفيه الكلام عن بدء الخليقة وأخبار بعض الأنبياء ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين أو الأخبار ، وسفر العدد ، وسفر تثنية الاشتراع ويقال التثنية فقط . ويطلق النصارى لفظ «التوراة» على جميع الكتب التى يسمونها العهد القديم ، وهى كتب الأنبياء وتاريخ قضاة بنى إسرائيل وملوكهم قبل المسيح ، ومنها ما لا يعرفون كاتبه ، وقد يطلقونه عليها وعلى العهد الجديد معا، وهو المعبر عنه بالإنجيل . أما التوراة فى عرف القرآن فهى ما أنزله

الله تعالى من الوحى على موسى عليه السلام ليبلغه قومه لعلهم يهتدون به ، وقد بين الله تعالى أن قومه لم يحفظوه كله ، إذ قال فى سورة المائدة « ونسوا حظا مما ذكروا به » ، كما أخبر عنهم فى آيات أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وذلك فيما حفظوه واعتقدوه ؛ وهـذه الأسفار الخمسة التى فى أيديهم تنطق بما يؤيد ذلك ، ومنه ما فى سفر التثنية من أن موسى كتب التوراة وأخذ العهد على بنى إسرائيل بحفظها والعمل بها ، ففى الفصل (الإصحاح) الحادى والثلاثين منه ما نصه : « فعند ما كمل موسى كتابة كلمات هـذه التوراة فى كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم ، لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هوذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى ، اجمعوا إلى كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق فى مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض ، لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون من الطريق الذى أوصيتكم ، ويصيبكم الشر فى آخر الأيام ؛ لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم ،فنطق موسى فى مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه »[1] وذكر النشيد فى الإصحاح الثانى والثلاثين ، ثم قال الكاتب لسفر التثنية : « فأتى موسى ونطق بجميع كلمات هذا النشيد فى مسامع الشعب هو ويشوع بن نون ، ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع بنى إسرائيل بهذه الكلمات ، قال لهم : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التى أنا أشهد عليكم بها اليوم لكى توصوا بها أولادكم ليحرصوا ان يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة ؛ لأنها ليست أمرا باطلا عليكم بل هى حياتكم ، وبهذا الأمر تطيلون الأيام على الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها »[2] ومنه خبر موت موسى وكونه لم يقم فى بنى

---

(١) ٣٣١ الكتاب المقدس — نشر جمعية التوراة البريطانية

(٢) ٣٣٣ و ٣٣٤ المرجع نفسه

إسرائيل نبي مثله بعد ، إلى وقت الكتابة ، فهذان الخبران عن كتابة موسى للتوراة وعن موته معدودان عندهم من التوراة ، وما هما في الحقيقة من الشريعة المنزلة على موسى التي كتبها ووضعها بجانب التابوت ، بل كتبا كغيرهما بعده .
وقد ظهر تأويل علم موسى في بني إسرائيل ، فانهم فسدوا وزاغوا بعده كما قال ، وأضاعوا التوراة التي كتبها ثم كتبوا غيرها ، ولا ندري عن أي شيء أخذوا ما كتبوه على أنه فقد أيضاً . وفي الفصل الرابع والثلاثين من أخبار الأيام الثاني أن حلقيا الكاهن وجد سفر شريعة الرب وسلمه إلى شافان الكاتب ، فجاء به شافان إلى الملك [١] وقد ادعوا أن هذا السفر الذي وجده حلقيا هو الذي كتبه موسى ولا دليل لهم على ذلك : على أنهم أضاعوه أيضاً ، ثم إن عزرا الكاهن الذي « هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء » [٢] قد كتب لهم الشريعة بأمر أرتحشستا ملك فارس الذي أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى أورشليم [٣] . وقد أمر هذا الملك بأن تقام شريعتهم وشريعته كما في سفر عزرا . فجميع أسفار التوراة التي عند أهل الكتاب قد كتبت بعد السبي كما كتب غيرها من أسفار العهد القديم ، ويدل على ذلك كثرة الألفاظ البابلية فيها ، وقد اعترف علماء اللاهوت من النصارى بفقد توراة موسى التي هي أصل دينهم وأساسه ، قال صاحب كتاب «خلاصة الأدلة السنية على صدق أصول الديانة المسيحية» : « والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية في الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان من أمرها ، والمرجح أنها فقدت مع التابوت لما خرّب بختنصر الهيكل . وربما كان ذلك سبب حديث كان جاريا بين اليهود على أن الكتب المقدسة فقدت ، وأن عزرا الكاتب الذي كان نبيا جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية » .

---

(١) ٧٣٢ و ٧٣٣ الكتاب المقدس
(٢) الإصحاح السابع — السطر ١٠ سفر عزرا ، الكتاب المقدس
(٣) الإصحاح السابع ص ٧٤٧ و ٧٤٨ المرجع السابق

وأسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة لا يمكن أن تكون كتابة واحد، والتوراة التي يشهد لها القرآن هي ما أوحاه الله إلى موسى ليبلغه قومه بالقول والكتاب، وأما التوراة التي عند القوم فهي كتب تاريخية مشتملة على كثير من تلك الشريعة المنزلة، لأن القرآن يقول في اليهود: إنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، كما يقول: إنهم نسوا حظا مما ذكروا به، ولأنه يستحيل أن تنسى تلك الأمة بعد فقد كتاب شريعتها جميع أحكامها، فما كتبه عزرا وغيره مشتمل على ما حفظ منها إلى عهده وعلى غيره من الأخبار، وهذا كاف للاحتجاج على بني إسرائيل بإقامة التوراة، وللشهادة بأن فيها حكم الله كما في سورة المائدة.

أما لفظ الإنجيل فهو يوناني الأصل ومعناه البشارة، قيل: والتعليم الجديد وهو يطلق عند النصارى على أربعة كتب تعرف بالأناجيل الأربعة وعلى ما يسمونه «العهد الجديد» وهو هذه الكتب الأربعة مع كتاب أعمال الرسل ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا. أي على المجموع، فلا يطلق على شيء مما عدا الكتب الأربعة بالانفراد. والأناجيل الأربعة عبارة عن كتب وجيزة في سيرة المسيح عليه السلام وشيء من تاريخه وتعليمه، ولهذا سميت أناجيل، وليس لهذه الكتب سند متصل عند أهلها، وهم مختلفون في تاريخ كتابتها على أقوال كثيرة، ففي السنة التي كتب فيها الإنجيل الأول تسعة أقوال، وفي كل واحد من الثلاثة عدة أقوال أيضاً؛ على أنهم يقولون: إنها كتبت في النصف الثاني من القرن الأول للمسيح، لكن أحد الأقوال في الإنجيل الأول أنه كتب سنة ٣٧ ومنها أنه كتب سنة ٦٤، ومن الأقوال في الرابع أنه كتب في ٩٨ للميلاد، ومنهم من أنكر أنه تصنيف يوحنا، وخلافهم في سائر كتب العهد الجديد أقوى وأشد، وأما الإنجيل في عرف القرآن فهو ما أوحاه الله إلى رسوله عيسى بن مريم عليه السلام من البشارة بالنبي الذي يتمم الشريعة والحكم والأحكام، وهو ما يدل عليه اللفظ، وقد أخبرنا سبحانه وتعالى في سورة المائدة أن النصارى نسوا حظا مما ذكروا به كاليهود، وهم أجدر بذلك، فإن

التوراة كتبت فى زمن نزولها ، وكان الألوف من الناس يعملون بها ثم فقدت، والكثير من أحكامها محفوظ معروف . وأما كتب النصارى فلم تعرف وتشتهر إلا فى القرن الرابع للمسيح، لأن أتباع المسيح كانو مضطهدين بين اليهود والرومان فلما أمنوا باعتناق الملك قسطنطين النصرانية سياسة ظهرت كتبهم ، ومنها تواريخ المسيح المشتملة على بعض كلامه الذى هو إنجيله وكانت كثيرة فتحكم فيها الرؤساء حتى اتفقوا على هذه الأربعة . والفرق بين عرف القرآن وعرف أهل الكتاب فى مفهوم التوراة والإنجيل كبير .

والتوراة نزلت على موسى مرة واحدة ، وإن كانت مرتبة فى الأسفار المنسوبة إليه ، فإنها مع ترتيبها مكررة ، والقرآن لا يعرف هذه الأسفار ولم ينص عليها . وكذلك الإنجيل نزل مرة واحدة ، وليس هو هذه الكتب التى يسمونها الأناجيل ، لأنه لو أرادها لما أفرد الإنجيل دائما ، مع أنها كانت متعددة عند النصارى حينئذ . ومعنى التوراة وهى عبرية (الشريعة) ، ومعنى الإنجيل وهى يونانية (البشارة) وإنما المسيح مبشر بالنبى الخاتم الذى يكمل الشريعة للبشر : وأما كونهما هدى للناس فهو ظاهر .

« وأنزل الفرقان » الفرقان مصدر كالغفران وهو هنا ما يفرق ويفصل به بين الحق والباطل ، قال بعضهم: المراد به القرآن، وقال غيرهم : هو كل ما يفرق به الحق والباطل فى كل أمر كالدلائل والبراهين ، واختاره ابن جرير ، وقيل : هو خاص ببيان الحق فى أمر عيسى عليه السلام كما جاء فى هذه السورة ، وقيل الفرقان هو العقل الذى به تكون التفرقة بين الحق والباطل وإنزاله من قبيل إنزال الحديد ، لأن كل ما كان عن الحضرة العلية الإلهية يسمى إعطاؤه إنزالا .

وعبر بالناس فى قوله تعالى « هدى للناس » والمراد به اليهود والنصارى ، وإنما عبر فى التوراة والإنجيل بأنزل وفى القرآن بنزّل المقتضى للتكرير ، لأنهما أنزلا دفعة واحدة بخلافه ، فقد أنزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة فحيث عبر عنه بأنزل أريد الأول أو بنزل أريد الثانى، فإن قيل: يرد الأول بقوله تعالى «وهو الذى

أنزل عليك الكتاب ، وبقوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك » وبقوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك » وبقوله تعالى « الحمد لله الذى أنزل عليك الكتاب » وبقوله تعالى « وبالحق أنزلناه » . ويرد الثانى بقوله تعالى « وقال الذين كفروا لو أنزل عليه القرآن جملة واحدة » فالجواب أن القول بذلك جرى على الغالب .

وقيل : المراد بالفرقان الكتب الفارقة بين الحق والباطل ، وذكره بعد الكتب الثلاثة ليعم ماعداها فكأنه قال : وأنزل سائر مايفرق به بين الحق والباطل ، وقيل : القرآن ، وكرر ذكره بما هو نعت له مدحا وتعظيما وإظهارا لفضله ، من حيث أنه يشاركهما فى كونه وحيا منزلا وتميز بأنه معجز يفرق به بين المحق والمبطل ، وقيل : أراد الكتاب الرابع وهو الزبور كما قال تعالى : وآتينا داود زبورا ، قال الزمخشرى وهو ظاهر ولما قرر سبحانه جميع مايتعلق بمعرفة الإله أتبع ذلك بالوعيد زجرا للمعرضين عن هذه الدلائل الباهرة فقال « إن الذين كفروا بآيات الله » من القرآن وغيره « لهم عذاب شديد » بسبب كفرهم « والله عزيز » أى غالب على أمره فلا يمنعه شىء من إنجاز وعده ووعيده « ذو انتقام » ممن عصاه والنقمة عقوبة المجرم أى يعاقبه عقوبة شديدة لا يقدر على مثلها أحد « إن الله لا يخفى عليه شىء » كائن « فى الأرض ولا فى السماء » لعلمه بما يقع فى العالم جميعه ، وخص الأرض والسماء بالذكر مع أنه عالم بجميع الأشياء ، لأن البصر به لا يتجاوزهما . وقدم الأرض على السماء رقيا من الأدنى إلى الأعلى ، وهذه الآية كالدليل على كونه حيا .

وقوله تعالى « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » أى من ذكورة وأنوثة وأبيض وأسود وحسن وقبح وتمام ونقص وغير ذلك ، على أنه تعالى عالم بإتقان فعله فى خلق الجنين وتصويره ، وفى هذا رد على وفد نجران من النصارى حيث قالوا : عيسى ولد الله ، واستدلوا على ذلك بأمور ، منها العلم فإنه كان يخبر عن الغيوب ويقول لهذا : إنك أكلت فى دارك كذا ويقول لذاك : إنك صنعت فى دارك كذا ، ومنها القدرة ، وهى أن عيسى كان يحيى الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا ، كأنه

تعالى يقول : كيف يكون ولد الله وقد صوره فى الرحم والمصوِّر لايكون أبا المصوَّر .

ثم إنه تعالى لما أجاب عن شبهتهم أعاد كلمة التوحيد زجرا للنصارى عن قولهم بالتثليث فقال « لا إله إلا هو العزيز » فى ملكه ، وفيه إشارة إلى كال القدرة ، فقدرته تعالى أعلى وأجل من قدرة عيسى على الإماتة والإحياء « الحكيم » فى صنعه ، وفيه إشارة إلى كال العلم ، فعلمه أكمل من علم عيسى ، وأن علم عيسى ببعض الصور . وقدرة عيسى على بعض الصور لايدل على كونه إلها ، بل على أن الله أكرمه بذلك إظهارا لمعجزته ، وعجزه عن بعض الإحياء فى بعض الصور يوجب قطعا عدم الألوهية لأن الإله هو الذى يكون قادرا على كل الممكنات عالما بجميع الجزئيات والكليات ، قال عبد الله بن مسعود حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « أن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك - أو قال : يبعث إليه الملك - بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ، وقال : وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

« هو الذى أنزل عليك » يا محمد « الكتاب » أى القرآن « منه آيات محكمات » أحكمت عبارتها بأن حفظت عن الاحتمال والاشتباه ، فهى واضحات الدلالة « هن أم الكتاب » أى أصله المعتمد عليه فى الأحكام ، ويحمل المتشابهات عليها وترد إليها ، ولم يقل أمهات الكتاب كما قال تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » أى كل واحدة منهما آية « وأخر متشابهات » أى محتملات لايتضح مقصودها إلا بالفحص والنظر ، فإن قيل : لم جعل بعضه متشابها ، وهل كان كله محكما ؟ أجيب بأن فى المتشابه من الابتلاء بحكمة عظيمة وهى التميز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، وليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا فى

تدبيرها وتحصيل العلوم المتوقفة عليها استنباط المراد بها فينالوا بذلك الدرجات العلى عند الله ، فإن قيل: لم فرق هنا بين المحكم والمتشابه ، وقد جعل كل القرآن محكما فى موضع آخر فقال « الر كتاب أحكمت آياته » وجعل كله متشابها فى موضع آخر فقال « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » والجواب أنه حيث جعل الكل محكما فمعناه أن آياته حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ ، وحيث جعل الكل متشابها فمعناه أن آياته يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة اللفظ. هذا والمحكمات كما يقول صاحب تفسير المنار من أحكم الشىء بمعنى وثقه وأتقنه، والمعنى العام لهذه المادة المنع ، فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره ومنه الحكم والحكمة وحكمة الفرس قيل : وهى أصل المادة . والمتشابه يطلق فى اللغة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً ، وعلى ما يشتبه من الأمر أى يلتبس، قال فى الأساس : « وتشابه الشيئان واشتبها ، وشبهته به وشبهته إياه واشتبهت الأمور وتشابهت: التبست لإشباه بعضها بعضا ، وفى القرآن المحكم والمتشابه ، وشبه عليه الأمر لبس عليه ، وإياك والمشبهات الأمور المشكلات». وقد وصف القرآن بالإحكام على الإطلاق فى أول سورة هود بقوله « كتاب أحكمت آياته » وهو من إحكام النظم وإتقانه ، أو من الحكمة التى اشتملت آياته عليها . ووصف كله بالمتشابه فى سورة الزمر « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها » أى يشبه بعضه بعضا فى هدايته وبلاغته وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ، أما قوله تعالى فى سورة البقرة «وأتوا به متشابها» فمعناه أن ما جيئوا به من الثمرات أخيرا يشبه ما رزقوه من قبل وأنهم اشتبهوا به لهذا التشابه ، وقالوا: إن الأصل فى ورود التشابه بمعنى المشكل الملتبس أن يكون الالتباس فيه بسبب شبهه لغيره ثم أطلق على كل ملتبس مجازا ، وإن كان ظاهر الأساس أن المعنيين حقيقتان فيه . ولا شك أن القرآن يصح أن يوصف كله بالمحكم وبالمتشابه من حيث هو متقن ويشبه بعضه بعضا فيما ذكر . والتقسيم فى هذه الآية مبنى على استعمال كل من المحكم والمتشابه فى معنى خاص، ولذلك اختلف فيه المفسرون على أقوال : ذكر صاحب تفسير المنار منها :

١ — أن المحكمات هى قوله تعالى فى سورة الأنعام « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً » إلخ ، والمتشابهات هى التى تشابهت على اليهود ، وهى أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور ، وذلك أنهم أولوها على حساب الجمل فطلبوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الأمة ، فاختلط الأمر عليهم واشتبه . وهذا القول مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وزعم الفخر الرازى أن المراد به أن المحكم ما لا تختلف فيه الشرائع كالوصايا فى تلك الآيات الثلاث ، والمتشابه ما يسمى بالمجمل أو هو ما تكون دلالة اللفظ بالنسبة إليه وإلى غيره على السوية إلا بدليل منفصل . وهذا رأى مستقل يجعل المعنى الخاص عاماً وهو لا يفهم من هذه الرواية .

٢ — أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ ، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً وعن ابن مسعود وغيرهما .

٣ — أن المحكم ما كان دليله واضحا لائحا كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابه ما يحتاج فى معرفته إلى التدبر والتأمل . عزاه الرازى إلى الأصم وبحث فيه .

٤ — أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفى ، والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال . وهذه الأربعة ذكرها الرازى وكأنه لم يطلع على غيرها .

وفى تفسير ابن جرير وغيره أقوال أخرى مروية عن المفسرين ، منها ما يقرب من بعض ما ذكره ، ومن هذه الآراء :

١ — أن المحكمات ما أحكم الله فيها بيان حلاله وحرامه ، والمتشابه منها ما أشبه بعضه بعضا فى المعانى وإن اختلفت ألفاظه . رواه ابن جرير عن مجاهد وعبارته عنده : محكمات ما فيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك فهو متشابه يصرف بعضه بعضا ، وهو مثل قوله « وما يضل به إلا الفاسقين » ، ومثل قوله « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » ، ومثل قوله

« والذى اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » ، وكأن مجاهدا يعنى بالمتشابه مافيه إبهام أو عموم أو إطلاق أو كل ما لم يكن حكما عمليا، فهو عنده خاص بالإنشاء دون الخبر .

٢ — أن المحكم من آى الكتاب ما لم يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا ، والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجها . رواه ابن جرير عن محمد بن جعفر ابن الزبير ، وعبارته هكذا : « آيات محكمات هن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ، وأخر متشابهة فى الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم فى الحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق .

٣ — أن التقسيم خاص بالقصص ، فالمحكم منها ما أحكم وفصل فيه خبر الأنبياء مع أممهم ، والمتشابه ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير فى السور ، وأطال فى التمثيل له .

٤ — أن المتشابه ما يحتاج إلى بيان وهو مروى عن الإمام أحمد ، والمحكم ما يقابله .

٥ — أن المتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به ، ذكره ابن تيمية ، والظاهر أنه جميع الأخبار، فالمحكم هو قسم الإنشاء .

٦ — أن المتشابه آيات صفات الله خاصة ومثلها أحاديثها ، ذكره ابن تيمية أيضا .

وقال الإمام محمد عبده على ما ذكر صاحب تفسير المنار فى معنى المتشابهات: المتشابه إنما يكون بين شيئين فأكثر ، وهو لا يفيد عدم فهم المعنى مطلقا ، ووصف التشابه فى هذه الآية هو للآيات باعتبار معانيها ، أى إنك إذا تأملت فى هذه الآيات تجد معانى متشابهة فى فهمها من اللفظ لا يجد الذهن مرجحا لبعضها على بعض . وقالوا أيضا : إن المتشابه ما كان إثبات المعنى فيه للفظ الدال عليه ونفيه عنه متساويان؛ فقد تشابه فيه النفى والإثبات أو ما دل فيه اللفظ

على شيء والعقل على خلافه فتشابهت الدلالة ولم يمكن الترجيح، كالاستواء على العرش وكون عيسى روح الله وكلمته؛ فهذا هو المتشابه الذى يقابله المحكم الذى لا ينفى العقل شيئا من ظاهر معناه .

أما كون المحكمات هن أم الكتاب فمعناه أنهن أصله وعماده أو معظمه ، وهذا ظاهر ؛ لكنه لا ينطبق إلا على بعض الأقوال

ومعنى ذلك أنها هى الأصل الذى دعى الناس إليه ، ويمكنهم أن يفهموها ويهتدوا بها ، وعنها يتفرع غيرها وإليها يرجع ، فإن اشتبه علينا شيء نرده إليها وليس المراد بالرد أن نؤوله بل أن نؤمن بأنه من عند الله وأنه لا ينافى الأصل المحكم الذى هو أم الكتاب وأساس الدين ، الذى أمرنا أن نأخذ به على ظاهره الذى لا يحتمل غيره إلا احتمالا مرجوحا . مثال هذه المتشابهات قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » وقوله « يد الله فوق أيديهم » وقوله « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » . هذا رأى جمهور المفسرين ، وذهب جمهور عظيم منهم إلى أنه لا متشابه فى القرآن إلا أخبار الغيب كصفة الآخرة وأحوالها من نعيم وعذاب .

فالمتشابه ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة أو ما خالف ظاهر لفظه المراد منه ، وورود المتشابه بالمعنى الأول فى القرآن ضرورى لأن من أركان الدين ومقاصد الوحى الإخبار بأحوال الآخرة ، فيجب الإيمان بما جاء به الرسول من ذلك على أنه من الغيب، كما نؤمن بالملائكة والجن ونقول إنه لا يعلم تأويل ذلك أى حقيقة ما تؤول إليه هذه الألفاظ إلا الله والراسخون فى العلم وغيرهم فى هذا سواء ، وإنما يعرف الراسخون ما يقع تحت حكم الحس والعقل فيقفون عند حدهم ولا يتطاولون إلى معرفة حقيقة ما يخبر به الرسل عن عالم الغيب ؛ لأنهم يعلمون أنه لا مجال لحسهم ولا لعقلهم فيه ، وإنما سبيله التسليم ، فيقولون: آمنا به كل من عند ربنا ؛ فعلى هذا يكون الوقف على لفظ الجلالة لازماً ، وإنما خص الراسخين بما ذكر لأنهم هم الذين يفرقون بين المرتبتين، ما يحول فيه علمهم وما لا يحول فيه ، ومن المحال أن يخلو الكتاب من

هذا النوع فيكون كله محكما بالمعنى الذى يقابل المتشابه . ومن الشواهد على أن التأويل هنا بمعنى ما يؤول إليه الشيء وينطبق عليه ، لا بمعنى ما يفسر به قوله تعالى « يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » . فتبين مما قررناه أنه لا يقال على هذا : لماذا كان القرآن منه محكم ومنه متشابه ؟ لأن المتشابه بهذا المعنى من مقاصد الدين فلا يلتمس له سبب لأنه جاء على أصله .

وأما التفسير الثانى للمتشابه وهو كونه ليس قاصرا على أحوال الآخرة بل يتناول غيرها من صفات الله التى لايجوز فى العقل أخذها على ظاهرها وصفات الأنبياء التى من هذا القبيل نحو قوله تعالى « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» فإن هذا مما يمنع الدليل العقلى والدليل السمعى من حمله على ظاهره، فهذا هو الذى يأتى الخلاف فى علم الراسخين بتأويله كما تقدم ، فالذين قالوا بالنفى جعلوا حكمة تخصيص الراسخين بالتسليم والتفويض هى تمييزهم بين الأمرين وإعطاء كل حكمه كما تقدم آنفا ، وأما القائلون بالإثبات الذين يردون ماتشابه ظاهره من صفات الله أو أنبيائه إلى أم الكتاب الذى هو المحكم ، ويأخذون من مجموع المحكم مايمكنهم من فهم المتشابه، فهؤلاء يقولون: إنماخص الراسخين بهذا العلم إلا لبيان منع غيرهم من الخوض فيه ، قال : فهذا خاص بالراسخين لايجوز تقليدهم فيه وليس لغيرهم التهجم عليه . وهذا خاص بما لايتعلق بعالم الغيب . وههنا يأتى السؤال : لم كان فى القرآن متشابه لايعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ؟ ولم لم يكن كله محكما يستوى فى فهمه جميع الناس ، وهو قد نزل هاديا ، والمتشابه يحول دون الهداية بما يوقع اللبس فى العقائد ويفتح باب الفتنة لأهل التأويل ؟ - ذكر العلماء فى فوائد المتشابهات وجوها ، منها :

١ - أنه متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب ، قال الله تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

٢ - لو كان القرآن محكما بالكلية لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد ، وكان

تصريحه مبطلا لكل ماسوى ذلك المذهب ، وذلك مما ينفر أرباب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه ، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملا على المحكم وعلى المتشابه ، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه مايقوى مذهبه ويؤثر مقاله ، وحينئذ ينظر فيه جميع أصحاب المذاهب ويجتهد فى التأمل فيه كل صاحب مذهب ، فإذا بالغوا فى ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات ، فبهذا الطريق يتخلص المبطل من باطله ويصل إلى الحق .

٣ — أن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل ، وحينئذ يتخلص عن ظلمة التقليد ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة .

٤ — لما كان القرآن مشتملا على المحكم والمتشابه افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض ، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه .

٥ — وهو السبب الأقوى فى هذا الباب - أن القرآن كتاب اشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية ، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمر عن إدراك الحقائق ، فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه ظن أن هذا عدم ونفى فوقع فى التعطيل ، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب مايتوهمونه ويتخيلونه ، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح ، فالقسم الأول وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر يكون من باب المتشابهات ، والقسم الثانى وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر هو المحكمات .

وذكر الإمام محمد عبده فى ذلك فوائد ثلاثا ، ذكرها الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار .

أولا : أن الله أنزل المتشابه ليمتحن قلوبنا فى التصديق به ، فإنه لو كان كل ماورد فى الكتاب معقولا واضحا لاشبهة فيه عند أحد من الأذكياء ولامن

البداء لما كان فى الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم لرسله.

ثانيا : جعل الله المتشابه فى القرآن حافزاً لعقل المؤمن إلى النظر كيلا يضعف فيموت، فإن السهل الجلى جدا لاعمل للعقل فيه . والدين أعز شيء على الإنسان، فإذا لم يجد فيه مجالا للبحث يموت فيه، وإذا مات فيه لايكون حياً بغيره، فالعقل شى واحد إذا قوى فى شيء قوى فى كل شيء ، وإذا ضعف ضعف فى كل شيء ، ولذلك قال « والراسخون فى العلم » ولم يقل: والراسخون فى الدين؛ لأن العلم أعم وأشمل ؛ فمن رحمته تعالى أن جعل فى الدين مجالا لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه فهو يبحث أولا فى تميز المتشابه من غيره ، وذلك يستلزم البحث فى الأدلة الكونية والبراهين العقلية وطرق الخطاب ووجوه الدلالة ليصل إلى فهمه ويهتدى إلى تأويله ، وهذا الوجه لايأتى إلا على قول من عطف « والراسخون » على لفظ الجلالة وليكن كذلك .

ثالثا : أن الأنبياء بعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس وخاصتهم ، سواء كانت بعثتهم لأقوامهم خاصة كالأنبياء السالفين عليهم السلام ، أو لجميع البشر كنبينا صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا كانت الدعوة إلى الدين موجهة إلى العالم والجاهل والذكى والبليد والمرأة والخادم، وكان من المعانى ما يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه كل مخاطب عاميا كان أو خاصيا ، ألا يكون فى ذلك من المعانى العالية والحكم الدقيقة مايفهمه الخاصة ولو بطريق الكناية والتعريض ، ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله تعالى والوقوف عند حد المحكم، فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده ، مثال ذلك : إطلاق لفظ كلمة الله وروح من الله على عيسى؛ فالخاصة يفهمون من هذا مالا تفهمه العامة ، ولذلك فتن النصارى بمثل هذا التعبير، إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه واستحالة أن يكون لله جنس أو أم أو ولد ، والمحكم عندنا فى هذا قوله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » وسيأتى فى هذه السورة . أقول وعندهم مثل قول المسيح فى إنجيل يوحنا «وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته» .

وقوله تعالى « فأما الذين فى قلوبهم زيغ » أى ميل عن الحق كالمبتدعة « فيتبعون ماتشابه منه » أى فيتبعون بظاهره أو بتأويل باطل « ابتغاء الفتنة » أى طلب أن يفتنوا النـاس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه « وابتغاء تأويله » أى وطلب أن يؤولوه على مايشتهونه « ومايعلم تأويله » أى الذى يجب أن يحمل عليه « إلا الله والراسخون فى العلم » أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ، وسئل مالك بن أنس عن «الراسخين فى العلم » فقال العالم العامل بمـا علم المتبع ، وقال غيره :هو من وجد فى علمه أربعة أشياء : التقوى بينه وبين الله ، والتواضع بينه وبين الخلق ، والزهد بينه وبين الدنيا ، والمجاهدة بينه وبين نفسه . . هذا وقد اختلف العلماء فى نظم هذه الآية فقال قوم : الواو فى قوله والرسخون واو العطف ، أى أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون فى العلم ، وهو مع علمهم « يقولون آمنا به » وهذا قول مجاهد والربيع ،وعلى هذا يكون قوله: يقولون، حالا معناه والراسخون فى العلم قائلين آمنا به ، وذهب الأكثرون إلى أن الواو فى قوله « والراسخون » واواستئناف وقد تم الكلام عند قوله « وما يعلم تأويله إلا الله » وهو قول أبى ابن كعب وعائشة وغيرهما ، وقالوا: لايعلم تأويل المتشابه إلاالله، ويجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه لم يطلع عليه أحدا من خلقه ،كما استأثر بعلم الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى عليه السلام ، والخلق متعبدون فى المتشابه بالإيمان به ، وفى المحكم بالإيمان به والعمل ، وقال عمر بن عبد العزيز فى هذه الآية : انتهى علم الراسخون فى العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا آمنا به ، قال فى الكشاف : والأول هو الأوجه ، ومع هذا فالوجه هو الثانى ، لأنه أشبه بظاهر الآية ، ويدل له وجوه :

أحدها: أنه ذم طالب المتشابه بقوله تعالى « فأما الذين فى قلوبهم زيغ » الآية .

وثانيها : أنه مدح الراسخين فى العلم بأنهم يقولون آمنا وقال فى أول البقرة « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » فهؤلاء الراسخون لو كانوا

عالمين بتأويل المتشابه على التفصيل لما كان لهم فى الإيمان به مدح ، لأن كل من عرف شيئا على سبيل التفصيل فلا بد أن يؤمن به .

وثالثها : لو كان قوله « والراسخون » معطوفا لصار قوله « يقولون آمنا به » ابتداء وهو بعيد عن الفصاحة ، وكان الأولى أن يقال « وهم يقولون » .

هذا ولفظ التأويل يكون للمحكم كما يكون للمتشابه كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك ، وهم يعلمون معنى المحكم ، فكذلك معنى المتشابه ، وأى فضيلة فى المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه والمحكم أفضل منه وقد بين معناه لعباده ، فأى فضيلة فى المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل خطابا ولم يذكر فى القرآن آية تدل على وقت الساعة ، ونحن نعلم أن الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها ، وإنما النزاع فى كلام أنزله وأخبر أنه هدى وبيان وشفاء وأمر بتدبره ، ثم يقال : إن منه مالا يعرف معناه إلا الله ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذى لا يعرف أحد معناه ، ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه ، ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران ، وقد احتجوا بقوله : إنا ، ونحن : وبقوله « كلمة منه وروح منه » وهذا قد اتفق المسلمون على معرفة معناه ، فكيف يقال إن المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة ولا الأنبياء ولا أحد من السلف ، وهو من كلام الله الذى أنزله إلينا وأمرنا أن نتدبره ونعقله ، وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء ونور ، وليس المراد من الكلام إلا معانيه ، ولولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له ، وقد قال الحسن : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا أنزلت وماذا عنى بها . . ومن قال : إن سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم فى (ألم) بحساب الجمل فهذا نقل باطل ، أما أولا : فلأنه رواية الكلبى ، وأما ثانيا : فهذا قد قيل إنهم قالوه فى أول مقدم النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وسورة آل عمران إنما نزل صدرها متأخراً لما قدم وفد نجران بالنقل المستفيض المتواتر وفيها فرض الحج ، وإنما فرض سنة تسع أو عشر ، ولم يفرض فى أول الهجرة باتفاق المسلمين ،

وأما ثالثا : فلأن حروف المعجم ودلالة الحرف على بقاء هذه الأمة ليس هو من تأويل القرآن الذى استأثر الله بعلمه ، بل إما أن يقال : إنه ليس مما أراده الله بكلامه فلا يقال : إنه انفرد بعلمه ، بل دعوى دلالة الحروف على ذلك باطل، وإما أن يقال: بل يدل عليه وقدعلم بعض الناس مايدل عليه وحينئذ فقد علم الناس ذلك ، أما دعوى دلالة القرآن على ذلك وأن أحدا لا يعلمه ، فهذا هو الباطل ، وأيضا فإذا كانت الأمور العلميـة التى أخبر الله بها فى القرآن لا يعرفها الرسول كان هذا من أعظم قدح الملاحدة فيه ، وكان حجة لما يقولونه من أنه كان لا يعرف الأمور العلمية ، أو أنه كان يعرفها ولم يبينها ، بل هذا القول يقتضى أنه لم يكن يعلمها، فإن مالا يعلمه إلا الله لا يعلمه النبى ولا غيره .

وبالجملة فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول: إن فى القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره ، نعم قد يكون فى القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلا عن غيرهم ، وليس ذلك فى آية معينة بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا وذلك ، تارة يكون لغرابة اللفظ ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره ، وتارة لشبهة فى نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق ، وتارة لعدم التدبر التام ، وتارة لغير ذلك من الأسباب « كلٌّ » أى من المحكم والمتشابه « من عند ربنا » معناه أنهم آمنوا بما عرفوا تفصيله وبما لم يعرفوا تفصيله، ولو كانوا عالمين بالتفصيل فى الكل لم يبق لهذا الكلام فائدة .

ونقل عن ابن عباس أنه قال : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير لا يسع أحداً جهله ، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها ، وتفسير يعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى .

وسئل مالك بن أنس عن قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» فقال: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة والفائدة فى لفظ « عند » ولو قال : كل من ربنا لحصل المقصود ـ أن الإيمان بالمتشابه يحتاج فيه إلى مزيد التأكيد « وما يذكر » أى لا يتعظ بما فى القرآن « إلا أولو الألباب » أى أصحاب العقول .

ووجه اتصال هذه الآية وأولها « هو الذى أنزل عليك الكتاب » بما قبلها وأولها « هو الذى يصوركم فى الأرحام » أنه لما بين أنه قيوم وهو القائم بمصالح الخلق ، والمصالح قسمان : جسمانى وروحانى ؛ فالجسمانى أشرفها تعديل البنية على أحسن شكل وهو المراد بقوله تعالى «هوالذى يصوركم فى الأرحام» ، وأما الروحانى فأشرفها العلم وهو المراد بقوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب » ولما حكى سبحانه وتعالى عن الراسخين فى العلم أنهم يقولون : آمنا به ، حكى أنهم يقولون « ربنا لا تزغ » أى لا تمل « قلوبنا » عن طريق الحق إلى اتباع المتشابه . قال عليه الصلاة والسلام : قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقام القلب على الحق وإن شاء أزاحه عنه ، رواه الشيخان وغيرهما ، وقيل: لا تبلينا ببلايا تزغ فيها قلوبنا ، وعلى هذا اقتصر الزمخشرى بأن ما ذكر كناية أو مجاز ، إذ لا يحسن من الله الإزاغة ، ليسأل نفيها ، وهذا بناء على مذهبه ، وأما مذهب أهل السنة فالزيغ والهداية خلق الله تعالى ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك ، وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل القلب كريشة فى صحراء تقلبها الرياح ظهرها وبطنها « وهب لنا » أى أعطانا « من لدنك » أى من عندك « رحمة » أى توفيقا وتثبيتا للذى نحن عليه من الإيمان والهدى أو مغفرة للذنوب « إنك أنت الوهاب » لكل سائل ، وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله تعالى وأنه متفضل بما ينعم على عباده ، لا يجب عليه شىء « ربنا إنك جامع الناس » أى تجمعهم « ليوم » أى فى يوم « لاريب فيه » أى لاشك فى وقوعه وما فيه من الحشر والجزاء وهو يوم القيامة ، فيجازيهم بأعمالهم كما وعدت وقوله تعالى « إن الله لايخلف الميعاد » أى موعده بالبعث ، يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى وأن يكون من كلام الراسخين فيكون فيه التفات عن الخطاب ، وكأنهم لما طلبوا من ربهم الصون عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية والرحمة قالوا : ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها منقضية

وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة فإنا نعلم أنك جامع الناس للجزاء في يوم القيامة ووعدك الحق ، فمن زاغ قلبه خلد هناك فى العذاب أبد الآباد، ومن وفقته وهديته ورحمته بقى هناك فى السعادة والكرامة أبدا .

هذا وقد احتج جماعة بهذه الآية على القطع بوقوع وعيد الفساق ، قالوا: لأن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد لقوله تعالى « قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا » والوعد والميعاد واحد ، وقد أخبر فى هذه الآية أنه لايخلف الميعاد .. ويرد عليهم بأنا لانسلم القول بالقطع بوقوع وعيد الفساق مطلقا، بل ذلك مشروط بعدم العفو كما هو مشروط بعدم التوبة بالاتفاق، ولو سلمنا أنه توعدهم فإنا لا نسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد ، ويكون قوله « فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا » كقوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » وكقوله تعالى « ذق إنك أنت العزيز الكريم » فتكون من باب التهكم .

١٠ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ .

١١ — كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

١٢ — قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ .

فى الآيات السابقة تحدث الكتاب المجيد ، والذكر الحكيم ، عن الله وصفاته وتمجيده ، وعن القرآن ورسالته ، والكتب السماوية وهدايتها ، وحذر الكافرين وأنذرهم عذاب الله الشديد ، وانتقامه المروع ، وبصرهم ، بعلم الله النافذ وقدرته الكاملة الشاملة ، وتصويره للبشر فى الأرحام كيف يشاء ، وأفاض فى آيات القرآن وأن منها آيات محكمات ، وأخر متشابهات ، وطلب الملحدين والزائغين للآيات المتشابهة يصرفونها عن وجوهها ، وتسليم الراسخين فى العلم وإيمانهم بالمحكم والمتشابه من آيات القرآن عن يقين وإخلاص

وبعد أن تحدث عن هؤلاء الراسخين فى العلم والإيمان ، عاد إلى الكفار وحديثهم فى قوة وروعة وشدة تأثير ، وذلك فى هذه الآيات الثلاث .

يقول الله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » ، وهذه الآية وما قبلها فى تقرير التوحيد ، سواء كان ردا على نصارى نجران أو كان كلاما مستقلا ، فإن التوحيد لما كان أهم ركن للإسلام ، كان مما تعرف البلاغة أن يبدأ بتقرير الحق فى نفسه ، ثم يؤتى ببيان حال أهل المناكرة والجحود ومناشىء اغترارهم بالباطل ، وأسباب استغنائهم عن ذلك الحق أو اشتغالهم عنه ، وأهمها الأموال والأولاد ، فهى تنبئهم هنا بأنها لا تغنى عنهم فى ذلك اليوم الذى لا ريب فيه ، إذ يجمع الله فيه الناس ويحاسبهم بما عملوا . بل ولا فى أيام الدنيا ، لأن أهل الحق لا بد أن يغلبوهم على أمرهم ، وما أحوج الكافرين إلى هذا التذكير . إن الجحود إنما يقع من الناس للغرور بأنفسهم وتوهمهم الاستغناء عن الحق ، فإن صاحب القوة والجاه إذا وعظ بالدين عند هضم حق من الحقوق لا يؤثر فيه الوعظ ، ولكنه إذا رأى أن الحق له واحتاج إلى الاحتجاج عليه بالدين فإنه ينقلب واعظاً بعد أن كان جاحداً ، فهم لظلمة بصيرتهم وغرورهم بما أوتوا من مال وولد وجاه يتبعون الهوى فى الدين فى كل حال . ومعنى « تغنى » تنفع وتجدى ، فإنهم إذا تمادوا على باطلهم يغلبون على أمرهم فى الدنيا ويعذبون فى الآخرة « وأولئك هم وقود النار » الوقود بالفتح ما توقد به النار من حطب ونحوه ، أى أنهم سبب وجود نار الآخرة ، كما أن الوقود سبب وجود النار فى الدنيا ، أو أنهم مما توقد به النار . بين الله تعالى فى هذه الآية ـ الأولى ـ أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا وإذا تعذر على الكافر الانتفاع بالمال والولد وهما أقرب الطرق فما عداه بالتعذر أولى ، ونظيره « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » وأما الثانى من أسباب كمال العذاب وهو اجتماع الأسباب المؤلمة ، فهو المراد بقوله تعالى « وأولئك هم وقود النار » ، وهذا هو النهاية فى العذاب ، فإنه لا عذاب أعظم من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها فى الحطب اليابس .

أما الآية الثانية من هذه الآيات الثلاث فقد ضرب الله عز وجل فيها المثل قويا لهؤلاء الكافرين ، فقال : «كدأب آل فرعون» أى دأبهم فى ذلك كدأب آل فرعون ، ويجوز أن يكون متصلا بما قبله ، أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك ، أو توقد النار بهم كما توقد النار بآل فرعون .

وقوله تعالى «والذين من قبلهم» عطف على آل فرعون ، وقيل إنه كلام مستأنف ؛ وقوله تعالى «كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب» فيه تأويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة .

ولما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق قينقاع وقال: يامعشر اليهود ، احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش يوم بدر ، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، فقالوا : يامحمد لايغرنك أنك لقيت أقواما أغماراً جهالا لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة ، وإنا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس فنزل «قل» يا محمد «للذين كفروا ستغلبون» فى الدنيا بالقتل والأسر وضرب الجزية ، وقد وقع ذلك بقتل قريظة وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر ، وضرب الجزية على من عداهم «وتحشرون» فى الآخرة «إلى جهنم وبئس المهاد» أى الفراش ، والمخصوص بالذم محذوف أى بئس المهاد جهنم ، وفى هذه الآية إخبار عن أمر يحصل فى المستقبل ، وقد وقع خبره على موافقته ، فكان هذا إخباراً بالغيب فكان معجزة ، ولهذا لما نزلت هذه الآية قال لهم صلى الله عليه وسلم : إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم .

فى هذه الآيات الثلاث إنذار للكافرين وتحذير لهم وبيان لسوء مصيرهم فى الدنيا والآخرة ، وأنهم لن يعصمهم من الله أموالهم ولا أولادهم ، ولن تدفع عنهم شيئا ما ، صغيرا أو كبيرا . ولن تنفعهم أية منفعة قليلة ، فما بالك بالكثيرة ؟ وفى الآخرة سيلقون فى جهنم حصب النار وحطامها ووقودها .. والكافر : كل من كفر بالله ووجوده وقدرته وبرسالاته إلى الناس ، وخاصة

برسالة محمد خاتم النبيين صلوات الله عليه .. وبعبارة أخرى : هو كل من جحد رسالة محمد فلم يؤمن بها ولم يعمل بما فيها ، وهى خاتمة الرسالات .. ولا شك أن هؤلاء جديرون بهذا العذاب؛ لأنهم لم يؤمنوا بعقيدة خاتم الرسل ولا بدين الإنسانية الكاملة المهذبة ، ولا بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه .. وهم قد وقفوا فى سبيل التطور ، وناصروا الجمود والرجعية والجهل والشرك والوثنية ، وحالوا بين الناس وبين المبادىء المثلى ، ودين القيمة .. ومثل الله عز وجل صنيعهم فى محاربة الإسلام بصنيع آل فرعون فى محاربة رسالة موسى ، وآل الرجل : أهله أو قومه ، والمعنى الأخيرهو الأوضح هنا .. يريد الله عز وجل أن صنيعهم فى محاربة الإسلام ورسوله كصنيع فرعون وقومه فى محاربة رسالة موسى ، وكصنيع الكافرين من قبل فرعون ممن كذبوا بآيات الله ، فأهلكهم الله وأبادهم وأخذهم بذنوبهم ؛ والله شديد العقاب .

١٣ — قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ .

آية جليلة ترشد إلى موضع العبرة ، ومكان القدوة ، وإلى قدرة الله القادرة على نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين .. يقول الله تعالى : قد كان لكم أيها المؤمنون آية وعظة فى نصر الله للمسلمين يوم بدر . . أو قد كان لكم أيها الكافرون آية فى خذلان الله للمشركين يوم بدر ، وقيل : إن الخطاب لليهود الذين كان الخطاب موجها إليهم فى الآية السابقة .

يقول تعالى:قل يا محمد للمغرورين بأموالهم وأولادهم ، وبأعوانهم وأنصارهم: لا تغرنكم كثرة العدد ، ولا بما يأتى به المال من العدد ، ولا تحسبوا أن هذا هو السبب ، الذى يقضى إلى النصر والغلب ، فإن فى الاعتبار ببعض حوادث الزمان ، أوضح آية على بطلان ذلك . فذكر الفئتين أى الطائفتين اللتين التقتا

فى القتال ، هو من قبيل المثال ، والجمهور على أن الآية هى ما كان فى وقعة بدر . ويحتمل أن تكون إشارة إلى وقائع أخرى قبل الإسلام إذا كان الخطاب لليهود ، فإن فى كتبهم مثل هذه العبرة كقصة طالوت وجالوت ، ويرجح الأول إذا كان الخطاب لمشركى العرب وثبت أن نزول الآية كان بعد وقعة بدر . وقد كانت الفئة الكافرة فى بدر ثلاثة اضعاف المسلمة ويصح أن يكونوا مع ذلك رأوهم مثليهم فقط ؛ لأن الله قللهم فى أعينهم كما ورد فى سورة الأنفال ، وهذا على القول بأن الرائين هم الفئة التى تقاتل فى سبيل الله وهى المؤمنة ، وأن المرئيين هم الفئة الكافرة وعليه الجمهور ، وقيل : إن الرائين والمرئيين هم المقاتلون فى سبيل الله ، فالمعنى أنهم يرون أنفسهم مثلى ما هم عليه عدداً ، وقيل : إن الرائين هم الكافرون والمرئيين هم المؤمنون ، أى أن الكافرين يرون المؤمنين على قلتهم مثليهم فى العدد لما وقع فى قلوبهم من الرعب والخوف. وقد حاول من قال بهذا تطبيقه على قوله تعالى فى خطاب أهل بدر « وإذ يريكموهم إذا التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور » ، فقال : إن المؤمنين قللوا فى أعين المشركين أولا فتجرءوا عليهم ، فلما التقوا كثرهم الله فى أعينهم .

وقوله تعالى « فى فئتين » أى فرقتين « التقتا » أى يوم بدر « فئة » مؤمنة « تقاتل فى سبيل الله » أى طاعته وهم النبى وأصحابه رضى الله تعالى عنهم وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الأنصار ، وصاحب راية المهاجرين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان ، فرس للمقداد بن عمرو ، وفرس لمرثد بن أبى مرثد « و » فئة « أخرى كافرة » تقاتل فى سبيل الشيطان ، وهم مشركو مكة .

وقوله تعالى « يرونهم مثليهم » قرأ نافع « ترونهم » بالتاء على الخطاب أى يرى المؤمنون المشركين مثلى المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا إليهم ويوقنوا بالنصر الذى وعدهم به فى قوله « إن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين »

بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة فى قوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » أما على قراءة « يرونهم » فقد سبق معناها ، والمراد منها يرى المشركون المؤمنين مثلى عدد المشركين وكانوا تسعمائة وخمسين أو مثلى عدد المسلمين وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر .

وقوله تعالى « رأى » أى فى رأى « العين » أى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، معاينة كسائر المعاينات ، وقد نصرهم الله تعالى مع قلتهم « والله يؤيد » أى يقوى « بنصره من يشاء » نصره ، كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى عين العدو « إن فى ذلك » المذكور « لعبرة » أى عظة « لأولى الأبصار » أى لذوى البصائر ، أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنوا .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى البخارى فى غزوة بدر ، يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ، أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول كما قال قوم موسى « اذهب أنت وربك فقاتلا » ، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره . وعن البراء رضى الله عنه قال : كان عدة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ممن شهد بدرا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر بضعة عشر وثلثمائة ، قال البراء : لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن ، وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ينظر ما صنع أبو جهل ؛ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد ، قال : أأنت أبو جهل ؟ فأخذ بلحيته قال : وهل فوق رجل قتلتموه أو رجل قتله قومه ؟ . وعن أبى طلحة رضى الله عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوى[1] من أطواء بدر خبيث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى وتبعه

(١) هو البئر المطوية أى المبنية بالحجارة .

أصحابه ، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الركى[١] فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فقال عمر يارسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . وعن رفاعة بن رافع ـ وكان ممن شهد بدرا ـ قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ، ماتعدون أهل بدر فيكم؟ قال من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها ، قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب . وعن الزبير رضى الله عنه قال : لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه ، فحملت عليه بالعنزة فطعنته فى عينه فمات ، قال : لقد وضعت رجلى عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها ، فسأله إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياها ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها ثم طلبها أبو بكر فأعطاه إياها ، فلما قبض أبو بكر سألها إياه عمر فأعطاه إياها ، فلما قبض عمر أخذها ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها . فلما قتل عثمان وقعت عند آل على فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل . وعن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه قال : بينا أنا واقف فى الصف يوم بدر نظرت عن يمينى وعن شمالى، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت أن أكون بين أصلح منهما ، فغمزنى أحدهما فقال : ياعم هل تعرف أبا جهل ؟ قلت : نعم ، ما حاجتك إليه يا ابن أخى ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخر فقال لى مثلها ، فلم أنشب أن نظرت

(١) أى البئر .

إلى أبى جهل يجول فى الناس ، فقلت : لا أإن هذا صاحبكما الذى سألتمانى ؛ فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فقال : أيكما قتله ؟ قال كل واحد منهما : أنا قتلته ، قال : هل مسحتما سيفيكما ؟ قالا : لا . فنظر فى السيفين فقال : كلاكما قتله ، فأعطى سلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، وكانا معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح .

وتتلخص غزوة بدر فى أن المسلمين لما استقروا فى المدينة بعد الهجرة ، كانت نار البغضاء للإسلام ولهم تعتمل فى صدور أهل مكة ، وجهد المشركون فى خلق الاضطرابات فى صفوف المسلمين بالمدينة ، وكان لعبد الله بن أبى ابن سلول اليهودى نفوذ كبير فيها قبل الهجرة ، حتى إن المدنيين فكروا قبل الهجرة فى تنصيبه ملكا عليهم ، فحنق على الرسول وعلى المسلمين ، ولذلك استعدته قريش عليهم ، ولكن كان أغلب قبيلته قد دخل الإسلام ، فتعذر عليه مقاومة الرسول وأصحابه .

وأخذت قريش تحرض العرب القاطنين بين مكة والمدينة ؛ فأخذ المسلمون فى الحيطة والحذر .

وأغارت بعض سرايا قريش على إبل كانت ترعى فى مراعى المدينة ، وأخذوا يتجهزون للإغارة عليها ، ونزل الوحى بإباحة القتال للدفاع عن النفس ، وأخذت حركات الاستطلاع من جانب المسلمين تتوالى لتنظيم الدفاع عن المدينة ، وتحالف المسلمون مع قبائل عديدة تقيم بين مكة والمدينة للوقوف بجانب المسلمين إذا هاجمهم معتد أثيم .

وبعث رسول الله عبد الله بن جحش فى جمادى الثانية من السنة الثانية من الهجرة ، ومعه جماعة من المهاجرين ، ونزل فى نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا ، ومرت به هناك عير لقريش ، فهاجموها وقتلوا عبد الله ابن حضرمى ، وأسروا أسيرين ، وعادوا بهما للرسول ، وثارت قريش ، وأخذت تؤلب القبائل على الرسول والمسلمين ، وتستعد للحرب والهجوم على

المدينة فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، ووقعت فى هذا التاريخ تلك المعركة الكبرى التى عرفت فى تاريخ الإسلام بغزوة بدر الكبرى .

وفكر المسلمون فى مهاجمة قافلة تجارية بقيادة أبى سفيان ،كانت قادمة من الشام إلى مكة ، ولكن القافلة نجت من الهجوم عليها ، وكان السبب الأول فى معركة بدر رغبة قريش فى إبادة المسلمين ، وكان السبب المباشر فيها مقتل عبد الله بن حضرمى ، وكانت قوة المسلمين فى المعركة ٣٨٣ مقاتلا ، وقوة قريش ٩٥٠ مقاتلا ، معهم أسلحة موفورة ومائة فرس ، ولما تعرضت المدينة لهذا الهجوم العسكرى المسلح ، جمع الرسول أصحابه واستشارهم فى خطط الدفاع ، فقال لهم النبى : أشيروا على أيها الناس ، وكان يقصد الأنصار ، فقال رئيسهم وصاحب رأيهم : « لقد آمنا بك وصدقناك .وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .. وهكذا عزم الرسول على الدفاع عن المدينة خارج المدينة ، فخرج ومعه المسلمون حتى وصل « بدرا » ، وهى بئر هناك فى الطريق بين مكة والمدينة قرب المدينة ، فوجد القرشيين قد عسكروا هناك ، فعسكر انتظارا لبدء القتال ، وكان جيش المسلمين ثلث جيش الأعداء ، وكان المسلمون عزلا من السلاح ، ولم يكن فيهم إلا فارسان ، وفى بدء المعركة أخذ الرسول يناجى ربه ويقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الأرض أبدا ، وجعل يردد : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .. واحتدمت المعركة وخر رؤوس الشرك صرعى ، وولت قريش الأدبار ، وقتل من صناديدها سبعون رجلا ، وأسر منهم سبعون ، ولم يقتل من المسلمين غير أربعة عشر قتيلا فقط .

وكان هذا النصر الكبير إيذانا بظهور القومية الإسلامية الكبرى ، وعاملا مهما فى رفع شأن المسلمين ، ومساندة لقوة الإسلام التى استمرت فى زحفها بعد ذلك دون أن تقف أو تهزم أبدا ، بل لقد كانت معجزة ضخمة ، ونصرا إلهيا عظيما ، وعونا من الله للرسول الأكرم ، وتأييدا من السماء ما بعده من تأييد ، وصدق الله العظيم حين يقول : « لقد كان لكم آية فى فئتين التقتا .. الخ » .

١٤ — زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ .

١٥ — قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ .

١٦ — ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ .

١٧ — ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ .

أربع آيات كريمة فيها تحليل رائع لصفات فريقين من الناس ، فريق شغلته لذاته من متاع الحياة الدنيا ، وفريق شغلته عقيدته وإيمانه بالله عن كل ماعداه .

ويقول الشيخ رشيد رضا فى الآية الأولى : إنه لاتصال هـذه الآية بما قبلها وجوه : أحدها مبنى على القول بأن بضعا وثمانين آية من أول هذه السورة نزلت فى وفد نصارى نجران . روى أصحاب السير أن هذا الوفد كان ستين راكبا ،

وأنهم دخلوا المسجد النبوى وعليهم ثياب موشاة وأردية الحرير، وفى أصابعهم خواتم الذهب وطفقوا يصلون صلاتهم، فأراد الناس منعهم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : دعوهم . ثم عرضوا هديتهم عليه، وهى بسط فيها تصاوير ومسوح فقبل المسوح دون البسط . ولما رأى فقراء المسلمين ما على هؤلاء من الزينة، تشوفت نفوسهم إلى الدنيا، فنزلت الآية . ويروى أن رئيس وفد نجران ذكر فى حديثه مع النبى صلى الله عليه وسلم، أنه يمنعه من الاعتراف بأنه هو النبى المبشر به، وبصدقه ، أن هرقل ملك الروم أكرم مثواه ومتعه، وأنه يسلبه ما أعطاه من مال وجاه إذا هو آمن ، فبين تعالى أن ما زين للناس من حب الشهوات حتى صرفهم عن الحق لاخير فيه . وقال الرازى روينا أن أبا حارثة ابن علقمة النصرانى، اعترف لأخيه بأنه يعرف صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله، إلا أنه لايقر بذلك خوفا من أن يأخذ منه ملوك الروم المال والجاه . ولما دعا عليه الصلاة والسلام اليهود إلى الإسلام بعد غزوة بدر أظهروا من أنفسهم القوة والشدة والاستظهار بالمال والسلاح، فبين فى هذه الآية أن هذه الأشياء وغيرها من متاع الدنيا باطلة، وأن الآخرة خير وأبقى .

وقوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات » الناس هنا هم المكلفون لأن الكلام فى إرشادهم، والشهوات جمع شهوة وهى انفعال النفس بالشعور بالحاجة إلى ما تستلذه، والمراد بها هنا المشتهيات على طريق المبالغة . يقال: هذا الطعام شهوة فلان أى مشتهاه . ومعنى تزيين حبها لهم أن حبها مستحسن عندهم لايرون فيه شيئاً ولا غضاضة ، وقد يحب الإنسان الشىء وهو يراه من الشين لا من الزين، ومن الضار لا من النافع، ويود لذلك لو لم يكن يحبه .

وبين الله تعالى المشتهيات التى يحبها الناس، وحبها مزين لهم وله مكانة من نفوسهم بقوله « من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » فهذه ستة أنواع :

١ — النساء وحبهن لايعلوه حب لشىء آخر من متاع الحياة الدنيا ، فهن مطمح

النظر ، وموضع الرغبة ، وسكن النفس ومنتهى الأنس ، وعليهن ينفق أكثر مايكسب الرجال فى كدهم وكدحهم، فكم افتقر فى حبهن غنى، وكم استغنى بالسعى للحظوة عندهن فقير، وكم ذل بعشقهن عزيز ، وكم ارتفع فى طلب قربهن وضيع.

٢ — حب البنين أى الأولاد ، فاكتفى بذكر ما كان حبه أقوى والفتنة به أعظم ، وحب الأولاد يكاد يكون كحب النفس، لاعلة له غير ذاته إلا أن نقول: إن عاطفة رحمة الوالدين بالولد منذ يولد هى غير عاطفة حبهما له وهى علته . ولكن حكمة الخالق فى حب الزوجية وحب الولد واحدة ، وهى تسلسل النسل وبقاء النوع ، وهى حكمة مطردة فى غير الناس من الأحياء .

٣ — حب المال من الذهب والفضة ، وحب المال مودع فى الغرائز وعلته أن المال وسيلة إلى الرغائب ، وموصل إلى الشهوات واللذائذ ، ورغائب الإنسان غير محدودة ، وأفراد لذائذه غير معدودة ، فهو لاستعداده الذى لا منتهى له يطلب الوسائل إلى رغائب لا منتهى لها ، وهذه الرغائب يتولد بعضها من بعض .

والتعبير بالقناطير المقنطرة يشعر بأن الكثرة هى التى تكون مظنة الافتتان ، لأنها تشغل بالتمتع بها القلب ، وتستغرق فى تدبيرها الوقت ، حتى لا يكاد يبقى فى قلب صاحبها منفذ للشعور بالحاجة إلى غيرها من طلب الحق ونصرته فى الدنيا ، والاستعداد لما أعده الله للمتقين فى الآخرى ، وما بعث الله رسولا فى أمة ، ولا مصلحاً فى قوم ، إلا وكان الأغنياء أول من كفر وعاند وأبى واستكبر.

٤ — الخيل المسومة ، وذهب بعضهم إلى أن الخيل المسومة هى الراعية، وهو مروى عن ابن عباس ، وقيل هى المطهمة الحسان ، أو المعلمة بالألوان والشيات ، وقيل : المرسلة على القوم .

٥ — حب الأنعام .　　٦ — حب الحرث .

قال تعالى : « المقنطرة » أى المجمعة ، وقال السدى : المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير « من الذهب والفضة » قيل : سمى الذهب ذهباً

لأنه يذهب ولا يبق ، والفضة فضة لأنها تنفض أى تتفرق « والخيل المسومة » أى الحسان ، وقال سعيد بن جبير : هى الراعية . يقال : أسام الخيل ويسومها « والأنعام » جمع النعم ، وهى الإبل والبقر والغنم « والحرث » أى الزرع والنبات والشجر « ذلك » أى ما ذكر من النساء وما بعده « متاع الحياة الدنيا » أى يتمتع به فيها ثم يفنى « والله عنده حسن المآب » أى المرجع وهو الجنة . فينبغى الرغبة فيما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية دون غيره من الشهوات الناقصة ، وهى فى غاية الحسن، أما النار فهى خالية عن الحسن كما قال تعالى « إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا » « قل » يا محمد لقومك « أؤنبئكم » أى أخبركم « بخير من ذلكم » أى المذكور من الشهوات ، وهذا الاستفهام تقرير وقوله تعالى : « للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » أى مقدرين الخلود فيها إذا دخلوها « وأزواج مطهرة » من الحيض وغيره مما يستقذر من النساء .

يروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم . فيقولون : مالنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : ياربنا وأى شىء أفضل من ذلك ، يقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا . وقد نبه الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية على نعمه التى كان أدناها متاع الحياة الدنيا ، وأعلاها رضوان الله لقوله تعالى : « ورضوان من الله » وأوسطها الجنة ونعيمها « والله بصير » أى عالم « بالعباد » أى بأعمالهم ، فيجازى كلا منهم بعمله ، أو بصير بأحوال الذين اتقوا فلذلك أعد لهم جنات ونعيما مقيما .

وقوله تعالى : « الذين » صفة للذين اتقوا أو للعباد الذين قبله « يقولون » يا « ربنا إننا آمنا » أى صدقنا « فاغفر لنا ذنوبنا » أى استر علينا وتجاوز عنا « وقنا عذاب النار » وفى ترتيب سؤال المغفرة وما عطف عليها دليل على أن

مجرد الإيمان كان فى استحقاق المغفرة ، أو الاستعداد لأسبابها ، وأسباب ما عطف عليها .

وقوله تعالى : « الصابرين » أى على الطاعة ، وعن المعصية ، وعلى البأساء والضراء « والصادقين » أى فى إيمانهم وأقوالهم ؛ وقال قتادة : هم قوم صدقت نياتهم ، واستقامت قلوبهم وألسنتهم ، فصدقوا فى السر والعلانية ، « والقانتين » أى المطيعين لله « والمنفقين » أى المتصدقين « والمستغفرين بالأسحار » أى أواخر الليل ، كأن يقول : اللهم اغفر لنا ، وخصت الأسحار بالذكر لأنها وقت الغفلة ولذة النوم ، وفى هذا كما قال البيضاوى : حصر لمقامات السالك على أحسن الترتيب ، أى الذكر ، فإن معاملته مع الله ، إما توسل ، وإما طلب والتوسل إما بالنفس ، وهو منعها من الرذائل ، وحبسها عن الفضائل ، والضمير يشملها ، وإما بالبدن ، وهو إما قولى كالصدق ، وإما فعلى وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة ، وإما بالمال وهو الإنفاق فى سبيل الخير ، وأما الطلب فبالاستغفار ؛ لأن المغفرة أعظم المطالب ، بل الجامع لها . وتوسيط الواو بين الصابرين وما بعده للدلالة على استقلال كل واحدة منها ، وكمالهم فيها . أو لإفادة التغاير للموصوفين بالصفات ، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب من الدعاء فى غيرها إلى الإجابة ، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى ، والعقل أجمع لمعانى الألفاظ التى ينطق بها ، لاسيما للمجتهد ، قيل : إنهم كانوا يصلون إلى السحر ، ثم يستغفرون ويدعون ، وعن الحسن : كانوا يصلون فى أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل الله إلى سماء الدنيا ـ أى أمره ـ كل ليلة ، حتى يبقى ثلث الليل فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؛ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، وحكى عن الحسن أن لقمان قال لابنه : يابنى لاتكن أعجز من هذا الديك يصوت فى الأسحار ، وأنت نائم على فراشك ، وعن زيد بن أسلم أنه قال : هم الذين يصلون الصبح فى جماعة ، وعبر بالسحر لقربه من الصبح

١٨ — شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

١٩ — إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

٢٠ — فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

ثلاث آيات كريمة . فيها تمجيد لله ، ولشريعة محمد « الإسلام » ، ودعوة للتمسك به ، والاهتداء بهديه ، والإسلام خاتم الشرائع ، ونهاية الرسالات ، وهو دين الإنسانية جمعاء ، دين جمع بين الواقع والمثالية ، وبين الدنيا والدين وبين الأولى والآخرة . واحتوى على أروع العبادات ، وأرفع الأصول ، وأمجد الآداب ، وأطهر الأخلاق ، ودعم بناء الأسرة والمجتمع والأمة ، وحرر الرقيق ، وكفل حقوق الضعيف ، وقلم أظافر الأقوياء ، وحطم جبروت المستكبرين والطغاة والمفسدين فى الأرض ، ونادى بوحدة الجماعة الإسلامية بل لوحدة الإنسانية جمعاء ، وهو دين الله القويم ، وطريقه المستقيم ؛ وهو شريعة الرقى والمدنية والحضارة والعلم والعرفان . وصلة هذه الآيات الثلاث بما قبلها أنه بعد ما بين الله تعالى فى الآيات السابقة جزاء المتقين ، وبين حالهم فى إيمانهم ، ومدح العاملين بأخلاق الإسلام وآدابه ، عاد الله عز وجل إلى بيان أصل الإيمان ، وذكر أسس العقيدة ، وشرح معالم الطريق المنجية من النار ، فقال عز وجل « شهد الله » الخ ، شهادة الله هنا هى من باب التمثيل والاستعارة لأن ما نصبه من الدلائل فى الآفاق ، وفى الأنفس على توحيده ، وما أوحاه إلى أنبيائه فى ذلك يشبه شهادة الشاهد بالشىء فى إظهاره وإثباته . وكذلك

شهادة الملائكة عبارة عن إقرارهم بذلك كما قال البيضاوى ، وزاد أبو السعود وإيمانهم به ، وشهادة أولى العلم عبارة عن إيمانهم به واحتجاجهم عليه . وقال بعضهم : إن الشهادة من كل بمعنى واحد ، لأنها إما عبارة عن الإخبار المقرون بالعلم ، وإما عبارة عن الإظهار والبيان ، وكل ذلك حاصل من الله والملائكة وأولى العلم ، فالله تعالى أخبر بتوحيده ملائكته ورسله عن علم وبينه لهم أتم البيان ، والملائكة أخبروا الرسل وبينوا لهم ، وأولو العلم أخبروا بذلك وبينوه عالمين به ، ولا يزالون كذلك . ويقال : شهد الشيء إذا حضره وشاهده ، كقوله تعالى « فمن شهد منكم الشهر » ، وقوله « ما شهدنا مهلك أهله » ويقال : شهد به إذا أخبر به عن مشاهدة بالبصر وهو الأكثر ، والأصل أو عن مشاهدة بالبصيرة وهى الاعتقاد والعلم ، كقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف « وما شهدنا إلا بما علمنا » وشهادة الله فى كتابه مؤيدة بالبراهين التى قرنها بها وبالآيات على صدق الرسل ، وشهادة الملائكة للأنبياء مقرونة بعلم ضرورى هو عند الأنبياء أقوى من جميع اليقينيات البديهية وبتلك الدلائل التى أمروا بأن يحتجوا بها على الناس ، وشهادة أولى العلم تقرن عادة بالدلائل والحجج لأن العالم بالشيء لا تعوزه الحجة عليه .

وقد اختلفوا فى أولى العلم فقيل : هم الصحابة ، وقيل : علماء أهل الكتاب وذهب الزمخشرى إلى أنهم المعتزلة ، والرازى إلى أنهم علماء الأصول . وهذا من عجيب الخلاف فإن أولى العلم لا يحتاجون إلى تعريف ولا تفسير ؛ فهم أصحاب العلم البرهانى القادرون على الإقناع ، وهم معروفون فى هذه الأمة وفى الأمم السابقة .

أما قوله تعالى « قائما بالقسط » فمعناه - كما يقول صاحب تفسير المنار - أنه تعالى شهد هذه الشهادة قائما بالقسط وهو العدل فى الدين والشريعة ، وفى الكون والطبيعة ، فمن الأول تقرير العدل فى الاعتقاد كالتوحيد الذى هو وسط بين التعطيل والشرك ، ومن الثانى جعل سنن الخليقة فى الأكوان والإنسان الدالة على حقية الاعتقاد قائمة على أساس العدل ؛ فمن نظر فى هذه السنن ونظامها

الدقيق يتجلى له عدل الله العام ، فالقيام بالقسط على هذا من قبيل التنبيه إلى البرهان على صدق شهادته تعالى فى الأنفس والآفاق؛ لأن وحدة النظام فى هذا العدل تدل على وحدة واضعه ، وهذا مما يفند تفسير بعضهم للشهادة بأنها عبارة عن خلق ما يدل على الوحدانية من الآيات الكونية والنفسية . كذلك كانت أحكامه تعالى فى العبادات والآداب والأعمال مبنية على أساس العدل بين القوى الروحية والبدنية وبين الناس بعضهم مع بعض ؛ فقد أمر بذكره وشكره فى الصلاة وغير الصلاة لترقية الروح وتزكيته ، وأباح الطيبات والزينة لحفظ البدن وتربيته ، ونهى عن الغلو فى الدين والإسراف فى الدنيا وذلك عين العدل ، فهذا هو القسط فى العبادات والأعمال الدنيوية . وأما القسط فى الآداب والأخلاق فهو صريح فى القرآن كصراحة الأمر بالعدل فى الأحكام .

وقوله تعالى « لا إله إلا هو » كرر للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة ، وليبنى عليه قوله تعالى « العزيز » أى فى ملكه « الحكيم » أى فى صنعه ، فيعلم أنه الموصوف بهما ، وقدم العزيز لأن العزة تلائم الوحدانية والحكمة تلائم القيام بالقسط ، فأتى بهما لتقرير الأمرين على ترتيب ذكرهما ، ورفعهما على البدل من الضمير الأول أو الثانى أو على الخبر المحذوف ، وروى عن أحد الصالحين قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش وكنت أختلف إليه ، فلما كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فى الليل يتهجد فمر بهذه الآية « شهد الله » الخ واستودع الله بهذه الشهادة وهى لى عند الله وديعة « إن الدين عند الله الإسلام » قالها مرارا ، قلت : لقد سمع فيها فصليت معه وودعته ، ثم قلت : إنى سمعتك ترددها فما بلغك فيها؟ قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة ، فمكثت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة ، قال : حدثنى أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله : إن لعبدى هذا عندى عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد ، أدخلوا عبدى الجنة . رواه الطبرانى والبيهقى لكن بسند ضعيف .

وقوله تعالى « إن الدين » المرضى «عند الله» هو «الإسلام» جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أى لا دين مرضى عند الله سوى الإسلام ، وقال تعالى : « ورضيت لكم الإسلام دينا » وقال تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، والدين فى اللغة الجزاء ، والطاعة والخضوع أى سبب الجزاء ، ويطلق على مجموع التكاليف التى يدين بها العباد لله فيكون بمعنى الملة والشرع . وقالوا : إن ما يكلف الله به العباد يسمى شرعا باعتبار وضعه وبيانه ، ويسمى دينا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع به ، ويسمى ملة باعتبار جملة التكاليف والإسلام مصدر أسلم ، وهو يأتى بمعنى خضع واستسلم وبمعنى أدى، يقال: أسلمت الشىء إلى فلان إذا أديته إليه . وبمعنى دخل فى السلم، وهو بالفتح والكسر بمعنى الصلح والسلامة، وبالتحريك الخالص من الشىء، ومنه قوله تعالى « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل » أى خالصا لا يشاركه فيه من يشاكسه . وتسمية دين الحق إسلاما يناسب كل معنى من معانى الكلمة فى اللغة ، وأظهرها آخرها فى الذكر لاسيما فى هذا المقام ، ويؤيده الآية الآتية، وقوله تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا » وقد وصف إبراهيم بالإسلام فى عدة سور ووصف غيره من النبيين بذلك . فعلم بذلك أن الحصر فى قوله « إن الدين عند الله الإسلام » يتناول جميع الملل التى جاء بها الأنبياء ، لأنه هو روحها الكلى الذى اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف وصور الأعمال فيها وبه كانوا يوصون « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب » أى من اليهود والنصارى ، وقيل: من أرباب الكتب المتقدمة فى دين الإسلام، فقال قوم: إنه حق ، وقال قوم : إنه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقا ، أو فى التوحيد فثلث النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله وقالوا : كنا أحق بأن تكون النبوة فينا من قريش لأنهم أميون ونحن أهل كتاب « إلا من بعد ما جاءهم العلم » بأن التوحيد هو الحق الذى لا محيد عنه « بغيا » أى ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهبهم إلا حسدا « بينهم » وطلبا للرياسة وقيل: هو اختلاف فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد

ما جاءهم العلم ببيان بعثته فى كتبهم حيث آمن به بعض وكفر به بعض ، وقيل : هو اختلافهم فى الإيمان بالأنبياء ، فنهم من آمن بموسى ومنهم من آمن بعيسى، ولم يؤمنوا ببقية الأنبياء .

وقوله تعالى : « ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » أى المجازاة له ، وعيد لمن كفر منهم « فإن حاجوك » أى جادلك الذين كفروا يا محمد فى الدين « فقل أسلمت وجهى لله » أى أخلصت نفسى وجملتى لله وحده ، لم أجعل فيها لغيره شريكا بأن أعبده وأدعوه إلها ، يعنى أن دينى دين التوحيد ، وهو الدين القويم الذى ثبت عندكم صحته كما ثبت عندى وما جئت بشيء مبتدع حتى تجادلونى فيه ، وخص الوجه بالذكر لشرفه ، فهو تعبير عن جملة الشخص بأشرف أجزائه الظاهرة .

وقوله تعالى : « ومن اتبعن » معطوف على التاء فى « أسلمت » وحسن ذلك للفاصل ، ويجوز كما قال فى الكشاف أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولا معه ، نظرا إلى أن المشاركة بين المتعاطفين فى مطلق الإسلام أى الإخلاص « وقل للذين أوتوا الكتاب » وهم اليهود والنصارى « والأميين » الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب « أأسلمتم » كما أسلمت أنا ؛ فقد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام أم أنتم بعد على الكفر ؟ وفى هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ؛ لأن المنصف إذا انجلت له الحجة لم يتوقف إذعانا للحق ، وقيل : المراد بالاستفهام هنا الأمر ، أى أسلموا كما قال تعالى : فهل أنتم منتهون أى انتهوا « فإن أسلموا فقد اهتدوا » أى نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال أهل الكتاب : أسلمنا ، فقال لليهود : أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله ؟ فقالوا : معاذ الله وقال للنصارى : أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله ؟ فقالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبدا ، فقال عز وجل « وإن تولوا » أى عن الإسلام لم يضروك « فإنما عليك البلاغ » أى فإنك رسول ما عليك إلا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى ، وقد بلغت وليس عليك

الهداية « والله بصير بالعباد » أى عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن فيجازى كلا منهم بعمله ، وهذا قبل الأمر بالقتال .

وهذه الآية كان سبب نزولها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو اليهود فى المدينة إلى ترك ما أحدثوه فى دينهم وما اعتادوه من التحريف والتأويل ، وإلى الرجوع إلى حقيقته ، وهى إسلام الوجه لله والإخلاص له فى كل عمل ؛ كما نطقت هذه الآيات التى ورد أنها نزلت عند مجيء وفد نصارى نجران .

هذه هى الآيات الثلاث التى تدعو إلى تمجيد الله ، والإيمان بأنه مصدر الحياة ، وسر الوجود ، ورب الكون ، وإله الناس والبشر أجمعين ؛ وتدعو كذلك إلى وجوب الإيمان برسالات السماء ، التى انتهت جميعها ، وآل ميراثها ، وعاد تراثها ، إلى الإسلام ، دين الله الخالد ، ودين الإنسانية المثلى ، ودين الحياة والعدالة والحرية والتقدم والنهضة والإخاء والمساواة ، وتدعو كذلك إلى وجوب دعوة الناس إلى الإسلام دين الله ، بالحجة والعقل والمنطق ، وإرشادهم إلى مصدر الهداية والنور ، وسر البعث واليقظة ، ومجمع الخير والفوز - إلى الإسلام ، شريعة محمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذريته أجمعين - إلى هذا النور الإلهى العظيم ، الذى انبثق من السماء ، وأضاءت شعلته الأرض ، وحمل رسالته محمد بن عبد الله ، ونشرها فى الخافقين خلفاؤه وأصحابه - إلى شريعة الإسلام المطهرة ، ودين الإنسانية الخالد ، وعقيدة الأحرار والأبرار من كل جنس ولون . وما أجل الإسلام شريعة رفيعة الأركان ، وعقيدة كتابها المنزل هو القرآن . ودينا إنسانيا عاما ، دان به المشرق والمغرب ، وسعدت به الحياة أحقابا طوالا . ولم يكن الإسلام دين رهبنة وكهانة وطلاسم ومعميات ، ورسوم وألغاز . ولكنه قبل وبعد كل شيء دين الحياة والحضارة والنهضة ، دين شعاره العمل ، ودعوته الجهاد من أجل تقدم الإنسانية ، وارتقاء الحضارة ، وأصوله الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة والسلام ، وجميع شعائره تهدف إلى خير الحياة والإنسان والمجتمعات والشعوب ، وفى كل عمل من أعماله ، وواجب من فروضه ،

تذكير بالله ، وإيقاظ للضمير ، وتمجيد للمثل العليا ، والمبادىء الكريمة ، والأخلاق الفاضلة ، والآداب المهذبة . دين يوحد بين الناس ، ويجمع بين الشعوب ، وينظر إلى البشرية كافة نظرته إلى أمة واحدة ، وجماعة متحدة ، دين يسع كل رأى ، وتحترم أصوله كل فكرة ، ويوفر لكل إنسان كرامته وحريته ، وحقوقه الطبيعية فى الحياة . كان ولا يزال ثورة عامة على الجمود والرجعية والفساد والجور والاضطهاد والاستعباد ، وشهابا ثاقبا يرمى به أعداء التقدم والرقى والإنسانية ، وخصوم الإيمان والسلام ، وأعوان الشر والظلم والظلام .

نزلت رسالته المقدسة على أشرف إنسان فى الوجود ، وفى أرض الصحراء العربية البعيدة عن الحضارة والعمران والمعرفة ، ودعى إليه — أول مادعى إليه — قوم كانوا يعيشون فى ظلمات الجاهلية الأولى وأوثانها وأباطيلها ، وبعد قليل ، حينما امتلأت نفوس المسلمين بآدابه وشريعته وأصوله وأحكامه ، إذا البركان ينفجر ، والثورة تشتعل . وهذا العربى القح الذى كان يعيش فى عزلة تامة عن الحياة ، يحمل فى يمناه الرسالة ، وفى قلبه حرارة الإيمان ، وفى روحه ثورة الحرية ، ثم يندفع ليخلص الشعوب من جور الحكام ، وليحرر العبيد من رق أبدى لا مسوغ له ، وليعلى كرامة المرأة فى الحياة ، ويعتبرها إنسانا ذا روح له إرادته وكرامته ورأيه فى المجتمع ، وليرتفع بالفقير إلى مصاف الغنى ، وبالعامل إلى مستوى صاحب العمل ، وبالفلاح والخادم وأمثالهما إلى نطاق من الكرامة الإنسانية وحق الحياة . ثم إذا هذا العربى الذى انطلق من الصحراء ، يؤثل للحضارة والمعرفة الصروح السامقة ، ويبنى للمدنية أركانا قوية ، يدعمها الفكر والعقل والروح والبدن ، وإذا هو الذى تستعز به الشعوب المغلوبة على أمرها ، لينقذها من الجور والظلام ، وإذا هو منشىء الجامعات ، ومحرر العقول ، وواضع أصول المدنية ، والداعى إلى الإنسانية الرفيعة فى كل شىء ، ثم يصير سيد الدنيا وحاكم الأرض ، ومدمر عروش

الطغاة من الملوك والقياصرة ـ الإسلام وما أعز الإسلام فى الأرض ، وأعذب لفظه فى الأفواه ، وأجمل معناه فى القلوب ، هو المعجزة الخالدة ، وخاتم الرسالات إلى الأرض ، نعم : هو دين الإنسانية الخالد ، وشريعة الله الحكيمة ، وسبب النجاة فى الدنيا والفوز والرضوان فى الآخرة .

٢١ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

٢٢ — أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ .

٢٣ — أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ .

٢٤ — ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

٢٥ — فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

هذه الآيات الخمس وردت فى شأن اليهود ، الذين كفروا بالإسلام ، بل كفروا بالتوراة ، وبدلوها ، وبدلوا صفة محمد عليه السلام فيها ، وقتلوا من قبل أنبياءهم والهداة الداعين إلى الخير فيهم ، ورفضوا الاحتكام لكتاب الله ، وزعموا أن العصاة منهم لن يعذبوا فى النار أبدا ، فالحديث فى هذه الآيات عن اليهود خاصة ، وقد نسب إليهم قتل النبيين الذى حدث من سلفهم ، لاعتبار الأمة فى تكافلها وجرى لاحقها على إثر سابقها كالشخص الواحد ، على أن

اليهود همت بقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم بذلك قومه الأميون من قبل فى مكة . ثم كان كل من الفريقين حربا له ، وهم المعتدون ، ولذلك قيل : إن الآية فيمن سبق ذكرهم من أهل الكتاب والأميين ، فكل قد سعى فى قتل الرسول وقتل الذين يأمرون بالقسط من المؤمنين به والظاهر الأول ، ، ولما فى آيات أخرى من إطلاق مثل هذا التعبير على اليهود خاصة ، ولا حاجة إلى القول بأن المراد مجموع الكافرين الذين يقتل بعضهم النبيين وبعضهم الذين يأمرون بالقسط ، فهذه الآيات انتقال إلى خطاب اليهود خاصة ، فاليهود هم الذين جروا على الكفر بآيات الله من عهد موسى إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام ، وبذلك تشهد عليهم كتبهم قبل القرآن ، وعلى قتل النبيين كزكريا ويحيى عليهما السلام . وجعل الإمام محمد عبده الحديث فى الآيات عن مشركى العرب الذين حاولوا قتل نبى واحد ، على حد كون قتل النفس الواحدة كقتل جميع الناس . وقوله تعالى « بغير حق » بيان للواقع بما يقرر بشاعته وانقطاع العذر دونه ، وإلا فإن قتل النبيين لا يكون بحق مطلقاً ـ ومعنى أنهم كفروا بآيات الله : أنهم بدلوا التوراة وما فيها من آيات تدعو إلى الإيمان برسالة محمد صلوات الله عليه ، ثم رفضوا الإيمان بها وبالقرآن رسالة السماء ، وبما فيه من آيات تدعو إلى الإيمان بمحمد رسولا ، وبكتابه الحكيم نورا سماويا هاديا ؛ وقتلهم الأنبياء ، قد سبق الإشارة إليه ، وقوله تعالى «بغير حق» يشمل الأمرين جميعا : الكفر بآيات الله ،وقتل الأنبياء ، ومعنى كون كفرهم بآيات الله بغير حق أى بغير دليل وبرهان وبغير هدى وصواب ، وبغير سبب معقول لجحد رسالات السماء . ومعنى كون قتل الأنبياء بغير حق هو ماسبق الإشارة إليه .

وقوله تعالى : « ويقتلون الذين يأمرون بالقسط » أى بالعدل «من الناس» وهؤلاء هم اليهود : قتل أولهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم ، ومن فى عصره صلى الله عليه وسلم رضوا به وقصدوا قتل النبي والمؤمنين ؛ لكن الله عصمهم ، وعن

عبيدة بن الجراح قلت يارسول الله : أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال: رجل قتل نبيا أو رجلا - أى أو قتل رجلا - أمر بمعروف ونهى عن منكر، وروى أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا ، فنهاهم مائة وسبعون من عبادهم فقتلوهم من يومهم « فبشرهم » أى أعلمهم « بعذاب أليم » أى مؤلم ، وذكر البشارة تهكم بهم « أولئك الذين حبطت أعمالهم » أى ما عملوه من خير كصدقة وصلة رحم « فى الدنيا والآخرة » فلا يعتد بها لعدم شرطها « وما لهم من ناصرين » أى مانعين عنهم العذاب « ألم تر » أى تنظر « إلى الذين أوتوا نصيبا » أى حظا « من الكتاب » أى التوراة وجنس الكتب السماوية ، و (من) للتبعيض أو البيان ، وتنكير النصيب للتعظيم ، ويحتمل أن يكون النصيب عبارة عن تمسكهم بالألفاظ بتعظيمها وتعظيم ماتكتب فيه ، مع عدم العناية بالمعانى بفقهها والعمل بها «يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم» الداعى هو محمد صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله : القرآن أو التوراة ، واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية ، روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال :دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدارس - أى موضع دراسة كتبهم - على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عز وجل، فقال له نعيم بن عمرو بن الحارث بن زيد : على أى دين أنت ؟ قال : دين إبراهيم ، فقال له : إن إبراهيم كان يهوديا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم ، فأبيا عليه ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية ، وروى عن ابن عباس أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا ، وكان فى كتبهم الرجم ، فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم ، فرفعوا أمرهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم ورجوا أن يكون عنده رخصة ، فحكم عليهما بالرجم فقال له النعمان بن أوفى وعدى بن عمرو :جرت علينا يا محمد ليس عليهما الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينى وبينكم التوراة ، قالوا قد نصفتنا ، قال فمن أعلمكم بالتوراة ؟ قالوا : رجل يقال له « عبد الله بن صوريا » فأرسلوا إليه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء من التوراة فيها الرجم مكتوب فقال له: اقرأ ، فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها على رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فقال له ابن سلام : يارسول الله قد جاوزها ، وقام فرفع كفه عنها ثم قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود بأن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما ، وإن كانت حبلى تربص حتى تضع مافى بطنها ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما فغضب اليهود وانصرفوا ، فنزلت هذه الآية « ثم يتولى فريق منهم » أتى بثم لاستبعاد قولهم مع علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله تعالى واجب لا للتراخى فى الزمان إذ لا تراخى فيه .. وقوله تعالى « وهم معرضون » أى عن قبول حكمه « ذلك » إشارة إلى ماذكر من التولى والإعراض « بأنهم قالوا » أى بسبب قولهم « لن تمسنا النار إلا أياما معدودات » أى قالوا ذلك بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الكاذب الخادع ، وهو الخروج من النار بعد أيام قليلة ، وهى أربعون يوما مدة عبادة آبائهم العجل ، ثم تزول عنهم « وغرهم فى دينهم » والغرور هو الإطماع فيما لا يحصل منه شىء « ما كانوا يفترون » أى من ادعائهم أن النار لن تمسهم إلا أياما قلائل ، أو من أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، أو أنه تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم «فكيف» أى حالهم أو فكيف صنعهم أو مصيرهم « إذا جمعناهم ليوم » أى فى يوم « لاريب » أى لاشك « فيه » وهو يوم القيامة ، وفى ذلك استعظام لما يحيق بهم فى الآخرة. روى أن أول علم يرفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود ، فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يؤمر بهم إلى النار « ووفيت كل نفس » من أهل الكتاب وغيرهم جزاء « ما عملت » أى عملت من خير أو شر ، وفى ذلك دليل على أن العبادة لا تحبط ، وأن المؤمن لا يخلد فى النار وإن دخلها ؛ لأن توفية إيمانه وعمله لا يكون فى النار ولا قبل دخولها « وهم لا يظلمون » أى بنقص حسنة أو زيادة سيئة ، وذكر ضمير « وهم لا يظلمون » وجمعه باعتبار كل نفس على المعنى لأنه فى معنى كل إنسان .

هذه هى الآيات الخمس التى تضمنت من أمور اليهود ماتضمنت ، والتى

فضح فيها القرآن الكريم هؤلاء الناس الذين كفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وافتروا على الله ، وناوأوا الرسول وأصحابه ، وسعوا فى إيذائه والفتك به .

والعهد القديم من الكتاب المقدس مملوء بذكر معاصى إسرائيل وخبثها وكذبها وعصيانها ، اقرأوا مثلا فى سفر أرميا ـ الإصحاح الثالث ـ ما نصه : « هل رأيت مافعلت العاصية إسرائيل ؟ انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء ، وزنت هناك ، فقلت بعد مافعلت كل هذا : ارجعى فلم ترجع » وفى الإصحاح الخامس والستين من سفر أشعياء مانصه : « بسطت يدى طول النهار إلى شعب متمرد ، سائر فى طريق غير صالح وراء أفكاره ، شعب يغيظنى ، يجلس فى القبور ، ويبيت فى المدافن ، يأكل لحم الخنزير ، وفى آنيته مرق لحوم نجسة » وفى الإصحاح الخامس من سفر أرميا ما نصه : « يارب فلم يتوجعوا ، أفنيتهم وأبوا قبول التأديب إلى غير ذلك مما جاء فى العهد القديم من كذب اليهود وافترائهم وعصيانهم وسفكهم للدماء وقتلهم للأنبياء وأتباعهم بغير حق .

٢٦ — قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

٢٧ — تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

آيتان جليلتان لهما روعتهما وبلاغتهما وسحرهما ، وقد اشتملتا على تصوير رائع لقدرة الله عز وجل ، وعظمته ، وجلاله وسلطانه وهيمنته ، وفيهما ما فيهما

من الإعجاز القرآنى الساحر . وقد قيل فى سبب نزول الآيتين أن الرسول وعد المسلمين بملك قيصر وكسرى بعد أن فتح مكة ، فأخذ المشركون يتندرون بالرسول صلوات الله عليه ، فنزلت الآيتان .

وروى عن قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فنزل قوله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » ، وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فى مقام بيان عناد المنكرين ومكابرة الجاحدين وتذكيره بقدرته تعالى على نصره وإعلاء كلمة دينه ؛ فالآية من هذا القبيل . وكأن الله عز وجل يقول : إذا تولى هؤلاء الجاحدون عن بيانك، ولم ينظروا فى برهانك ، وظل المشركون منهم على جهلهم ، وأهل الكتاب فى غرورهم ، فعليك أن تلجأ إلى الله تعالى وترجع إليه بالدعاء والثناء ، وتتذكر أنه بيده الأمر يفعل مايشاء ، وهذا يناسب ماتقدم فى الرد على نصارى نجران من أمره بالالتجاء إليه سبحانه بقوله « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله » كما يقول صاحب تفسير المنار ، وعلى هذا التفسير يصح أن يكون الملك بمعنى النبوة أو لازمها . ولاشك أن النبوة ملك كبير لأن سلطانها على الأجساد والأرواح ، وعلى الظاهر والباطن ، فان لم يكن هذا الملك عين النبوة فهو لازمها . ونزع الملك على هذا القول عبارة عن نزعه من الأمة التى كان يبعث فيها الأنبياء كأمة إسرائيل ؛ فقد نزعت منها النبوة ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم، ويمكن أن يفسر النزع هنا بالحرمان، فإنه تعالى يعطى النبوة من يشاء ويحرم منها من يشاء .

وقد قال أبو سفيان للعباس يوم رأى جيش المسلمين زاحفاً إلى مكة : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما : فقال العباس رضى الله عنه : كلا إنها النبوة وكان أبو سفيان يعنى أن الأمر كله تأسيس ملك ، وما كان الملك مقصوداً ، ولكنه جاء معناه والمراد منه تابعاً لا أصلا ، والفرق عظيم ، والغرض من النبوة غير الغرض من الملك ، ولذلك لم يسم الصحابة من جعلوه رئيس ملكهم ومرجع سياستهم ملكا ، بل سموه خليفة .

والمتبادر أن المراد بالملك هو السلطان والتصرف فى الأمور ، والله جل جلاله صاحب السلطان الأعلى والتصرف الكامل ، والتدبير المطلق ، فى خلقه وفى الكون جميعه ، وهو الذى يقيم ميزان النظام العام فى الوجود وفى السماء والأرض ، وكأن الآية تنطق بأن الله نزع الملك من بنى إسرائيل، وأعطاه لمحمد والعرب والمؤمنين برسالة الإسلام ، وكأنها كذلك تتضمن تأكيد الوعد بنصر الرسول وهزيمة خصومه والمناوئين له .

وقال الكلبي : تؤتى الملك لمحمد وأصحابه وتنزعه من أبى جهل وصناديد قريش ، وقيل : تؤتيه لآدم وذريته وتنزعه من إبليس وجنوده « وتعز من تشاء» من خلقك وقيل : محمدا وأصحابه حتى دخلوا مكة فى عشرة آلاف ظاهرين على المشركين « وتذل من تشاء » منهم ، وقيل: أبا جهل وأصحابه حيث جذت رؤوسهم وألقوا فى القليب ، وقيل : تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية ، وقيل: تعز من تشاء بالقناعة وتذل من تشاء بالحرص والطمع ، «بيدك» أى قدرتك « الخير» أى والشر ، واقتصر على الأول لمسارعة الأدب فى الخطاب واكتفاء بذكر أحد المقابلين ، كما فى قوله تعالى «سرابيل تقيكم الحر» أى والبرد، ولأن الكلام وقع فيه ، إذ روى البيهقى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق وقطع لكل جماعة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون ، فظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول ، فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء وأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها أى ما بين حرتى[1] المدينة، فكأن بها مصباحا فى جوف بيت مظلم ، فكبر وكبر المسلمون وقال : أضاءت لى منها قصور الحيرة. ثم ضرب الثانية فقال : أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لى قصور صنعاء، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كل الأرض التى أضاءت فأبشروا، فقال المنافقون: ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم

---

(١) الحرة : كل أرض ذات حجارة سود كأنها محترقة من الحر .

أنه يبصر من يثرب إلى المدينة قصور الحيرة ، وأنها تفتح لكم وأنكم إنما تحفرون الخندق من الفرق ـ أى الخوف ـ فنزلت ، ونبه على أن الشر بيده بقوله تعالى « إنك على كل شيء قدير » ثم عقب ذلك ببيان قدرته على تعاقب الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله فقال :

« تولج » أى تدخل « الليل فى النهار » حتى يكون النهار خمسة عشر ساعة والليل تسع ساعات فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر « وتخرج الحى من الميت » كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة « وتخرج الميت من الحى » كالنطفة من الإنسان والبيضة من الطائر ، وقال الحسن وعطاء : يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن ، فالمؤمن حى الفؤاد والكافر ميت الفؤاد ، قال الله تعالى : أو من كان ميتا فأحييناه ، وقال الزجاج : يخرج النبات ذا الغصن المورق من الحب اليابس ويخرج اليابس من النبات الحى النامى .

وقد مثل المفسرون للحياة الحسية بخروج النخلة من النواة والعكس ، وخروج الإنسان من النطفة ، والطائر ونحوه من البيضة وبالعكس ، والتمثيل صحيح ، وإن أثبت العلم الحديث أن فى النطفة حياة وكذا فى البيضة والنواة ، لأن هذه الحياة اصطلاحية لأهل الفن فى عرفهم دون العرف العام الذى جاء التنزيل به . ومن الأمثلة الصحيحة فى العرفين : خروج النبات من التراب . وقد جاء القرآن بتسمية مايقابل الحى ميتاً ، سواء كانت الحياة حسية أومعنوية ، وسواء كان ما أطلق عليه لفظ الميت مما يعيش ويحيا مثله أم لا ، وهو استعمال عربى صحيح فصيح . والجملة كسابقتها مثال ظاهر لكونه تعالى ، مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وكل شيء عنده بمقدار ، فقد أخرج من العرب الأميين خاتم النبيين والمرسلين ، كما أخرج من سلائل الأنبياء والصديقين ، اولئك الأشرار المفسدين ، ذلك أن سننه تعالى فى الاجتماع قد أعدت الأمة العربية لأن يظهر محمد صلوات الله عليه منها ، وقد قويت ونهضت حتى صارت هذه الأمة أقوى أمم الأرض استعداداً لقبول الدين الذى هدم بناء التقليد

والاستعباد ، والجمود ، حيث كان بنو إسرائيل كغيرهم من الأمم يرسفون فى قيود التقليد للأحبار والرهبان ، مرتكسين فى أغلال الاستبداد من الملوك والحكام ، فما أعطى سبحانه ما أعطى ونزع مانزع إلا باقامة السنن التى هى قوام النظام وسر الحياة « والله يرزق من يشاء بغير حساب » يطلب منه ، لأن الأمر كله بيده ، وليس فوقه أحد يحاسبه ، أو بغير تضييق ولا تقتير ، أو بغير حساب من هذا المرزوق ولا تقدير ، ولكنه بقدر وحساب ، من وضع السنن والأسباب ، والمراد رزقا واسعا . وعن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فاتحة الكتاب وآية الكرسى والآيتين من آل عمران : « شهد الله ، وقل اللهم مالك الملك » معلقات ، ما بينهن وبين الله حجاب ، قال الله عز وجل فى حديث: بى حلفت لا يقرؤكن أحد دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه ، على ما كان فيه ، ولأسكننه حظيرة قدسى ، ولأنظرن إليه بعينى كل يوم سبعين مرة ، ولأقضين له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، ولأعيذنه من كل عدو وحاسد، ولأنصرنه منه » .

وهاتان الآيتان على ما فيهما من إيجاز تصور قدرة الله فى السماء والأرض وما بينهما تمام التصوير .

فالملك كله بيد الله ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك عمن يشاء ، وكم رأينا من دول كانت مسيطرة جبارة فى الأرض ، فانتهت ومحيت من الوجود فى لحظة ، وزال نفوذها وسلطانها من على ظهر الأرض ، وقامت مكانها دول أخرى ، وكم من ملوك زالت عنهم عروشهم ، واعتلاها أفراد آخرون من جماهير الشعب .

والله عز وجل هو الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء من عباده ، فكم من فقير أصبح فى طرفة عين غنيا ، وكم من غنى صار فقيرا ، وكم من ضعيف صار قوياً ، وقوى صار ضعيفاً ، وكم من عزيز قوم أصبح ذليلا ، وذليل صار عزيزا ، وكم من حاكم عزل وأصبح فردا من أفراد الشعب ، وكم من رجل

عادى دعاه حظه فصار رئيس الدولة . . . والخير والشر بيد الله وحده القادر على كل شيء .

ومن مظاهر قدرة الله جل جلاله ما صوره القرآن الكريم بقوله « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » .

إنها صور رائعة ساحرة لقدرة الله القادر ، ودليل وجوده وألوهيته ، وبرهان جلاله وعظمته ، ومظهر سلطانه وقوته وحكمته .

وهاتان الآيتان جدير بمن يمعن فيهما من الكافرين والجاحدين أن يؤمن بالله ويترك ما هو عليه من الضلال والكفر والعصيان ، ويعود إلى حظيرة الدين المقدسة . . أيها الشاكون تأملوا صنع الله الذى أحسن كل شيء صنعاً ، ويا أيها المرتابون تفكروا وتدبروا : كيف قامت السموات والأرض وما بينهما بكلمته وحكمته وعزته وإرادته وقدرته ، سبحانك ربنا ، سبحان مجدك وسلطانك ، وسبحان عرشك وتفردك وحدك بمظاهر العظمة والملك والحكم .

٢٨ — لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ .

٢٩ — قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

٣٠ — يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ .

نبه الله رسوله فى الآيات السابقة والمؤمنين إلى وجوب الإيمان بدين

الله وشريعة الإسلام ، وأقام الدليل من مظاهر قدرة الله في السماء والأرض على ذلك ، وعلى أن كل شيء في الحياة إنما يسير وفق ما اقتضته مشيئته تعالى من نظام قضائه وقدره ، وأن حياة الدول وفناءها وعز الأمم وانهيارها بيد الله مالك الملك ورب الحياة والناس أجمعين . . وفي هذه الآيات الثلاث ينبه الله عز وجل عباده المؤمنين إلى ما تضمره نفوس الكافرين لهم من كيد وبغض ، وإلى ما تغلى به صدورهم نحو الإسلام من مقت وكراهية ، مما يستوجب الاحتراز من موالاتهم ، والبعد عن مجاراتهم والاعتزاز بهم . . وكيف وهم يعادون الله وينكرون على قدرته أن تجعل المسلمين أعز من في الوجود جانبا، وأرفع البشر شأنا .

والآية الأولى من هذه الآيات الثلاث نزلت ـ كما يروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ في المنافقين ، عبد الله بن أبي وأصحابه ـ كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ، يرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآية ، ونهى المؤمنين أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام ، أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق من أجلها ويتعاشر .

وقوله تعالى « من دون » أي غير « المؤمنين » إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة ، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفار، والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم ، وأصل جليل من أصول الإيمان « ومن يفعل ذلك فليس من الله » أي من ولاية الله « في شيء » يصح أن يسمى ولاية شرعية ، فإن الولاية بين الأعداء لا تكون إلا كاذبة خادعة ، ولا تلتئم أواصرها أبدا بأية حال ، ثم استثنى الله تعالى من ذلك فقال « إلا أن تتقوا منهم تقاة » أي إلا أن تخافوا منهم مخافة فلكم موالاتهم باللسان دون القلب ، كما قال عيسى عليه الصلاة والسلام : « كن وسطا أي في معاشرتهم ومخالفتهم ، وامش جانبا أي من موافقتهم فيما يأمرون ويذرون » . وهذا قبل عزة الإسلام ، ويجرى في بلد ليس قويا فيها ، قال معاذ بن جبل ومجاهد : كانت التقية في بدء الإسلام

قبل استحكام الدين وقوة المسلمين ، وأما اليوم فقد أعز الله الإسلام ، فليس ينبغى لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم « ويحذركم الله » أى يخوفكم « نفسه » أى أن يغضب عليكم إن واليتموهم « وإلى الله المصير » أى المرجع فيجازيكم فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه ، وهو تهديد عظيم ، وذكر النفس ليعلم أن المحذور منه عقاب يصدر منه فلا يبالى عنده بما يحذر من الكفرة .

ويرى الشيخ رشيد رضا أن هذه الآية الأولى نزلت فى قصة حاطب حين أرسل فى فتح مكة رسالة من المدينة يعلم المشركين بما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل حاطب كتابه مع جارية وضعته فى عقاص شعرها ، فأعلم الله نبيه بذلك ، فأرسل فى أثرها علياً والزبير والمقداد وقال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » ، فلما أتى به قال « يا حاطب ما هذا » فقال يا رسول الله لا تعجل علىّ ، إنى كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتدادا عن دينى ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام ؛ فقال عليه الصلاة والسلام « أما أنه قد صدقكم » ، واستأذن عمر النبى صلوات الله عليه فى قتله فلم يأذن له ، وفى ذلك نزل قوله تعالى من سورة الممتحنة « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم » ، وهاتان الآيتان تشتركان فى النهى عن موالاة الكافرين وما نزل فى قصة حاطب ، وهو معظم سورة الممتحنة ، يفسر لنا أو يفصل جميع الآيات التى وردت فى النهى عن اتخاذ الكافرين أولياء لأن ما فى سورة الممتحنة مفصل ، وهو من آخرها أو آخرها نزولا ، وما عداه مجمل يبينه المفصل .. ويقول الشيخ رشيد رضا : يزعم الذين يقولون فى الدين بغير علم ، ويفسرون القرآن بالهوى فى الرأى ، أن آية آل عمران وما فى معناها من النهى العام أو الخاص ، كقوله تعالى من

سورة المائدة « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » يدل على أنه لا يجوز للسلمين أن يحالفوا أو يتفقوا مع غيرهم ، وإن كان الحلاف أو الاتفاق لمصلحتهم ، وفاتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان محالفا لخزاعة وهم على شركهم ، بل يزعم بعض المتحمسين فى الدين على جهل أنه لا يجوز للسلم أن يحسن معاملة غير المسلم أو معاشرته، أو يثق به فى أمر من الأمور .

ويقول الإمام محمد عبده ـ كما فى تفسير المنار ـ فى تفسير الآية : الأولياء الأنصار ، والاتخاذ يفيد معنى الاصطناع ، وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين وقوله « من دون المؤمنين » قيد فى الاتخاذ . أى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصارا فى شىء تقدم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين أى كما فعل حاطب بن أبى بلتعة ؛ لأن فى هذا اختيارا لهم وتفضيلا على المؤمنين ، بل فيه إعانة للكفر على الإيمان ولو بطريق اللزوم ، ومن شأن هذا أن لا يصدر من مؤمن ولو كان فيه مصلحة خاصة له ، ولذلك هم عمر رضى الله عنه بقتل حاطب وسماه منافقا ، لولا أن نهاه صلى الله عليه وسلم عن ذلك وذكره بأنه من أهل بدر . وقال تعالى فى آية أخرى « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم » الآية ، فالموادة مشاركة فى الأعمال ، فإن كانت فى شأن من شؤون المؤمنين من حيث هم مؤمنون والكافرين من حيث هم كافرون ، فالممنوع منها ما يكون فيه خذلان لدينك وإيذاء لأهله أو إضاعة لمصالحهم ، وأما ما عدا ذلك كالتجارة وغيرها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا تدخل فى ذلك النهى ، لأنها ليست معاملة فى محادّة الله ورسوله أى فى معاداتهما ومقاومة دينهما .. وفى سورة الممتحنة تقييد النهى عن موالاة أعداء الله ورسوله ، وإلقاء المودة إليهم بكونهم كفروا كفرا حملهم على إخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم لأنهم مؤمنون بالله ، فكل شعب حربى يعامل المؤمنين مثل هذه المعاملة تحرم موالاته قطعاً . ووصف هؤلاء الذين نهى عن موالاتهم بأنهم إن يثقفوا المؤمنين يعادوهم ويؤذوهم بأيديهم وألسنتهم ، ثم قال « عسى الله أن يجعل بينكم وبين

الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم ، لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، ، فالبصير يرى أن القرآن يجعل المودة بين المؤمنين وأولئك المشركين ـ الذين آذوا الرسول ومن آمن به أشد الإيذاء وأخرجوهم من ديارهم وبين هؤلاء المؤمنين ـ مرجوّة ، وقال إنه لا ينهاهم عن البر والقسط إلى من ليسوا كذلك من المشركين ، وهم أشد الناس عداوة للمؤمنين أيضا وأبعد عنهم من أهل الكتاب ، ثم أكد ذلك بحصر النهى فى الذين قاتلوهم فى الدين ، أى لأنهم مسلمون وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم منها ، ولكنه خص هذا النهى بتوليهم ونصرهم لا بمجاملتهم وحسن معاملتهم ، بالبر والإحسان والعدل ، وهذا منتهى الحلم والسماح . ولا تنس أن هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة ، وكان المشركون فى عنفوان طغيانهم واعتدائهم ، وقد عمل عليه الصلاة والسلام يوم الفتح بهذه الوصايا فعفا عن قدرة ، وحلم عن عزة وسلطة ، وقال : « أنتم الطلقاء » ، وأحسن إلى المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولقد كان للمؤمنين فيه أسوة حسنة .

هذا وتدل هذه الآية على أن للمسلم أن يتقى ما يتقى من مضرة الكافرين ، وقصارى ما تدل عليه آية سورة النحل [1] ما تقدم من أن ذلك من باب الرخص لأجل الضرورات العارضة لا من أصول الدين المتبعة دائما ، ولذلك كان من مسائل الإجماع وجوب الهجرة على المسلم من المكان الذى يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلى التقية ، ومن علامة المؤمن الكامل أن لا يخاف فى الله لومة لائم ، قال تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشونى » ، وقال : « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » وكان النبى وأصحابه يتحملون الأذى

---

(١) هى قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا » الخ (١٦ : ١٠٦) .

فى ذات الله ويصبرون . . وأما المداراة فيما لا يهدم حقا ولا يبنى باطلا فهى كياسة مستحبة يقتضيها أدب المجالسة ما لم تنته إلى حد النفاق ، والدهان والاختلاق ، وتكون مؤكدة فى خطاب السفهاء تصونا من سفههم ، واتقاء لفحشهم ، وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال « بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة » ، ثم أذن له ، فألان له القول ، فلما خرج قلت يا رسول الله : قلت ما قلت ثم ألنت له القول ؟ فقال : « يا عائشة إن من أشر الناس من يتركه الناس — أو يدعه الناس — اتقاء فحشه » وقد رواه البخارى فى صحيحه ، وفيه من حديث أبى الدرداء : « إنا لنكشر فى وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم » ، وإلانة القول أو الكشر فى الوجوه أى التبسم هما من أدب المجلس ، ينبغى بذلها لكل جليس ، ولا يعدان من النفاق ولا من الدهان ، ولا ينافيان أمر الله لنبيه بالإغلاظ على الكافرين ، لأنه ورد فى مقام الأمر بالجهاد لدفع إيذائهم وحماية الدعوة وبيان حقيقتها ، وقد كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس أدبا فى مجلسه وحديثه .

وقوله تعالى « قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات والأرض » ، المراد بما فى الصدور : ما فى القلوب من الانشراح والميل للكفر أو الكره له والنفور منه ، فهو كقوله تعالى فى الآية التى ذكرت آنفا « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا » ، أى أنه سبحانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم وما تختلج به قلوبكم ، إذ توالون الكافرين أو توادونهم وإذ تتقون منهم ما تتقون ، فإن كان ذلك بميل إلى الكفر جازاكم عليه ، وإن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم ولم يؤاخذكم على عمل لا جناية فيه على دينكم ، فهو يجازيكم على حسب علمه المحيط بما فى السموات والأرض لأنه الخالق لما فى السموات والأرض ، « ألا يعلم من خلق » ، وهذا كالدليل على علمه بما فى صدورهم لأنه عام ، ودليله ظاهر فى النظام العام .

وقوله تعالى : « والله على كل شىء قدير » أى هو قادر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه ، وهذا بيان لقوله تعالى «ويحذركم الله نفسه » لأن نفسه متصفة بعلم ذاتى يحيط بالمعلومات كلها ، وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها فلا تعصوه ، إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها لا محالة ، قادر على العقاب بها « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا » أى اذكر ، وقوله تعالى : « وما عملت » أى عملته « من سوء تود لو أن بينها » أى النفس « وبينه » أى السوء « أمدا بعيدا » أى غاية فى نهاية البعد فلا يصل إليها ، وكرر سبحانه وتعالى « ويحذركم الله نفسه » قال البيضاوى : للتأكيد والتذكير ، وقال التفتازانى : الأحسن ما قيل أن ذكره أولا : للمنع من موالاة الكافرين وثانيا : للحث على عمل الخير ، والمنع من عمل الشر .

وقوله تعالى : « والله رءوف بالعباد » إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم ، وعن الحسن : من رأفته بهم أن حذرهم نفسه ، وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة (رؤوف) بقصر الهمزة ، والباقون بالمد ، وورش على أصله فى المد والتوسط والقصر .

٣١ — قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٣٢ — قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ .

آيتان كريمتان من آيات هذه السورة الخالدة ، وقد نزلت الآية الأولى فى اليهود والنصارى حيث قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقال تعالى : «قل» أى قل يا محمد لهم « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ، روى الضحاك عن ابن عباس قال: وقف النبى صلى الله عليه وسلم على قريش وهم فى المسجد

الحرام حول أصنامهم وهم يسجدون لها فقال : يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ؛ فقالت له قريش : إنما نعبدها حبا لله تعالى ، والمعنى : قل لهم يا محمد إن كنتم تحبون الله وتعبدون الأصنام ، لتقربكم إليه ، فاتبعونى يحببكم الله ، فأنا رسوله إليكم وحجة عليكم ، أى اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله ؛ فحب المؤمنين لله : اتباعهم أمره ، وإيثار طاعته ، وابتغاء مرضاته ؛ وحب الله للمؤمنين : ثناؤه عليهم وثوابه لهم ، ومغفرته لذنوبهم ، كما قال تعالى : « ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور » أى أغفر لمن اتبعنى ماسلف من ذنبه قبل ذلك ، « رحيم » أى به . وعن الحسن : زعم أقوام على عهد رسول الله صلوات الله عليه أنهم يحبون الله ، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل ، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيده فى الذكر ويرفع صوته فلا تشك أنه لا يعرف ما الله ولا يدرى ما محبة الله ..

وقيل إن الآية نزلت ليخاطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى « نجران » الذين ادعوا كما يدعى أهل ملتهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولكن الخطاب فيها عام .

والآية الثانية متممة للأولى ، ويروى أنه لما نزلت الآية الأولى قال عبد الله بن أبى وأصحابه : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى بن مريم ، فنزلت الآية الثانية « قل أطيعوا الله والرسول .. » الخ .

« قل أطيعوا الله » باتباع كتابه «والرسول » باتباع سنته والاهتداء بهديه «فإن تولوا» وأعرضوا ولم يجيبوا دعوتك غرورا منهم بدعواهم أنهم محبون لله وأنهم أبناؤه وأحباؤه «فإن الله لايحب الكافرين» الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر الصحيح فى آيات الله وما أنزله على رسوله ، وترك الشرك والضلال واتباع الحق فى الاعتقاد والعمل الصالح ، هؤلاء هم الكافرون وإن ادعوا انهم مؤمنون وأنهم يحبون الله والله يحبهم .

٣٣ — إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ .

٣٤ — ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٣٥ — إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

٣٦ — فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ .

٣٧ — فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

لما بين الله سبحانه وتعالى أن محبته منوطة باتباع الرسول فمن اتبعه كان صادقا فى دعوى حبه لله . وجديرا بأن يكون محبوبا منه جل علاه ، أتبع ذلك ذكر من أحبهم واصطفاهم وجعل منهم الرسل الذين يبينون طريق محبته ، وهى الإيمان به مع طاعته ، فقال « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » الخ . اصطفاهم أى اختارهم وجعلهم صفوة العالمين وخيارهم بجعل النبوة والرسالة فيهم ، فآدم أول البشر ارتقاء إلى هذه المرتبة، فإنه بعد ماتنقل فى الأطوار إلى مرتبة التوبة والإنابة اصطفاه تعالى واجتباه كما قال فى سورة طه « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » ، فكان هاديا مهديا ، وكان فى ذريته من النبيين والمرسلين من شاء الله تعالى . وأما نوح عليه السلام فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم ، فانقرض من السلائل البشرية من

الفرض ونجا هو وأهله فى الفلك ، فكان بذلك أبا ثانيا للجم الغفير من البشر وكان هو نبيا مرسلا ، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ، ثم تفرقت ذريته وانتشرت وفشت فيهم الوثنية ، حتى ظهر فيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام نبيا مرسلا وخليلا مصطفى ، وتتابع النبيون والمرسلون من آله وذريته ، وكان أرفعهم قدرا وأنبههم ذكرا آل عمران قبل أن تختم النبوة بولد اسماعيل عليهم الصلاة والسلام ؛ وآل إبراهيم هم إسماعيل وإسحاق وأولادهما الرسل[١] ، وقد دخل فى آل إبراهيم رسول الله صلى الله عليه وسلم « وآل عمران » موسى وهارون ابنا عمران « على العالمين » بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية ، ولذلك قووا على مالم يقو عليه غيرهم ، وبهذه الآية استدل على فضل الرسل على الملائكة ، وقيل: آل عمران : عيسى وأمه مريم بنت عمران وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة ، وقيل آل إبراهيم وآل عمران أنفسهما وقوله تعالى « ذرية » بدل من آل إبراهيم وآل عمران « بعضها من » ولد « بعض » منهم ، وقيل بعضها من بعض فى الدين ، والذرية تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى « والله سميع » لأقوال الناس « عليم » بأحوالهم « إذ قالت امرأة عمران » أى اذكر وقت ذلك ، وامرأة عمران هى حنة أم مريم ، وعمران هو عمران بن ماقان وليس هو عمران أبا موسى وهارون ، إذ كان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة .

وروى أن حنة كانت عاقرا عجوزا فبينما هى فى ظل شجرة إذ رأت طائرا يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت : اللهم إن لك على نذرا شكرا لك إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خدمه ، فحملت، فلما أحست بالحمل قالت يا « رب إنى نذرت » أن أجعل « لك ما فى بطنى محررا » أى عتيقا خالصا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس ، وكان هذا النذر

---

(١) قال تعالى عن إبراهيم كما فى سورة الأنعام : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذرية داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى.. » الخ .

مشروعا فى عهدهم فى الغلمان ، فقال لها زوجها : ويحك ماصنعت ؟ أرأيت إن كان ما فى بطنك أنثى لاتصلح لذلك ، فوقعا جميعا فى هم من ذلك ، وهلك عمران وحنة حامل بمريم .

وقال الإمام محمد عبده : ورد ذكر عمران فى هذه الآيات مرتين ، فبعضهم يقول : إنهم واحد وهو أبو مريم ، ويستدل على ذلك بورودهما فى سياق واحد ، وأكثرهم يقول : إن الأول أبو موسى عليه السلام ، والثانى أبو مريم ؛ وبينهما نحو ألف وثمانمائة سنة تقريباً ؛ وذكر تفصيل ذلك معروف عند اليهود ؛ والمسيحيون لا يعترفون بأن أبا مريم يدعى عمران ، ولا ضير فى ذلك ، فإنه لايلزم أن تكون كل حقيقة معروفة عندهم وليس لهم سند لنسب المسيح يحتج به ، فهو كسلسلة الطريق عند المتصوفة ، يزعمون أنها متصلة بعلى أو بالصديق ، وليس لهم فى ذلك سند متصل يحتج بمثله . ويعلق الشيخ رشيد رضا على ذلك فيقول : إن نسب المسيح فى إنجيلى متى ولوقا مختلف ، ولو كتب عن علم لما وقع فيه الخلاف .

وفى العهد الجديد ، إنجيل متى ، أنه لما كانت مريم أم المسيح مخطوبة ليوسف بن يعقوب بن متان قبل أن يجتمعا ، وجدت حبلى من الروح القدس .

وفى إنجيل لوقا الإصحاح الأول : أنه كان فى أيام هيرودس كاهن اسمه زكريا وامرأته من بنات هرون واسمها أليصابات ؛ وكانا كلاهما بارين أمام الله ، ولم يكن لهما ولد ، إذ كانت أليصابات عاقرا ، وكان كلاهما متقدمين فى أيامهما . فظهر له ملاك الرب ، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف ، فقال له الملاك : لا تخف يازكريا ، لأن طلبتك قد سمعت ، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح وابتهاج ، وكثيرون سيفرحون بولادته ، لأنه يكون عظيما أمام الرب ، فقال زكريا للملاك : كيف أعلم هـذا ؟ لأنى أنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها ، فأجاب الملاك وقال : أنا جبريل الواقف قدام الله ، وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا ، وها أنت تكون صامتا ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هـذا ، لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم

فى وقته ، وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه فى الهيكل ، فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل ، فكان يومىء إليهم وبقى صامتا . ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته ، وبعد تلك الأيام حبلت أليصابات امرأته ، وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة : هكذا قد فعل بى الرب فى الأيام التى فيها نظر إلى لينزع عارى بين الناس . . وفى الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف ، واسم العذراء مريم ، فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليها ، الرب معك ، مباركة أنت فى النساء ، فلما رأته اضطربت من كلامه ، فقال لها الملاك : لاتخافى يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع ، فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا ؟ فأجابها الملاك وقال لها : الروح القدس يحل عليك ، وقوة العلى تظللك ، وهو ذا أليصابات نسيبتك هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا ، لأنه ليس شىء غير ممكن لدى الله . . ويستمر الإصحاح الأول فى ذكر ولادة أليصابات وأن زكريا سمى ابنه « يوحنا » ، وأنه فى الحال انتفخ فم الطفل ولسانه ، وتكلم وبارك الله ، فوقع خوف على كل جيرانهم ، وتحدث بكل هذه الأمور جميعها فى كل جبال اليهودية .. وهنا نجد الإنجيل يجعل الطفل الذى تكلم فى المهد هو يوحنا ، وهذا ليس هو الواقع كما يقص ذلك علينا القرآن الكريم ، ويجعل المتكلم فى المهد هو المسيح!!

إن الإنجيل كتبه الحواريون بعد وقت طويل من وقوع الحوادث ، التى اختلط عليهم فيها ما اختلط ، مما يجعلنا نقف عندما وقف كتاب الله وفرقانه وذكره الحكيم وحده .

وقوله تعالى على لسان امرأة عمران : « فتقبل منى » أى ما نذرته « إنك أنت السميع » لقولى « العليم » بنيتى « فلما وضعتها » أى ولدتها جارية والضمير لما فى بطنها ، وإنما أنث على المعنى ؛ لأن مافى بطنها كان أنثى فى علم الله ، أو على

تأويل النفس ، أو النسمة ، ولما لم يكن يحرر إلا الغلمان وكانت ترجو أن يكون غلاما ، ولذلك نذرت تحريره « قالت » معتذرة يا « رب إني وضعتها أنثى » قالت إني وضعت النفس أو النسمة أنثى « والله أعلم » أي عالم « بما وضعت » وقرىء « وضعتُ » بتاء المتكلم قالته تسلية لكلامها أي ولعل فيه سرا وحكمة ، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر ، وعلى القراءة المشهورة يكون من كلام الله تعظيما لموضوعها وتجميلا لها بقدر ما وهب لها منه ، ومعناه : والله أعلم بالشيء الذي وضعت ، وما علق به من عظائم الأمور ، وأن يجعله وولده آية للعالمين ، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئا ، فلذلك تحسرت .

وقوله تعالى : « وليس الذكر كالأنثى » بيان لما في قوله « والله أعلم بما وضعت » من التعظيم للموضوع والرفع منه ، ومعناه : وليس الذكر التي طلبت كالأنثى التي وهبت لها ، أو ليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت لما يعتري الأنثى من الحيض والنفاس .

وقوله تعالى : « وإني سميتها مريم » عطف على « إني وضعتها أنثى » وما بينهما جملتان معترضتان ، كقوله تعالى « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ، وإنما ذكرت ذلك لربها تقربا إليه وطلبا لأن يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها ، فإن مريم في لغتهم بمعنى العابدة ، ومعنى « سميتها مريم » جعلت اسم المولود مريم « وإني أعيذها » أي أجيرها « بك » أي بحفظك « وذريتها » أولادها « من الشيطان الرجيم » أي المطرود ، روى الشيخان : ما من مولود إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا إلا مريم وابنها . ويبعد كما قال الطيبي اختصاص عيسى وأمه بهذه الفضيلة دون الأنبياء لجواز أن يمكن الله الشيطان من مسهم مع عصمتهم من الإغواء ، ولا يمتنع كما قال التفتازاني أن يمس الشيطان المولود حين يولد بحيث يصرخ كما ترى وتسمع ، وأنكرت المعتزلة هذا الحديث ، وقدحوا في صحته ، لأن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من له تمييز ، وعن أبي هريرة قال رسول الله صلوات الله عليه :

« كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه بإصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ، ذهب يطعن فطعن فى الحجاب » .

وفى الفصل الرابع من إنجيل مرقس ما نصه :

« أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئا من الروح القدس ، وكان يقتاد بالروح فى البرية أربعين يوما يجرب من إبليس ولم يأكل شيئا فى تلك الأيام ، ولما تمت جاع أخيرا ، وقال له إبليس : إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا ، فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من الله ، ثم أصعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان ، وقال له إبليس : لك أعطى هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إلى قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد ، فإن سجدت أمامى يكون لك الجميع . فأجابه يسوع وقال : « اذهب يا شيطان » ، إنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد ، ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له : إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل ، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك ، وأنهم على أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك ، فأجاب يسوع وقال له : إنه قيل لا تجرب الرب إلهك .. ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين » . ويعلق على هذا الشيخ رشيد رضا بقوله : فهذا صريح فى أن إبليس كان يوسوس للمسيح عليه السلام حتى يحمله ويأخذه من مكان إلى مكان ، وقصارى الأمر أنه لم يكن يطيعه فيما أمر به من السجود له ومن امتحان الرب إلهه (أى إله المسيح) وقوله : لا تجرب الرب إلهك يراد به ما ورد فى التثنية آخر أسفار التوراة (٦ : ١٦) ومثله قوله ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . وقوله : للرب إلهك تسجد .. الخ ، وذلك مما يدل على أنه كان متبعا للتوراة . هذا وقد تقدم تحقيق القول فى الشيطان ووسوسته فى سورة البقرة ، والمحقق أنه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين ، وخيرهم الأنبياء والمرسلون ، وأما ما ورد فى حديث مريم وعيسى من أن الشيطان لم يمسهما ، وحديث إسلام شيطان النبى صلى الله

عليه وسلم ، وحديث إزالة حظ الشيطان من قلبه ، فهو من الأخبار الظنية ؛ لأنه من رواية الآحاد ، ولما كان موضوعها عالم الغيب والإيمان بالغيب من قسم العقائد وهى لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى « إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » كنا غير مكلفين الإيمان بمضمون تلك الأحاديث فى عقائدنا ، وقال بعضهم : يؤخذ فيها بأحاديث الآحاد لمن صحت عنده ، ومذهب السلف فى هذه الأحاديث تفويض العلم بكيفيتها إلى الله تعالى ، فلا نتكلم فى كيفية مس الشيطان ولا فى كيفية إخراج حظه من القلب ، وإنما نقول : إن ما قاله الرسول حق ، وإنه يدل على مزية لمريم وابنها وللنبى صلى الله عليه وسلم ، لا يشاركهم فيها سواهم من عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وهذه المزية لا تقتضى وحدها أن يكون كل واحد منهم أفضل من سائر عباد الله المخلصين ؛ إذ قد يوجد فى المفضول من المزايا مالا يوجد فى الفاضل ، فليست مريم أفضل من إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام ؛ لأن اختصاص الله إياهما بالنبوة والرسالة والخلة والتكليم يعلو كون الشيطان لم يمسها عند الولادة . على أن الحديث ورد فى تفسير كونه تعالى تقبل من أمها إعاذتها وذريتها من الشيطان ، وهذه الإعاذة قد كانت بعد ولادتها والعلم بأنها أنثى ، وظاهر الحديث أن المس يكون عند الوضع ، والله ورسوله أعلم بمرادهما .

« فتقبلها ربها » أى قبل مريم من أمها ، ورضى بها فى النذر مكان الذكر « بقبول حسن » وهو اختصاصه لها باقامتها مقام الذكر فى النذر ولم يقبل قبلها أنثى « وأنبتها نباتا حسنا » أى أنشأها بخلق حسن ، فكانت تنبت فى اليوم كما ينبت المولود فى العام « وكفلها زكريا » . روى أن حنة لما ولدت مريم لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد الأقصى ووضعتها عند الأحبار وقالت : دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم أى الأعظم أو فى الصلاة ، فقال زكريا : أنا أحق بها لأن خالتها عندى ، فقالت الأحبار : لا تفعل ذلك ، فانها لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التى ولدتها ، لكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه ، وكانوا تسعة وعشرون رجلا ، فانطلقوا إلى نهر الأردن

وألقوا أقلامهم على أن من ثبت قلمه فى الماء فهو أولى بها ، فثبت قلم زكريا ؛ فأخذها وضمها إلى خالتها أم يحيى ، حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها غرفة فى المسجد وجعل بابها فى وسطه لا يرقى إليه إلا بالسلم ولا يصعد إليها غيره ، وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها ، فيجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء ، قال تعالى « كلما دخل عليها زكريا المحراب » أى الغرفة ، والمحراب أشرف المجالس ومقدمها ، ولذلك هو من المسجد ، ويقال أيضاً للمسجد محراب ، قال المبرد : لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج « وجد عندها رزقا » قال الربيع بن أنس « كان زكريا إذا خرج يغلق عليها سبعة أبواب ، فإذا دخل عليها غرفتها وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف ، فإذا وجد عندها « قال يامريم أنى لك هذا » أى من أين لك هذا الرزق الذى فى غير أوان والأبواب مغلقة عليك « قالت » وهى صغيرة « هو من عند الله » يأتينى به من حيث يشاء ، قيل تكلمت فى المهد وهى صغيرة كما تكلم ابنها عيسى وهو صغير فى المهد ، ولم ترضع ثديا قط ، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة ، وفى هذا ـ على ما يذهب إليه الكثيرون ـ دليل على كرامة الأولياء والصالحين ، وليس ذلك معجزة لزكريا كما زعمه جماعة ، لأن ذلك مدفوع باشتباه الأمر عليه حتى قال لها : أنى لك هذا ؟ ولو كان معجزة له لادعاها وقطع بها ، لأن النبى شأنه ذلك ، ويدل عليها غير ذلك ، كقصة أصحاب الكهف ولبثهم فى الكهف سنين عددا بلا طعام ولا شراب ، وقصة آصف من إتيانه بعرش بلقيس قبل ارتداد الطرف ، ورؤية عمر بن الخطاب وهو على المنبر جيشه وهو فى « نهاوند » حين قال : ياسارية الجبل الجبل ، وسماع سارية ذلك ، وكان بينهما مسيرة شهر ، وشرب خالد رضى الله تعالى عنه السم من غير أن يضره ، وبالجملة فهى حق ثابت بالكتاب والسنة ، ومبنى هذا الأمر على صفاء العقيدة ونقاء السريرة واقتفاء الطريقة واصطفاء الحقيقة .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم جاع فى زمن قحط ، فأهدت له فاطمة رضى الله تعالى عنها رغيفين وبضعة لحم فى طبق مغطى فرجع بذلك إليها ،

وقال : هلمى يا بنية ، فكشف عن الطبق فإذا هو مملوء خبزا ولحما ، فبهتت وعلمت أن ذلك من عند الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ،إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل ، ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا والحسن والحسين أهل بيته ، فأكلوا حتى شبعوا وبقى الطعام كما هو ، فأوسعت فاطمة على جيرانها ، وفى هذه الرواية دليل على أن قوله تعالى : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » أى رزقا واسعا - من كلام مريم رضى الله تعالى عنها ، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى . ولما رأى زكريا ما رأى من مريم ومنزلتها عند الله قال : إن الذى قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب ، قادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى ولدا من غير حينه على الكبر فطمع فى الولد ، وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا ، وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد .

وقد سيقت كل هذه القصة لأجل تقرير نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب إسرائيل ، وشبهة المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر . وبيان ذلك أن المقصد الأول من مقاصد الوحى هو تقرير عقيدة الألوهية ، وأهم مسائلها مسألة الوحدانية وتقرير عقيدة البعث والجزاء وعقيدة الوحى والأنبياء ، وقد افتتحت السورة بذكر التوحيد وإنزال الكتاب ، ثم كانت الآيات من أولها إلى هذه القصة - أو قبيل هذه القصة - فى الألوهية والجزاء بعد البعث بالتفصيل وإزالة الشبهات والأوهام فى ذلك ، ثم بين أن الإيمان بالله وادعاء حبه ورجاء النجاة فى الآخرة والفوز بالسعادة فيها ، إنما تكون باتباع رسوله ، وقفى على ذلك بهذه القصة التى تزيل شُبَه المشركين وأهل الكتاب فى رسالته وتردها على وجوههم .

رد عليهم بما يعرفونه من أن آدم أبو البشر ، وأن الله اصطفاه بجعله أفضل من كل أنواع الحيوان ، وتمكينه هو وذريته من تسخيرها ، وهذا متفق عليه بين المشركين وأهل الكتاب ، ومن اصطفاء نوح وجعله أبا البشر الثانى

وجعل ذريته هم الباقين ، ومن اصطفاء إبراهيم وآله على البشر ، فإن العرب وأهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك ، فالأولون يفخرون بأنهم من ولد إسماعيل وعلى ملة إبراهيم ، كما يفخر الآخرون باصطفاء آل عمران من بني إسرائيل حفيد إبراهيم . فالله سبحانه وتعالى يرشد هؤلاء وأولئك وجميع البشر إلى أنه هو الذي اصطفى هؤلاء بغير مزية سبقت منهم تقتضى ذلك وتوجبه عليه ، فإذا كان الأمر له في اصطفاء من يشاء من عباده ، وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم ، فالمانع له من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على العالمين كما اصطفى أولئك ؟ لا مانع يمنع ذلك عند من يعقل . فإن قيل : إنه لم يعهد أن بعث نبيا من غير بني إسرائيل بعد وجودهم ، قلنا : ولم اصطفى بني إسرائيل عند وجودهم ، أليس ذلك بمحض مشيئته ؟ بلى ، وبمحض مشيئته اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم. فهذه المثل مسوقة لبيان أنه تعالى يصطفي من خلقه من يشاء ، أما الدليل على كونه شاء اصطفاءه فاصطفاه بالفعل ، فهو أنه اصطفاه بالفعل ، إذ جعله هاديا للناس ومخرجا لهم من ظلمات الشرك والجهل والفساد ، إلى نور الحق الجامع للتوحيد والعلم والصلاح ، ولم يكن أثر غيره من آل إبراهيم وآل عمران في الهداية بأظهر من أثره بل أثره أظهر ، ونوره أسطع ، صلى الله عليه وعلى آله[1].

٣٨ — هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

٣٩ — فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ .

٤٠ — قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

(١) راجع ٢٩٤ : ٣ تفسير المنار .

٤١ — قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ.

هذه الآيات الأربع تصور شوق زكريا النبي الأب الكهل إلى الولد ، وتضرعه إلى الله أن يهبه من لدنه ذرية طيبة ، وبشارة الملائكة له بابنه يحيى وبنبوة هذا الابن الصالح ، وتعجب زكريا من أن يولد له فى كهولته وامرأته عاقر ، ولكن لا عجب أمام قدرة الله القادرة ، وإرادته النافذة ، ومشيئته الباهرة.

وقوله تعالى « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء» معناه أنه عند ما رأى زكريا حسن حال مريم ومعرفتها بالله وإضافتها الأشياء إليه ، دعا ربه متمنيا لو يكون له ولد صالح مثلها هبة من لدنه تعالى ومن محض فضله ، وقد فسر بعضهم « هنالك » بالزمان وهو ضعيف، والاستعمال الفصيح فيها أنها للمكان ، أى فى ذلك المكان الذى خاطبته فيه مريم بما ذكر دعاء ربه ، ورؤية الأولاد النجباء تشوق نفس القارىء وتهيج تمنيه لو يكون له مثلهم . وذهب بعض المفسرين إلى أن الذى بعث زكريا إلى الدعاء هو رؤيته فاكهة الصيف فى الشتاء وعكسه ، فإن ذلك من قبيل مجيء الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقر ، ولما رأى زكريا ما رآه من نعمة الله على مريم فى كمال إيمانها وحسن حالها ، ولاسيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الأسباب ، ورؤيتها أن المسخر لها هو الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه ، وانصرف عن العالم وما فيه ، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته ، فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته ، وإنما يكون الدعاء جديراً بأن يستجاب إذا جرى به اللسان بتلقين القلب . فى حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب ، ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة ، وقد أوذن بسماع ندائه ، واستجابة دعائه ، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة، وهى على غير السنة الكونية ، فأجابه بما أجاب .

وقوله تعالى : « إنك سميع » أى مجيب «الدعاء» لمن دعاك فلا تردنى خائبا .

وقوله تعالى : « فنادته الملائكة » أى جنسهم ، فإن المنادى كان جبريل وحده « وهو قائم يصلى فى المحراب » أى المسجد ، وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذى يقرب القربان ويفتح باب المذبح ، فلايدخلون حتى يأذن لهم فى الدخول، فبينما هو قائم يصلى فى المحراب والناس ينتظرون أن يؤذن لهم فى الدخول إذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه ، فناداه وهو جبريل « إن الله يبشرك بيحيى » اختلفوا فى أنه لم سمى يحيى ؟ قال ابن عباس : إن الله أحيى به عقر أمه ، وقال قتادة : لأن الله أحيى قلبه بالإيمان ، وقيل : لأن الله أحياه بالطاعة حتى إنه لم يهم بمعصية « مصدقا بكلمة » كائنة « من الله » أى بعيسى ، أنه روح الله ، وسمى (كلمة) لأنه خلق بكلمة «كن» وقيل: لأن الله أخبر الأنبياء بكلامه فى كتابه أنه يخلق نبيا بلا أب ، فسماه كلمة لحصوله بذلك الوعد، وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدقه ، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ، ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليه السلام ، وقال البيضاوى : كان يحيى وعيسى ابنى خالة من الأب ، وفيه تجوز ، إذ يحيى بن خالة أم عيسى لا ابن خالته، وعيسى ابن بنت خالة يحيى لا ابن خالته «وسيدا» أى يسود قومه ، وقال الضحاك : السيد : الحسن الخلق ، وقال سعيد بن جبير : السيد : الذى يطيع ربه ، وقال سعيد بن المسيب : السيد : الفقيه العالم « وحصورا » أى مبالغا فى حبس النفس عن الشهوات والملاهى . روى أنه مر وهو طفل بصبيان فدعوه للعب فقال: مااللعب خلقت ، وقال سعيد بن المسيب : الحصور هو المعسر الذى لامال له ، فيكون الحصور بمعنى المحصور ،كأنه ممنوع من النساء ، وقيل : كان له مثل هدبة الثوب ، وقد تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره . وقيل:هو الممنوع من قرب النساء مع القدرة عليه ، واختار قومه هذا القول لوجهين : أحدهما أن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء ، والثانى أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء «ونبيا من الصالحين» لأنه كان من أصلاب الأنبياء وكائنا من جملة الصالحين ،كقوله تعالى : « وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » « قال

رب إنى ، أى كيف «يكون لى غلام ، أى ابن « وقد بلغنى الكبر ، أى أدركنى كبر السن وأثر فى ، وكان عمره مائة وعشرين سنة وقيل تسعا وتسعين سنة « وامرأتى عاقر » أى لاتلد ، من العقر وهو القطع ، لأنها ذات عقر من الأولاد وكانت بنت ثمان وتسعين سنة ، فإن قيل: كيف قال زكريا بعد ماوعده الله تعالى «أنى يكون لى غلام» أكان شاكا فى وعد الله وفى قدرته ؟ أجيب بأنه قال ذلك استبعادا من حيث العادة كما قالت مريم ، أو استعظاما وتعجبا ، أو استفهاما عن كيفية حدوثه ، أى أتجعلنى وامرأتى شابين وترزقنا ولدا على الكبر منا أو ترزقنى امرأة أخرى ؟ وقيل : إن زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال : يا زكريا إن الصوت الذى سمعت ليس من الله تعالى ، إنما هو من الشيطان ، ولو كان من الله لأوحاه إليك كما يوحى إليك فى سائر الأمور ، فقال ذلك دفعا للوسوسة ، «قال «الأمر » كذلك » أى من خلق غلام منكما « الله يفعل ما يشاء » لايعجزه عنه شىء ، ولإظهار هذه القدرة العظيمة ألهمه الله السؤال ليجاب بها ، ولما شاقت نفسه إلى سرعة المبشر به « قال رب اجعل لى آية » أى علامة أعرف بها حمل امرأتى لأتلقى النعمة ـ إذا جاءت ـ بالشكر « قال آيتك » عليه « أن لاتكلم الناس » تمتنع من كلامهم « ثلاثة أيام » أى بلياليهن كما فى سورة مريم ثلاث ليال « إلا رمزا » أى إشارة بيد أو رأس ، وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع بقاء قدرته على التكليم بذكر الله ، ولذلك قال: «واذكر ربك كثيرا وسبح» أى صلّ «بالعشى» وهو من حين نزول الشمس إلى أن تغيب « والإبكار » وهو من طلوع الفجر إلى وقت الضحى ، فإن قيل : لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ أجيب بأنه إنما فعل به ذلك لتخلص المدة المذكورة لذكر الله تعالى لايشتغل لسانه بغيره ، توفيرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها التى طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر ، وأحسن الجواب وأوثقه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه ، وقال قتادة : أمسك لسانك عن الكلام عقوبة له بسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، فلم

يقدر على الكلام ثلاثة أيام . لقد كان زكريا من أنبياء بنى إسرائيل من سبط سليمان بن داود عليهم السلام ، وكان من أهله عمران بن ماثان فتزوجا بأختين ، أما عمران فقـــد رزق بمريم البتول ، وأما زكريا فلم يرزق ذرية حتى شاخ وجاوز التسعين ، وكانت مهنته نجارا قبل أن يبعث نبيا ، فانقطع للصلاة وعبادة الله بمحراب جده الأكبر داود ، فهبط الوحى عليه بالنبوة ، وكانت زوجـة عمران قد نذرت حملها لخدمة بيت الله ، وتوسلت إلى ربها أن يتقبل نذرها، فقال لها زوجها: إنك نذرت ما فى بطنك محررا لخدمة بيت الله ، فان كان أنثى كيف يكون محررا فشغلت بذلك ، فلما وضعتها قالت : « رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى» ، ثم ناجت ربها فقالت : « رب إنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» ، وقد كنت نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبلها منى. وحملتها أمها إلى بيت المقدس ، فقابلها زكريا مع جمع من عباد اليهود ، فقال لها زكريا : ما هذه ياحنه؟ قالت : ابنتى مريم ، وقد كنت نذرتها محررة قبل أن ألدها فتقبلها الله منى ، ولعلكم تقبلونها ، فأقبل الأحبار على زكريا وسألوه رأيه فيها ، فقال : ليكن لها كفيل منا إلى أن تبلغ سن خدمة المسجد فتلحق بخدمته ، وها أنا ألقى بيننا القرعة ، فلنرم أقلامنا فى عين سلوان فأينا وقف قلمه فهو كفيلها ، فرسبت أقلامهم إلا زكريا ، فقد طفا قلمه فكفلها زكريا . وحمل إليها المراضع من نساء بنى إسرائيل ، فلما كبرت بنى لها بيتا عاليا لا يصل اليه أحد إلا بسلم ، وكان زكريا وحده يزورها ويحمـل إليها طعامها ، وكان لها ابن خال اسمه يوسف بن يعقوب النجار كان من العباد المحررين ، فكان يزور مريم مع زكريا . وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله يرزق من يشاء بغـير حساب ، فاستقبل زكريا قبلة المسجد ، وعكف على التوسل والدعاء عسى أن يمن الله عليه بالذرية ، وكبر لديه الرجاء والأمل فى استجابة ربه إلى دعائه ، وقد رأى بعينه مبلغ رعاية الله لمريم ، « فقال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » ، « رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن

بدعائك رب شقيا وإنى خفت الموالى من ورائى فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل ويعقوب واجعله رب رضيا » فناجاه ربه ، وبشره بغلام اسمه يحيى ، « فقال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا » ، فقال له ربه : « هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيا قال: رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام » وولد لزكريا ابنه يحيى فنشأ فى مهد النبوة طاهرا يصلى فى محراب داود حتى كبر وتعمق فى العلم وتمكن من التوراة وأسرارها وأصولها وفروعها ، فأوحى إليه ربه بالنبوة . وكان يحيى جريئا فى الحق شديدا على الباطل . . وأحب حاكم فلسطين ابنة أخيه «هيروديا» لجمالها وحسنها الباهر ، وعزم على الزواج بها ، وشايعه على ذلك أم الفتاة وأهلها ، فأنكر يحيى ذلك الباطل المخالف للشريعة ، وأعان على الملأ حرمة ذلك الزواج وبطلانه ، وذاع خبر التحريم بين الناس حتى بلغ مسامع هيروديا ، فضاقت به واشتد بها الغم ، وعزمت فى نفسها على الانقام من يحيى ، فذهبت إلى عمها فى زينتها وتجملها والتمست منه أن يقتل يحيى الذى حرم زواجها ، واستجاب الملك إلى رغبتها وحمل إليها رأس يحيى بعد قتله ، واستجاب الله إلى دماء نبيه يحيى المهراقة ، فأنزل لعنته على بنى إسرائيل .

٤٢ — وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ .

٤٣ — يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّٰكِعِينَ .

٤٤ — ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

ثلاث آيات تصور لنا فى صورة رائعة هذه الأم العظيمة ، والمرأة المؤمنة المصطفاة ، وتتحدث عن منزلتها عند الله ، ورفعتها على نساء العالمين ، وما أمرها

به الله جل جلاله من الخضوع والطاعة والامتثال ، ويمتن الله جل جلاله على رسوله محمد صلوات الله عليه بأنه أوحى إليه أنباء الأمم القديمة ، وأخبره بأخبار الشعوب والدول ، تفضلا منه وكرما .

قوله تعالى : « وإذ قالت الملائكة » معطوف على قوله « إذ قالت امرأة عمران » متعلق بقوله قبله « والله سميع عليم » ، وهذا الخطاب ليس بشرع خصت به ، وإنما هو إلهام بمكانتها عندالله ، وبما يجب عليها من الشكر له بدوام القنوت والصلاة ، ومن اعتقد أنه مكرم اجتهد فى المحافظة على كرامته وتباعد أشد التباعد عن كل ما ينقص منها ، فقول الملائكة لها « إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » قد زادها بمقتضى سنة الفطرة تعلقا بالكمال ، كما زادها روحانية بتأثير تلك الأرواح الطيبة التى أمدت روحها الطاهرة ، والاصطفاء الأول هو قبولها محررة لخدمة الله فى بيته وكان ذلك خاصا بالرجال ، والتطهير قد فسر بعدم الحيض ، وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد . وروى أن السيدة فاطمة الزهراء ما كانت تحيض ، وأنها لذلك لقبت بالزهراء . وقيل : إنه التطهير من مسيس الرجال ، ويصح حمله على ما هو أعم من هذا وذاك ، أى طهرك مما يستقبح كسفساف الأخلاق وذميم الصفات وغير ذلك . والاصطفاء الثانى ما اختصت به من خطاب الملائكة وكمال الهداية . أو هو جعلها تلد نبيا من غير أن يمسها رجل فهو على هذا اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل بل بالإعداد والتهيئة . وقوله « على نساء العالمين » المراد به عالم زمانها ، أو جميع العالمين . وفى الأحاديث أن أفضل النساء مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إن أفضل نساء العالمين مريم كما فى الآية . إذ قيل بنبوتها ، ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خديجة أمها ، ثم عائشة ، ثم امرأة فرعون ، فإن قيل : روى الطبرانى «خير نساء العالمين مريم بنت عمران ، ثم خديجة بنت خويلد ، ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم امرأة

فرعون » ، أجيب بأن خديجة إنما فضلت فاطمة باعتبار الأمومة لا باعتبار السيادة .

« يامريم اقنتى لربك » أى أطيعيه « واسجدى واركعى مع الراكعين » أى وصلى مع المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولاتكونى فى عداد غيرهم ؛ فإن قيل : لم قدم السجود على الركوع ؟ أجيب باحتمال أنه كان كذلك فى تلك الشريعة وقيل : بل كان السجود قبل الركوع فى الشرائع كلها أو للتنبيه على أن الواو لا تقتضى الترتيب « ذلك » أى ماقصصناه عليك يامحمد من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى « من أنباء الغيب نوحيه إليك » أى من الغيوب التى لم تعرفها إلا بالوحى « وما كنت لديهم » أى عندهم « إذ يلقون أقلامهم » فى الماء أى سهامهم التى طرحوها فيه وعليها علامة على القرعة ، وقيل : هى الأقلام التى كانوا يكتبون بها التوراة ، اختاروها للقرعة تبركا بها ليعلموا « أيهم يكفل مريم » أى يحضنها ويربيها « وما كنت لديهم إذ يختصمون » فى كفالتها فتعرف ذلك فتجزيه ، وإنما عرفته من جهة الوحى ، فإن قيل : لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم من غير شبهة وترك استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم ؟ أجيب بأنه كان معلوما عندهم علما يقينا أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحى مع علمهم بأنه لاسماع له ولا قراءة ، ومثل ذلك قوله تعالى « وما كنت بجانب الغربى » ، « وما كنت بجانب الطور » ، « وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم » .

وقد تعرض القرآن الكريم للمسيح وقصة ولادته فى عدة سور وعدة آيات . بل كان من هذه السور ماهو خاص به ؛ فسورة « آل عمران » سميت باسم « عمران » والد مريم . وسورة « مريم » سورة خاصة بميلاد المسيح وما قيل فيه . وفى كل هذه الآيات يقف القرآن من « المسيح » موقفا كريما كما يقف « محمد » من « عيسى » عليهما السلام موقف أخ كريم من أخ كريم ، يعرض معجزاته وما أظهره الله من الآيات البينات على يديه ويدفع بشدة كل ما قيل من التشكيك فى ميلاده ، ويقرر أن الله حفظه من أعدائه فلم ينالوه

بسوء ، ولم يستطيعوا أن يستطيلوا عليه بأذى حتى ليقرر القرآن الكريم عدم وقوع القتل والصلب ، ويقرر أن الذى عانى هذا العذاب هو منافق ممن أظهر الإخلاص ، للمسيح ثم خانه ودل أعداءه عليه فكان جزاؤه أن قتل وصلب . أما المسيح نفسه فقد رفعه الله إليه « وكان الله عزيزا حكيما » ففى سورة « آل عمران » أن الله اختار أسرة « آل عمران » كما اختار أسرة « إبراهيم » ليجعل فيها الحكم والنبوة ، فامرأة « عمران » جدة « المسيح » عليه السلام تحس الحمل بمريم ، فتقف فى صلاتها خاشعة تقدم حملها نذرا خالصا محررا لخدمة بيت المقدس وخدمة الدين . وكانت ككل النساء ترجو أن يكون حملها ذكرا ، فلما وضعتها أنثى قامت فى صلاتها مقام المعتذر وسمتها « مريم » ومعناها بالعبرية العابدة أو الخادمة ، ودعت لها أن يحفظها الله ويحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم .

إن الولد قادر على حفظ نفسه أما الأنثى فضعيفة فى نظر أمها على الأقل ، فهى أحوج من الولد إلى رعاية الله وحياطته . وتنطق آيات الكتاب الكريم صريحة بولادة «مريم» طاهرة مطهرة موهوبة لله خالصة هى وذريتها للعبادة « إذ قالت امرأة عمران : رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

ولدت مريم وقدمتها أمها إلى الأحبار فى بيت المقدس ، واختلفوا فى أيهم يكفلها ويربيها ، فاقترعوا على ذلك بأقلامهم يلقونها فى النهر ، فمن طفا قلمه فهو الكافل والقيم ، فتكفلها « زكريا » ورباها تربية حسنة وأنبتها نباتا حسنا ، وكثر خير زكريا ببركتها ، وكلما سألها عن هذا الرزق قالت : هو من عند الله ، ذلك هو ما تنطق به آيات « آل عمران » ، « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد

عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ! إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، نشأت مريم هذه النشأة الكريمة فشفت روحها وأحست الإلهام يلقى فى روعها ، بل أنصتت إلى من يناديها أن الله اختارها لرسالة عالية ، أو لأن تكون أصلا لهذه الرسالة ، وأزالله طهرها من الخطيئة ومن مسيس الرجال ، وأن من واجبها أن تقوم لله شاكرة قانتة راكعة ساجدة « إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يامريم : اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » .

ويلاحظ أن الآية تكرر كلمة « اصطفاك » مرتين ؛ لتشير أولا إلى أن الاصطفاء كان بنذرها لله وإن كانت أنثى ، لأن عادتهم فى النذر المقدس أن يكون مقصورا على الذكور ، وإلى أن الاصطفاء ثانيا كان فى ولادتها « المسيح » ، هذه الولادة التى عدت آية من آيات الله خصت بها « مريم ابنة عمران » . تنصت « مريم » مرة ثانية إلى من يناديها ببشرى ولادة المسيح : « إذ قالت الملائكة يا مريم ، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » فابن عباس يقول : « الكلمة » هى « عيسى » عليه السلام » وإنما سمى كلمة لأنه وجد عن الكلمة التى هى « كن » إشارة إلى الآية التى فى سورة « مريم » « إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » فالمسيح فى هذه الآية وجد بكلمة من الله ، والمسيح وجيه رفيع فى الدنيا والآخرة ، والمسيح من المقربين الصالحين ، والمسيح مؤيد بالمعجزة ، فقد أوتى الحكم صبيا وكهلا . ولكن « مريم » تدهش لهذه البشرى ؛ تريد أن تصدقها والواقع ينكرها . فتناجى ربها وتقول : « رب أنى يكون لى ولد ؟ ولم يمسسنى بشر » ثم تنصت ثالثة إلى صوت الحق يمن عليها فى تلطف واقتدار : « قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » .

٤٥ – إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ .

٤٦ – وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

٤٧ – قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ .

٤٨ – وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ .

٤٩ – وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

٥٠ – وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

٥١ – إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ .

٥٢ – فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

٥٣ — رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ .

٥٤ — وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ .

عشر آيات من آيات هذه السورة الكريمة ، فيها تصوير حي لقصة ميلاد المسيح عيسى بن مريم ، وما وقع له من معجزات فى المهد وقصة حياته ونبوته ورسالته ، ودعوته إلى الله ، وكفر اليهود به ، ومكرهم وإيذائهم له ، ونسب عيسى إلى أمه تنبيها على أنها ولدته بلا أب ، وعادة الأبناء نسبتهم إلى آبائهم لا إلى أمهاتهم ، وبنسبته إليها فضلت واصطفيت على نساء العالمين ، وكذلك كانت نسبته إلى أمه للدلالة على أنه بشر لا إله معبود . والمسيح لقب من الألقاب المباركة المشرفة كالصديق والفاروق، ومعناه المبارك، وأصله (مشيحا) بالعبرانية.

هذا وفى لفظ (كلمة) أربعة وجوه :

١ — أن المراد بالكلمة كلمة التكوين لا كلمة الوحى . ذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن البارى عز وجل مما يعلو عقول البشر عبر عنه سبحانه بقوله « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ، فكلمة « كن » هى كلمة التكوين وسيأتى تفسيرها ، وهنا يقال: إن كل شىء قد خلق بكلمة التكوين ، فلماذا خص المسيح باطلاق الكلمة عليه ؟ وأجيب عن ذلك : بأن الأشياء تنسب فى العادة والعرف العام فى البشر إلى أسبابها ، ولما فقد فى تكوين المسيح وعلوق أمه به ماجعله الله سببا للعلوق ، وهو تلقيح ماء الرجل لما فى الرحم من البيوض التى يتكون منها الجنين، أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله ، وأطلقت الكلمة على المكون إيذانا بذلك . أو جعل كأنه نفس الكلمة مبالغة . وهذا هو الوجه المشهور .

٢ — أنه أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارة الأنبياء به ، فهو قد عرف

بكلمة الله أى بوحيه لأنبيائه . والكلمة تطلق على الكلام كقوله « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين » الخ .

٣ — أنه أطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد إيضاحه لكلام الله الذى حرفه قومه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين ماديا محضا . قال الرازى: وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بظل الله ونور الله ، لما أنه سبب لظهور ظل العدل ونور الإحسان ، قال : فكذلك كان عيسى سببا لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته له وإزالة الشبهات والتحريفات عنه .

٤ — أن المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمه، فقوله «بكلمة منه» معناه بخبر من عنده أو بشارة ، وهو كقول القائل: ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها، بمعنى أخبرنى خبرا فرحت به ، قاله ابن جرير واستشهد له بقوله « وكلمته ألقاها إلى مريم » يعنى بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها ، فتأويل القول : وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هى ولد لك اسمه المسيح عيسى بن مريم ، ثم قال مستدلا على هذا ما نصه : ولذلك قال عز وجل : « اسمه المسيح » فذكر ولم يقل اسمها فيؤنث ، والكلمة مؤنثة ، لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذى هو بمعنى فلان ، وإنما هى بمعنى البشارة ، فذكرت كنايتها كما تذكر كناية الذرية والدابة والألقاب .

أما لفظ المسيح فمعرب ، وأصله العبرانى (مشيحا) بالمعجمة ومعناه الممسوح وهو لقب الملك عندهم ، لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى الملك بالدهن المقدس ، وهم يعبرون عن تولية الملك بالمسح وعن الملك بالمسيح، وقد اشتهر أن أنبياءهم بشروهم بمسيح يظهر فيهم ، وأنهم كانوا يعتقدون أنه ملك يعيد إليهم ما فقدوا من السلطان فى الأرض ، فلما ظهر عيسى عليه السلام وسمى بالمسيح آمن به قوم ، وقالوا : إنه هو الذى بشر به الأنبياء ، ولا يزال سائر اليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها ، وأنه لابد أن يظهر فيهم ملك. والناس إنما يولون الملك عليهم لأجل تقرير العدل فيهم ورفع أثقال الظلم عنهم ، وقد فعل المسيح ذلك ، فإن اليهود كانوا عند بعثته فيهم متمسكين بظواهر

ألفاظ الكتاب وخاضعين لأفهام الكتبة والفريسيين وأوهامهم ، حتى أرهقهم ذلك عسرا وتركهم يئنون من الظلم وأثقال التكاليف ، فرفع المسيح ذلك عنهم بإرجاعهم إلى مقاصد الدين وحملهم على الأخوة الرافعة للظلم . وقد نقلوا عنه ما يفيد هذا المعنى ، وهو أن مملكته روحانية لا جسدية . ويجوز أن يكون لفظ المسيح هنا أجرى مجرى العلم لا مجرى الوصف ، والعلم المشتق لا يشترط فيه أن يكون مسماه متصفا بالمعنى الذى يدل عليه إذا استعمل وصفا ، فإذا وضعت لفظ « على » علما على رجل يصير مدلوله شخص ذلك الرجل سواء كان ذا علو أم لا ، وإذا سميت ابنتك « ملكة » لم يكن لأحد أن يفسر اللفظ بالمعنى الذى وضع له اللفظ قبل العلمية . وقد يجوز أن يلمح المعنى الذى ينقل لفظه إلى العلمية أحيانا ، وقد ذكر المفسرون بضعة وجوه لتفسير لفظ المسيح بناء على أنه مشتق من المسح ، ولا حاجة إلى ذكر شىء منها . . وأما لفظ عيسى فهو معرب (يشوع) ، وإنما قيل « ابن مريم » مع كون الخطاب لها إعلاما لها بأنه ينسب إليها لأنه ليس له أب ، ولذلك قالت بعد البشارة « رب أنى يكون لى ولد » الخ ، ونفيا للألوهية عنه .

وقوله تعالى فى وصفه « وجيها فى الدنيا والآخرة » أى أنه يكون ذا وجاهة وكرامة فى الدارين ، فالوجيه ذو الجاه والوجاهة ، والمادة مأخوذة من الوجه ، حتى قالوا : إن لفظ الجاه أصله وجه ، وذو الجاه يسمى وجها كما يسمى وجيها ، ويقال إن لفلان وجها عند السلطان ، كما يقال : إن له جاها ووجاهة ، وكأن الأصل فى الوجيه من يعظم ويحترم عند المواجهة ، لما له من المكانة فى النفوس ، ويقول الغزالى : الجاه ملك القلوب . هذا وكون المسيح ذا جاه ومكانة فى الآخرة ظاهر ، وأما وجاهته فى الدنيا فهى قد تكون موضع إشكال لما عرف من امتهان اليهود له ومطاردتهم إياه على فقره وضعف عصبيته ، والجواب عن ذلك سهل ، وهو أن الوجيه فى الحقيقة من كانت له مكانة فى القلوب ، واحترام ثابت فى النفوس ، ولا يكون أحد كذلك حتى يكون له أثر حقيقى ثابت من شأنه أن يدوم بعده زمنا طويلا أو غير طويل ؛

ولا ينكر أحد أن منزلة المسيح فى نفوس المؤمنين به كانت عظيمة جدا ، وأن ما جاء به من الإصلاح هو من الحق الثابت ، وقد بقى أثره بعده ، فهذه الوجاهة أعلى وأرفع من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون فى الظاهر لظلمهم واتقاء شرهم ، أولدهانهم والتزلف إليهم ، رجاء الانتفاع بشىء مما فى أيديهم من عرض الحياة الدنيا ، لأن هذه وجاهة صورية لاأثر لها فى النفوس إلا الكراهة والبغض والانتقاص ، وتلك وجاهة حقيقية مستحوذة على القلوب . وحقيقة الوجاهة فى الآخرة هى أن يكون الوجيه فى مكان على ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها فيجلونه ويعلمون أنه مقرب من الله تعالى .

ومعنى قوله « ومن المقربين » أى هو مع ذلك من عباد الله المقربين إليه عز وجل ، ولقد جاء فى قصة حمل مريم أنه كان معها فى خدمة المسجد ابن خالها يوسف النجار وكان رجلا صالحا يتصدق على الفقراء بما يعمل به ، وكان هو ومريم إذا نفد الماء من قلته أخذ كل واحد قلته وذهب إلى المغارة التى فيها الماء يستقيان منه ، ثم يعودان إلى المعبد ، فلما جاء اليوم الموعود نفد من مريم ماء قلتها فقالت ليوسف : ألاتذهب معى نستق ؟ فقال إن لدى فضلة من ماء تكفينى غدا فقالت : ولكنى والله ليس عندى ماء ، وأخذت قلتها وانطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فرأت جبريل فى صورة رجل ، فقال لها : يامريم إن الله بعثنى إليك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ؟ قال كذلك ، قال ربك هو عليه هين ، ولكى يجعله آية للناس ورحمة ، فحملت مريم بعيسى ، ولما تبين حملها داخلها الغم وتحقق لديها أن بنى إسرائيل لن يكفوا عن رميها بالمنكر ، فنادتها الملائكة : يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ، إن الله يبشرك بكلمة منه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل ، فطابت نفسها ، وهدأ خاطرها ، واستأنست بقول ربها ، وكان أول من رأى دلائل الحمل عليها يوسف النجار

فاستعظمها ولم يدر كيف يضع أمرها ، فكان إذا أراد أن يرميها بالمنكر ذكر صلاحها وعبادتها وتقواها ، فلما اشتد به الهاجس خاطبها وقال : هذا الذى فى بطنك من أبوه ؟ فقالت : هذا هبة الله لى ومثله كمثل آدم خلقه الله من تراب ، فلما دنا وقت الولادة خرجت مريم فى جوف الليل من دار زكريا وأبعدت عن بيت المقدس ، فلما جاءها المخاض جلست تحت جذع نخلة وقالت : ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، فسمعت نداء يقول لها : لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترينّ من البشر أحداً فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ، فلما وضعت عيسى أتت به قومها تحمله ، فلما نظروا إليها دمعت أعينهم وقالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا ، ياأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ قال : إنى عبدالله ، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .. فلما سمع ذلك أحبار اليهود علموا أنه لا أب له ، وأن الله تعالى خلقه كما خلق آدم ، فقال زكريا : إنى لأحمد ربى على أن أظهر براءة مريم حين تكلم ولدها عيسى ، قال المؤرخون من أهل السير : إن سبب خروج مريم إلى مصر أن الملك هيرودس سمع بحكاية مريم وولدها عيسى عليهما السلام فهم بقتلهما ، فخاف زكريا وبقية المؤمنين عليهما من القتل وقال زكريا لمريم : إنى أخاف عليك وعلى ابنك من هذا الملك ، فسار بهما يوسف النجار إلى مصر ، فلما بلغوها ، كانت مريم تغزل الكتان والصوف وتأكل من أجرها ، وكان يوسف يحتطب ويبيع الحطب ، وأقاموا بمصر بضع سنين ثم عادوا إلى فلسطين ، فنزلوا قرية الناصرة ، وقامت مريم بالعناية بوليدها . فلحق بمعلم القرية وجعل يستمع إلى حديثه فى جد واهتمام ، ويصغى إلى دروسه فلا تغيب عنه شاردة ، فلما بلغ الثانية عشرة ألقى بنفسه فى حلقات العلوم ، يستمع من العلماء وينصت إلى أحاديث الكهنة وآرائهم ، ولكنه كان يجادلهم ويباحثهم فى كل مسألة ، ولا يمل

الدرس والتنقيب وراء الحقيقة ، حتى لقد استهوته مناقشة الحكماء ومذاكرة العلماء ، ولما بلغ الثلاثين من عمره كان مبدأ رسالته وفاتحة نبوته عليه السلام ، وتلقى من ربه كتابه الذى جاء مصدقا لما سبقه من التوراة ، وكان اليهود قد ظهر عليهم الزيغ من شريعة أبيهم موسى وحرفوا شريعته ، وأصبح أكبر همهم جمع المال . وظهرت بين اليهود طائفة تنكر البعث ، وتستبعد الحشر ، وكذبوا الحساب والعقاب ، وتعددت طوائفهم التى زاغت عن العقيدة السليمة ، فانبرى لهم عيسى لهدايتهم وردهم إلى الإيمان القويم ، ويحذرهم من عاقبة الضلال ، ويذكرهم بما نزل بهم من الكوارث والتدمير عقاباً لهم على طغيانهم وخروجهم عن العقيدة الطاهرة ، فحقد اليهود على عيسى وكرهوا وقوفه فى وجه سيئاتهم ، وتشهيره بمنكراتهم وطالبوه بما يؤيد رسالته من المعجزات ، فأيده الله بآياته البينات ، فصار يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وكان يبرىء الأكمه وهو الذى ولد أعمى ويشفى الأبرص ويحيي الموتى باذن الله ، وكلما رأوا من آيات الله تلك المعجزات التى أظهرها عيسى ازدادوا عماية وطغيانا ، وزعموا أن ذلك من أعمال السحر . ولكن الدعوة إلى المسيحية كانت قد تغلغلت فى قلوب الكثيرين من الناس ، وكان ذلك حافزا للمسيح عليه السلام أن يرحل إلى بيت المقدس فدخلها يوم عيدهم ، وعرض الدعوة على القادمين من القرى والنازحين من المدن والأطراف ، فتفتحت القلوب للإيمان وكثر أنصاره وتضاعف أتباعه ، ثم عاد إلى الطواف بالقرى والبلاد ومعه الحواريون ، يدعو إلى ربه ويبشر برسالته ، ونزل عليه الإنجيل ، فاشتدت الدعوة إلى الله وترغيبهم فى جنته وتزهيدهم فى متاع الدنيا ، فأحبه الناس وأحاطوا به ، فقد مر على قوم يصيدون السمك وكانوا أربعة فوعظهم وزهدهم فى الدنيا ووعدهم الجنة ، فآمنوا به واتبعوه ، ثم مر بطائفة أخرى ، وكانوا على نهر يغسلون الثياب . منهم لوقا وتوما ومرقص ويوحنا وسمعان ويعقوب ، فقال لهم : يا قوم إنكم تغسلون الثياب وتنظفونها من أوساخها ، فلِمَ لا تفعلون ذلك مع قلوبكم ، ثم قال لهم : إنى رسول الله إليكم جميعا ، وبشر من يؤمن بجنة الله ، وكانوا هم الأنصار والحواريين ، وكان من معجزات

عيسى عليه السلام أنه كان يخبر الناس بما يأكلون وبما يدخرون فى بيوتهم، وسأل بنو إسرائيل عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء فقال لهم : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، فقام عيسى وصلى لله وابتهل وقال : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . فاستجاب الله دعاءه وأخبره أنه منزلها عليهم ، فمن يكفر بعد ذلك فسيعذبه الله العذاب الأليم ، وأوحى الله إلى عيسى أنه سيتوفاه ويرفعه إلى السماء، فحدث عيسى الحواريين وقال: هذا زمان يقبض الله فيه الراعى وتتفرق الرعية من بعده ، فعرفوا أنه يعنى نفسه ، فجزعوا وبكوا فقال: لا تبكوا من ألم الفراق فستلقون بعدى ما هو أشد وأنكى . وطلبه اليهود ليقتلوه فاستخفى منهم ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . وهكذا نجد القرآن الكريم ساميا فى تصويره للحقائق وللتاريخ ، يعرض علينا قصة عيسى بأطرافها وملامحها كاملة ، كما قص علينا أخبار الحقبة التى بين عيسى ومحمد عليهما السلام بالتفصيل ، فقص علينا قصة أهل الكهف وأصحاب الأخدود وغزو أبرهة لمكة ، كما أخبرنا عن عيسى عليه السلام بأشياء لم يتناولها الإنجيل ، مثال ذلك تكليم عيسى الناس فى المهد ، ونزول مائدة عليه من السماء ، وتكوينه من الطين على هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله . وقد اعترف الإنجيل نفسه أنه لم يلم بكل معجزات عيسى ، يقول يوحنا فى إنجيله « وأشياء كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة »[1].

« ويكلم الناس فى المهد » أى صغيرا ، قبل أوان الكلام كما ذكر فى سورة مريم « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب » الآية ، وحكى عن مجاهد قال : قالت مريم كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدثنى وحدثته ، والمهد ما يمهد للصبى من مضجعه.

وقوله تعالى « وكهلا » عطف على « فى المهد » أى يكلم الناس فى هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولية وحال الكهولية ، التى

(١) الاصحاح الحادى والعشرين بانجيل يوحنا — العهد الجديد .

يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء ، وقد رفع بعد كهولته ، وقيل إنه رفع شابا ، وعلى هذا المراد كهلا أى بعد نزوله ، وذكر تعالى أحواله المختلفة المتنافية إرشادا إلى أنه بمعزل عن الألوهية ، فإن قيل : فما فائدة البشارة بكلامه كهلا والناس فى ذلك سواء ؟ أجيب بأنه بشرها بأنه يبقى إلى أن يصير كهلا ، وبعدم التفات بين الحالين كما مر ، وقوله تعالى « ومن الصالحين » أى من عباد الله الصالحين ، فان قيل : لم ختم الصفات المذكورة بقوله « ومن الصالحين » ؟ بعد أن ذكر أن الوجاهة فى الدنيا فسرت بالنبوة ، ولاشك أن النبوة أرفع من منصب الصلاح ، بل كل واحدة من الصفات المذكورة أشرف من كونه صالحا ، أجيب بأنه لايكون كذلك إلا ويكون فى جميع الأفعال والنزول مواظبا على المنهج الأصلح ، وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ، ولهذا قال نبى الله سليمان عليه الصلاة والسلام بعد النبوة : « وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » فلما عدد صفات عيسى عليه الصلاة والسلام أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات « قالت رب » أى سيدى ـ تقوله لله عز وجل ، وقيل : تقوله لجبريل قاله البغوى « أنى » أى كيف « يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » أى ولم يصبنى رجل بتزوج ولا غيره ، قالت ذلك تعجبا ؛ إذ لم يكن جرت العادة بأن يولد مولود بلا أب ، أو استفهاما عن أنه يكون بتزوج أو غيره « قال » الأمر « كذلك » من خلق ولد منك بلا أب « الله يخلق ما يشاء » القائل جبريل أو الله ، وجبريل حكى لها قوله تعالى « إذا قضى أمرا » أى أراد كون شىء « فإنما يقول له كن فيكون » أى فهو يكون ، لأنه كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجا بأسباب ومقدمات يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك ، فنفخ جبريل فيها فحملت ، وكان من أمرها ما ذكر فى سورة مريم .

وقوله تعالى « ونعلمه الكتاب » أى الكتابة « والحكمة » أى العلم المقيد بالعمل « والتوراة والإنجيل » كلام مستأنف ذكر تطييبا لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم حين علمت أنها تلد من غير زوج ، وقيل : المراد بالكتاب

جنس الكتب المنزلة ، وخص الكتابان المذكوران بالذكر لفضلهما « ورسولا إلى بني إسرائيل » أي ونجعله رسولا، إما في الصبا أو بعد البلوغ ، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف ، وآخرهم عيسى عليهم السلام ، ولما بعث إليهم قال لهم : إني رسول الله إليكم « إني » أي بأني « قد جئتكم بآية » أي علامة « من ربكم » تصدق قولي، وإنما قال بآية وقدأتى بآيات لأن الكل دل على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة ، ولما قال ذلك لبني إسرائيل قالوا : وماهي ؟ قال هي « أني أخلق » أي أصور « لكم من الطين كهيئة الطير » أي مثل صورته فيصير طيرا كسائر الطيور « فأنفخ فيه » أي في ذلك المماثل أي في فيه « فيكونه طيرا بإذن الله » أي بإرادته ، نبه بذلك على أن إحياءه من الله لامنه .

قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله ، وليعلم أن الكمال لله عز وجل « وأبرىء » أي أشفي « الأكمه » وهو الذي ولد أعمى أو ممسوح العينين ، « والأبرص » وهو الذي به برص وهو بياض شديد في الجلد يذهب به دمويته . وإنما خص هذين المرضين بالذكر لأنهما من الأمراض المستعصية ، وكان الغالب في زمن عيسى الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك ، قال وهب : ربما اجتمع على عيسى من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفا ، وماكانت مداواته إلا بالدعاء وحده على شرط الإيمان ، وإنما قال ثانيا « وأحيي الموتى بإذن الله » وكرر بإذن الله دفعا لتوهم الألوهية فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية ، قال ابن عباس قد أحيي عيسى أربعة أنفس منهم عازر ، وكان صديقا له ، فأرسلت أخته إلى عيسى: إن إخاك عاذراً يموت ، وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره ، فانطلقت معهم إلى قبره فدعا الله، فقام وخرج من قبره وبقي وولد له ؛ وممن أحياهم سام بن نوح؛ فإن عيسى جاء إلى قبره ودعا فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة، وما كانوا يشيبون في ذلك الزمان، فقال: قد قامت القيامة؟ فقال: لا ولكن دعوت الله فأحياك، ثم قال: مت ، قال: بشرط أن يعيذني الله من سكرات

الموت، فدعا الله تعالى ففعل به « وأنبئكم » أى أخبركم « بما تأكلون » مما لم أعاينه « وماتدخرون » أى تخبئون « فى بيوتكم » حتى تأكلوه ؛ فكان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما أكل اليوم وبما ادخره للعشاء ، وقال السدى : كان عيسى فى الكتاب يحدث الغلمان بما تصنع آباؤهم ويقول للغلام : انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ، ورفعوا لك كذا وكذا فينطلق الصبى إلى أهله ويبكى عليهم حتى يعطوه ذلك الشىء ، فيقولون: من أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى، فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لهم : لاتلعبوا مع هذا الساحر ، فجمعوهم فى بيت ، فجاء عيسى يطلبهم فقالوا: ليسوا هاهنا ، فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر « إن فى ذلك » الذى ذكرت « لآية لكم إن كنتم مؤمنين» أى مصدقين للحق غير معاندين .

وقوله تعالى « ومصدقا » أى وجئتكم مصدقا « لما بين يدى » أى قبلى « من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » فيها فى شريعة موسى عليه السلام ؛ فأحل لهم أكل الشحوم ، والسمك ، ولحوم الإبل ، والعمل فى السبت ، وقيل: أحل الجميع؛ فإن قيل : كيف يكون مصدقا للتوراة ، والإحلال يدل على أن شرعه كان ناسخا لشرع موسى ، أجيب بأن ذلك لايخل بكونه مصدقا للتوراة ، كما لايعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بيناقض وتكاذب ، فإن النسخ فى الحقيقة بيان وتخصيص فى الزمان ؛ وإنما كرر « وجئتكم بآية من ربكم » للتأكيد وليبنى عليه « فاتقوا الله » أى فى مخالفة أمره ، أى جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم من خلق الطير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيات وبغيره من ولادتى بغير أب ومن كلامى فى المهد وغير ذلك ، فهى فى الحقيقة آيات ، وإنما وحدها لأنها كلها جنس واحد فى الدلالة على رسالته « وأطيعون » أى فيما أدعوكم إليه من توحيد الله وطاعته .. وقيل فى قوله تعالى « وأخلق لكم من الطين كهيئة الطير » إن الخلق معناه التقدير والترتيب لا الإنشاء والاختراع ، ويقرب أن يكون هذا إجماعا من المفسرين ، وفسره الجلال هنا بالتصوير لأنه من

التقدير، أنه كان يتخذ من الطين صورة خفاش فينفخ فيها فتحلها الحياة وتتحرك في يده ، وقد جرت سنة الله تعالى أن تجرى الآيات على أيدى الأنبياء عند طلب قومهم لها وجعل الإيمان موقوفا عليها ؛ فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد جاء به . والحكمة فى إخبار النبى صلى الله عليه وسلم بذلك إقامة الحجة على منكرى نبوته كما تقدم .

وروى ابن جرير عن ابن اسحاق « أن عيسى صلوات الله عليه جلس يوما مع غلمان من الكتاب فأخذ طيناثم قال: أجعل لكم من هذا الطين طائرا ، قالوا: وتستطيع ذلك ؟ قال: نعم بإذن ربى، ثم هيأه حتى إذا جعله فى هيئة الطائر فنفخ فيه ثم قال: كن طائرا بإذن الله، فخرج يطير بين كفيه . وآية سورة المائدة تؤيد ذلك ، وهى قوله تعالى : « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وإذ تبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات » فإن جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه .

إن روحانية عيسى كانت غالبة على جثمانيته أكثر من سائر الروحانيين ؛ لأن أمه حملت به من الروح الذى تمثل لها بشرا سويا ، فكان تجرده من المادة الكثيفة المتصرف بسلطان الروح من قبيل الملكة الراسخة فيه ، وبذلك كان إذا نفخ من روحه فى صورة رطبة من الطين تحلها الحياة حتى تهتز وتتحرك ، وإذا توجه بروحانيته إلى روح فارقت جسدها أمكنه أن يستحضرها ويعيد اتصالها ببدنها زمنا ما ، ولكن روحانية البشر لا تصل إلى درجة إحياء من مات فصار رميما ، ويؤيد ذلك ماينقله النصارى من إحياء المسيح للموتى ، فإنهم قالوا : إنه أحيا بنتا قبل أن تدفن وأحيا اليعازر قبل أن يبلى ، ولم ينقل أنه أحيا ميتاً كان رميما . وأما إبراء الأكمه والأبرص بالقوة الروحانية فهو أقرب إلى مايعهد الناس ، لاسيما مع اعتقاد المريض ، ويقول مجاهد : إن الأكمه من لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار .

والمشهور أنه من ولد أعمى . وأما الإخبار ببعض المغيبات فقد أوتيه كثيرون من الأنبياء ومن دون الأنبياء . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، أى إن فيما ذكر لحجة لكم على صدق رسالتى إن كنتم مؤمنين بالله مصدقين بقدرته الكاملة .

« إن الله ربى وربكم » لأن جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه « فاعبدوه » أى لازموا طاعته التى هى الإتيان بالأوامر والانتهاء عن النواهى « هذا » الذى دعوتكم إليه « صراط » أى طريق « مستقيم » أى هو المشهود له بالاستقامة ، روى الإمام أحمد وغيره أن رجلا قال يا رسول الله : مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعد ، قال : قل آمنت بالله استقم .

ولما قال لهم عيسى ذلك كذبوه ولم يؤمنوا به ، كما قال تعالى : « فلما أحس عيسى » أى أعلم « منهم الكفر » علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس « قال من أنصارى » أى أعوانى ، وقوله «إلى الله» أى من أنصارى ذاهبا إلى الله ملتجئا إليه لأنصر دينه ، وقيل : إلى هنا بمعنى مع أو فى أو اللام « قال الحواريون نحن أنصار الله » أى أعوان دينه ، واختلفوا فى الحواريين فقال السدى : لما بعث الله تعالى عيسى إلى بنى إسرائيل كذبوه وأخرجوه ، فخرج هو وأمه يسيحان فى الأرض فنزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما ، وكان فى تلك المدينة جبار فجاء ذلك الرجل يوما مغتما حزينا فدخل منزله ومريم عند امرأته، فقالت لها مريم: ما شأن زوجك أراه كئيبا قالت : لا تسأليني ، قالت: أخبريني لعل الله يفرج كربته ، قالت : إن لنا ملكا يجعل على كل رجل منا يوما أن يطعمه وجنوده ويسقيهم خمرا ، فإن لم يفعل عاقبه ، واليوم نوبتنا وليس لذلك عندنا سعة ، قالت : فقولى له لا يهتم ، فإنى آمر ابنى فيدعو له فيكفى ذلك ، قالت مريم لعيسى فى ذلك ، قال عيسى : إن فعلت ذلك وقع شر ، قالت : فلا تبالى لأنه قد أحسن إلينا وأكرمنا ، قال عيسى : قولى له إذا اقترب ذلك الجبار فاملأ قدورك وأوانيك ماء ثم أعلمنى ، ففعل ذلك ، فدعا الله عيسى فتحول ماء القدور مرقا ولحما وماء الأوانى خمرا لم ير الناس مثله قط ، فلما جاء الملك أكل

فلما شرب الخمر قال : من أين هذا الخمر ؟ قال : من أرض كذا ، قال : فإن خمرى من تلك الأرض وليست مثل هذه ، قال : هى من أرض أخرى ، فلما خلط على الملك اشتد عليه ، قال : فأنا أخبرك عندى غلام لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وقد دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا ، وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام ، وكان أحب الخلق إليه ، فقال : إن رجلا دعا الله فجعل الماء خمرا ليجاء به إلى حتى يحيى ابنى ، فدعا بعيسى إليه فكلمه فى ذلك فقال : لا أفعل ، فإنه إن عاش وقع شر ، قال الملك : لا عليك ، قال عيسى : إن أحييته تتركنى أنا وأمى نذهب حيث نشاء قال : نعم ، فدعا الله تعالى فعاش الغلام ؛ فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا : أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتتلوا ، وذهب عيسى وأمه فمرا بالحواريين وهم يصطادون السمك فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : نصطاد السمك قالوا : ومن أنت ؟ قال : عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، فقالوا « آمنا » أى صدقنا « بالله واشهد » يا عيسى « بأنا مسلمون » لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم « ربنا آمنا بما أنزلت » من الإنجيل « واتبعنا الرسول » عيسى « فاكتبنا مع الشاهدين » لك بالوحدانية أو مع النبيين الذين يشهدون لأتباعهم أو مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم شهداء على الناس ، وقال الحسن : كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم يحورون الثياب أى يبيعونها ، وعلى الأول سموا حواريين لبياض ثيابهم ، وقال عطاء : سلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى ، فكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين ، فدعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر فقال : يا عيسى إنك قد تعلمت هذه الصناعة وأنا خارج فى سفر لا أرجع إلا بعد عشرة أيام ، وهذه ثياب مختلفة الألوان ، وقد علمت على كل واحد منها بخيط على اللون الذى يصبغ به ، فيجب أن تكون فارغا منها عند قدومى وخرج ، فطبخ عيسى لونا واحدا وأدخل فيه جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك ، فقدم الحوارى والثياب كلها فى إناء ذى لون واحد فقال : ما فعلت ؟ قال : فرغت منها ، قال : كلها ، قال : نعم ،

قال : لقد أفسدت تلك الثياب ، فقال : قم فانظر فأخرج عيسى ثوبا أصفر وثوبا أحمر إلى أن أخرجها على الألوان التى أرادها ، فجعل الحوارى يتعجب ويعلم أن ذلك من الله ، فقال للناس : تعالوا فانظروا . فآمن هو وأصحابه ، فهم الحواريون ؛ وقال الكلبي وعكرمة : الحواريون الأصفياء ، وهم كانوا أصفياء عيسى وأول من آمن به ، وكانوا اثنى عشر ، من الحور وهو البياض الخالص، وحوارى الرجل صفوته وخاصته .

قال الله تعالى « ومكروا » أى كفار بنى إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر به ، وذلك أن عيسى عليه السلام بعد إخراج قومه وإياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله ، واجتمعوا على الفتك به ووكلوا من يقتله غيلة ، فيذهب به إلى موضع فإذا صار إليه قتله ، فذلك مكرهم ، إذ المكر من المخلوق الخبث والخديعة والحيلة ، وأما من الخالق وهو قوله تعالى « ومكر الله » أى بهم وهو خير الماكرين . أى أعلمهم به ، قال الزجاج : أى يجازيهم على مكرهم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه فى مقابلته كقوله تعالى « الله يستهزىء بهم » « وهو خادعهم » ؛ ومكر الله تعالى بهم فى هذه الآية بأن ألقى شبهه على صاحبهم الذى أراد قتل عيسى حتى قتل .

٥٥ — إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

٥٦ — فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ .

٥٧ — وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ

لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٥٨ — ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ .

٥٩ — إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ .

٦٠ — ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ .

٦١ — فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ .

٦٢ — إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

٦٣ — فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ .

فى هذه الآيات التسع تصوير لنهاية عيسى عليه السلام ، ورفعه إلى السماء ، واختلاف الناس فى أمره . . وفيها تأكيد لأمر عيسى كما قصه القرآن الكريم ، وذلك لنفى ألوهيته ، وإثبات بشريته ، وتأكيد قصته كما قصها الله جل جلاله فى القرآن الحكيم .

وقوله تعالى « إنى متوفيك » أى مستوفى أجلك ، ومعناه إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ، ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ؛ وسوف أميتك حتف أنفك ، لا قتلا بأيديهم ، أو قابضك من الأرض ، من توفيت مالى أى قبضته ، أو متوفيك نائما كما قال تعالى « وهو الذى يتوفاكم بالليل » إذ روى أنه رفع نائما ، أو ممسكا عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت الأعلى ، والتوفى فى اللغة أخذ الشىء وافيا تاما ، ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة قال تعالى « الله

يتوفى الأنفس حين موتها » وقال : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » فالمتبادر فى الآية : إنى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى، كما قال فى إدريس عليه السلام « ورفعناه مكانا عليا » ، والله تعالى يضيف إليه مايكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده ، كما قال فى الشهداء « أحياء عند ربهم » ، وقال : « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » وأما تطهيره من الذين كفروا فهو إنجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرومونه منه ويريدونه به من الشر .

هـذا هو المتبادر من العبارة . ويقول بعض المفسرين « إنى متوفيك » أى منومك ، وبعضهم: إنى قابضك من الأرض بروحك وجسدك « ورافعك إلى » بيان لهذا التوفى ، وبعضهم: إنى أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك، وأميتك حتف أنفك ثم أرفعك إلى ، ونسب هذا القول إلى الجمهور، وللعلماء ههنا طريقتان : إحداهما وهى المشهورة أنه رفع حيا بجسمه وروحه، وأنه سينزل فى آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى ، ولهم فى حياته الثانية على الأرض كلام طويل معروف وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن فى تقديم الرفع على التوفى بأن الواو لاتفيد ترتيبا . وفاتهم أن مخالفة الترتيب فى الذكر للترتيب فى الوجود لا يأتى فى الكلام البليغ إلا لنكتة ، ولا نكتة هنا لتقديم التوفى على الرفع ، إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة .

والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها ، وأن التوفى على معناه الظاهر المتبادر هو الإماتة العادية ، وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ، ولا بدع فى إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه ، فان الروح هى حقيقة الإنسان والجسد كالثوب المستعار، فانه يزيد وينقص ويتغير، والإنسان إنسان لأن روحه هى هى ، ولصاحب هذه الطريقة فى حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان تخريجان : أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادى ، لأنه من أمور الغيب

والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي ؛ لأن المطلوب فيها هو اليقين وليس في الباب حديث متواتر ؛ وثانيهما تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس ، وهو ماغلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم ، والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها ، وهو حكمتها وما شرعت لأجله ، فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ، ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها ، ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحرى كمال الآداب ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبراً عن رأيه وفهمه ، وكان ذلك مزهقا لروحها ذاهبا بحكمتها ، كان لابد لهم من إصلاح عيسوى يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقى ، وكل ذلك مطوى فى القرآن الذى حجبوا عنه بالتقليد الذى هو آفة الحق وعدو الدين فى كل زمان . فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذى يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر .

روى أن عيسى استقبل رهطا من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما سمع ذلك دعا عليهم ولعنهم ، فلما رأى ذلك رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته ، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى وساروا إليه ليقتلوه ، فبعث الله إليه جبريل فأدخله فى بيت فرفعه الله إلى السماء من كوة فى سقف البيت فأمر رأس اليهود رجلا من أصحابه أن يدخل البيت ويقتله ، فلما دخل لم ير عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها ، فألقى الله عليه شبه عيسى ، فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه ، فلما صلب جاءت أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون يبكيان عند المصلوب ، فجاءهما فقال لهما : علام تبكيان ؟ إن الله رفعنى ولم يصبنى إلا خير ، وإن هذا شبه لهم . فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى . اهبط إلى مريم فإنه لم يبك عليك أحد كبكائها ولم يحزن كحزنها ، ثم لتجمع لك

الحواريين فبثهم في الأرض دعاة ثم رفعه الله إليه ، فلما أصبح الحواريون لحدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى عليه السلام إليهم

وقد رفعوله ثلاث وثلاثون سنة ، وقال المؤرخون : حملت مريم بعيسى ولها ثلاثة عشر سنة وولدته لمضى خمسة وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل ؛ فأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثين سنة ، ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وكانت نبوته ثلاث سنين ، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين .

وقوله تعالى: «ورافعك إلى»أى إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي ، إذ روى أن الله رفعه وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش، وقال الضحاك : إن في الآية تقديما وتأخيرا معناه : إني رافعك إلى « ومطهرك من الذين كفروا » أى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم ومتوفيك بعد إنزالك من السماء . روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد . روى الشيخان حديث أنه ينزل قرب الساعة ، ويحكم بشريعة نبينا ، ويقتل الدجال والخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية . وفى حديث مسلم أنه يمكث سبع سنين ، وفى حديث عند أبي داود والطيالسى أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ، فيحمل على أن مجموع لبثه فى الأرض قبل الرفع وبعده أربعون سنة ، وقيل للحسين بن الفضيل: هل تجد نزول عيسى فى القرآن ؟ قال : نعم ، قوله تعالى ويكلم الناس فى المهد وكهلا وهو لم يتكهل فى الدنيا وإنما معناه كهلا بعد نزوله من السماء .. وهذا إنما يأتى على القول بأنه رفع شابا ، وأما على القول بأنه رفع بعد ثلاثة وثلاثين، فلا دليل فيه، إذ الكهولة من الثلاثين إلى الأربعين « وجاعل الذين اتبعوك » أى صدقوا بنبوتك من النصارى ومن المسلمين، لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع « فوق الذين كفروا » بك من اليهود والنصارى أى يغلبونهم بالحجة والسيف « إلى يوم القيامة » وقيل : المراد بالذين اتبعوه

النصارى وبالذين كفروا اليهود ، إذ لم يسمع غلبة اليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة ، وملك النصارى قائم إلى قريب من قيام الساعة، وعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادعاء والمحبة لا اتباع الدين « ثم إلى مرجعكم » الضمير لعيسى ومن آمن معه ومن كفر به ، وغلب المخاطب على الغائبين « فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » من أمر الدين ؛ ثم بين الحكم بقوله تعالى : « فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديداً فى الدنيا » بالقتل والسبى والجزية والذل « و » أعذبهم فى « الآخرة ومالهم من ناصرين » أى مانعين منه . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فنوفيهم أجورهم » أى أجور أعمالهم « والله لا يحب الظالمين » أى لا يرحم الكافرين ولا يثنى عليهم بالجميل ؛ وقوله تعالى « ذلك » إشارة إلى ما سبق من خبر عيسى ومريم وامرأة عمران « نتلوه » أى نقصه « عليك » يا محمد ، وقوله تعالى « من الآيات » والعجائب « والذكر الحكيم » أى القرآن وصف بصفة من هو سببه أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه ، وقيل : هو اللوح المحفوظ ، ولما قال وفد نجران للرسول صلى الله عليه وسلم : ما لكم شتمتم صاحبنا ؟ قال : وما أقول ؟ قالوا : تقول إنه عبد ، قال : أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا ، وقالوا : هل رأيت إنسانا قط من غير أب ، نزل قوله تعالى « إن مثل عيسى » أى شأنه وحالته الغريبة « عند الله كمثل آدم » أى كشأنه فى خلقه من غير أب ، وقوله تعالى « خلقه » أى آدم « من تراب » أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثم أب ولا أم ، فكذلك حال عيسى ، فإن قيل : كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب وآدم بغير أب وأم ؟ أجيب بأنه مثله فى أحد الطرفين ولا يمنع اختصاصه دونه بالطريق الآخر من تشبيهه به ، لأن المماثلة مشاركة فى بعض الأوصاف ، ولأنه شبه به فى أنه وجد وجوداً خارجا عن العادة المستمرة ، وهما فى ذلك نظيران ، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغرب به ، ومعنى خلق آدم من تراب أنه صور جسده من تراب

« ثم قال له كن » أى أنشأه بشرا بأن نفخ فيه الروح ، كقوله تعالى : ثم أنشأناه خلقا آخر . وقوله تعالى « فيكون » حكاية حال ماضية أى فكان ، وكذلك عيسى قال له : كن من غير أب فكان .

وقوله تعالى « الحق من ربك » أى أمر عيسى هو الحق من الله « فلاتكن من الممترين » أى الشاكين ، خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره ، لحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممتريا « فمن حاجك » أى جادلك من النصارى « فيه » أى عيسى « من بعد ما جاءك من العلم » أى من البينات الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله « فقل » لهم « تعالوا » أى هلموا بالرأى والعزم « ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » أى يدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله ، وإنما قدمهم على النفس لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم فنجمعهم « ثم نبتهل » أى نتضرع فى الدنيا ونبالغ فيه « فنجعل لعنة الله على الكاذبين » بأن نقول : اللهم العن الكاذب فى أمر عيسى ، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر فى أمرنا ثم نأتيك غدا، فخلا بعضهم ببعض ، وقال للعاقب ـ وكان ذا رأيهم : ياعبد المسيح ماترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولأن فعلتم لتهلكن ، فإن أبيتم إلا الإقامة على دينكم وعلى ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله وقد غدا رسول الله محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم :إذا أنا دعوت فأمنوا ، فقال أسقف نجران رئيس النصارى وعالمهم ـ وهو غير العاقب: يامعشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة ، فقالوا ياأبا القاسم : رأينا أن لانباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعليهم ، فأبوا فقال : إنى

أنابذكم. فقالوا: مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لاتغزونا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألنى حلة: ألف فى صفر وألف فى رجب نؤديها للمسلمين ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وقال : والذى نفسى بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران ، ولولا عنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى نارا ، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ، وما جاء الحول على النصارى حتى هلكوا كلهم .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه ثوب من شعر أسود ، فجاء الحسن، فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة ثم على ، ثم قال : إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ، وفى ذلك دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم « إن هذا » أى الذى قص عليكم من أنباء عيسى « لهو القصص » أى الخبر « الحق » الذى لاشك فيه ، « ومامن إله إلا الله » إنما صرح فيه بمن الزائدة للاستغراق تأكيدا للرد على النصارى « وإن الله لهو العزيز » فى ملكه « الحكيم » فى صنعه ، فلا أحد يساويه فى القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه فى الألوهية «فإن تولوا» أى أعرضوا عن الإيمان « فإن الله عليم بالمفسدين » فيجازيهم ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على أن التولى عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين والاعتقاد المؤدى إلى فساد النفس ، بل وإلى فساد العالم .

إن قصة المباهلة التى قصها القرآن الكريم قصة غريبة ، تدل على ثقة نبى الإسلام ، وعلى ارتياب أهل الكتاب فى موقفهم من الدين الجديد ، ولما ظهر الإسلام عز على اليهودية كما عز على النصرانية أن يظهر فى السماء دين آخر ، وخشى كل منهما على مكانته أن تضمحل .

وأما اليهود فإنهم لجأوا إلى الكيد لهذا الوليد ، رجاء أن يكتموا أنفاسه وهو فى مهده ، فأخذوا يؤلبون العرب عليه ويحرضونهم على محاربته، وقد نجحوا فى هذا ، فتحالفت قبائل العرب واليهود وحاصروا المدينة فى غزوة الخندق ، ومما زاد فى محنة المسلمين أن حلفاء النبى وهم يهود بنى قريظة نكثوا عهدهم

وتخلوا عن النبي وانضموا إلى أعدائه فضاقت الدنيا بالمسلمين وزلزلوا زلزالا شديداً ، فقد كانت بلاد الحجاز كلها تطبق عليهم فى المدينة ؛ ولكنهم خرجوا من هذه المحنة آخر الأمر سالمين ، وتفرق الحلفاء بعد أن صمدت لهم المدينة فاستعصت عليهم ، وبذلك ارتد سهم اليهود إلى نحرهم ، وأخذ هذا النور الذى أرادوا أن يطفئوه يزداد ويعلو .

أما النصرانية فسلكت حياله مسلكا آخر . حاجته وأرادت أن تلزمه الحجة ، فهذا وفد من نصارى نجران جاء إلى النبي يريد أن يتحدى الإسلام والقرآن . عرض عليه النبي الإسلام فقال : إننا نحن المسلمون حقا . فما كان من النبي إلا أن أفهمهم أن ثلاثة أشياء تمنعهم عن الإسلام : أكل الخنزير، وعبادة الصليب وقولهم إن لله ولداً . فما كان منهم إلا أن سألوه سؤالا ظنوه معجزا وهو : من أبو عيسى ؟ ، وهنا تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم » . وقد حسم الله بهذه الآيات هذا الخلاف . فأفهمهم أن عيسى ما هو إلا عبد من عبيد الله خلقه من غير أب ، وأن هناك سابقة لهذا أشد وقعا فى النفس من ميلاد عيسى وهى خلق الله آدم من غير أب ولا أم ، وكأن القرآن الكريم يرد عليهم بسؤال من نوع سؤالهم ، ألا وهو : من أبو آدم ؟ ثم أفهمهم أن كثرة المجادلة غير مجدية ، وأنهم إذا كانوا لا يزالون يصرون على قولهم ، فأحسن طريقة لحسم هذا النزاع هو أن يلتجىء الفريقان إلى الله فيدعوانه أن ينزل لعنته على الفريق الكاذب منهما . هناك ظهرت قوة الحق وبلبلة الباطل ، فعندما دعاهم النبي إلى المباهلة أرجأوه حتى يتشاوروا ، فلما انعقد جمعهم قال لهم رئيسهم : والله لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل فى أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا إلا هلكوا ؛ فإن أبيتم إلا دينكم فوادعوا الرجل . ولكن محمدا الواثق من نفسه

ومن حقه، المؤمن بربه، غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى رضى الله عنه وراءها، وهو يقول لهم : إذا دعوت فأمنوا . عندئذ قال الأسقف : يا معشر النصارى ، إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا . وهكذا قوة الحق إذا تجلت ارتعد الباطل لها وتقهقر ، فلم يكن منهم إلا أن أذعنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتفادوا المباهلة وارتضوا الجزية ، كما تعاهدوا ألا يأكلوا الربا أو يتعاملوا به ثم رجعوا إلى قومهم ، أما النبى فرجع وهو يقول : « والذى نفس محمد بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى نارا ، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر » .

٦٤ — قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

٦٥ — يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

٦٦ — هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

٦٧ — مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

٦٨ — إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

خمس آيات كريمة ، فيها دعوة من الله عز وجل إلى أهل الكتاب أن يمدوا أيديهم إلى المسلمين ، ويتعاونوا معهم بإخلاص تعاونا صادقا مثمرا ،

ويوحدوا الله توحيدا كاملا ، ويؤمنوا بدين الطهر والتوحيد والخير ، ويجمعوا كلمتهم مع كلمة المسلمين على نشر عقيدة التوحيد فى الأرض .

وفى نزول الآية الأولى يروى أنه لما قدم وفد نجران إلى المدينة ، والتقوا مع اليهود ، واختصموا فى إبراهيم صلوات الله عليه ، فزعمت النصارى أنه كان نصرانيا ، وهم على دينه وأولى الناس به ، وقالت اليهود : بل كان يهوديا وهم على دينه وأولى الناس به ، فقال الرسول صلوات الله عليه : كلا الفريقين برىء من إبراهيم ودينه ، فاتبعوا دينه الإسلام ، فقالت اليهود : يامحمد ما تريد إلا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ، وقالت النصارى : يامحمد ماتريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود فى عزير ، فنزلت الآية الكريمة . « قل ياأهل الكتاب » وهو يعم أهل الكتابين ، وهم اليهود والنصارى « تعالوا إلى كلمة » ـ العرب تسمى كل قصة لها شرح كلمة ، ومنها سميت القصيدة كلمة .

وقوله تعالى « سواء » مصدر بمعنى مستو أمرها ، لا تختلف فيها الرسل والكتب « بيننا وبينكم » فهو نعت لكلمة ، ثم فسر الكلمة بقوله « ألا نعبد إلا الله » أى نوحده بالعبادة ونخلص له فيها « ولا نشرك به شيئا » أى ولا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لأن يعبد « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » أى ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأنهم بشر مثلنا ؛ روى الترمذى : لما نزل قوله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» قال عدى بن حاتم : ما كنا نعبدهم يارسول الله ، قال : أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال : نعم ، قال : هو ذلك ، أى أخذكم بقولهم « فإن تولوا » أى أعرضوا عن التوحيد « فقولوا » أنتم لهم « اشهدوا بأنا مسلمون » أى موحدون دونكم فقد لزمتكم الحجة ، فوجب عليكم أن تعترفوا بذلك كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو نحو ذلك : اعترف بأنى الغالب وسلم لى بالغلبة . قال البيضاوى : انظر ما راعى أى الله ـ فى هذه القصة

من المبالغة والإرشاد وحسن التدريج فى الحجاج ، بين أولا أحوال عيسى وما تعاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر ما يحل عقيدتهم ويزيل شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ،فلما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد إليهم بالإرشاد وسلك طريقا أسهل ، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب ، ثم لما لم يجد ذلك أيضا عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغنى عنهم أعرض وقال : اشهدوا بأنا مسلمون « يا أهل الكتاب ، وقد مر أنه يعم أهل الكتابين اليهود والنصارى « لم تحاجون ، أى تخاصمون « فى إبراهيم ، ابن عمكم أنه على دينكم « وما أنزلت التوراة ، على موسى « والإنجيل ، على عيسى « إلا من بعده ، أى بزمن طويل إذ كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة وبعد نزول التوراة حدثت اليهودية ، وبعد نزول الإنجيل حدثت النصرانية «أفلا تعقلون» بطلان قولكم حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال « ها أنتم ، يا «هؤلاء حاججتم» أى جادلتم « فيما لكم به علم ، فى أمر موسى وعيسى ، وزعمتم أنكم على دينهما .

وقوله تعالى «فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم» وهو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا ! أليس الواجب عليكم أن تتبعوا فيه ما يوحيه الله إلى عبده محمد « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ثم بين تعالى ما يعلم من أمره فقال «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا» أى مائلا عن كل ما كان عليه أهل عصره من الشرك والضلال « مسلما ، وجهه إلى الله تعالى وحده مخلصا له الدين والطاعة «وما كان من المشركين» الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم وهم قريش ومن وافقهم من العرب ، وهذا من الاحتراس، فقد كان أهل الكتاب يدعون العرب بالحنفاء حتى صار الحنيف عندهم بمعنى الوثنى المشرك. فلما وافقهم القرآن على إطلاق لفظ الحنيف على إبراهيم مستعملا له بالمعنى اللغوى احترس عما يوهمه الإطلاق من إرادة المعنى الاصطلاحى عندهم ، فصار معنى الآية أن إبرهيم المتفق على إجلاله وادعاء دينه عند أهل الملل الثلاث لم يكن على ملة أحد منهم ، بل كان مائلا عن مثل ما هم عليه من

الوثنية والتقاليد مسلما خالصا لله تعالى . وليس المراد بكونه مسلما أنه كان على مثل ماجاء به محمد صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم من الشريعة بالتفصيل ، فإنه يرد على هذا أن هذه الشريعة جاءت من بعده كما كانت التوارة والإنجيل من بعده ، وإنما المراد أنه كان متحققا بمعنى الإسلام الذى يدل عليه لفظه ، وهو التوحيد والإخلاص لله فى عمل الخير ، كما بينا ذلك بالتفصيل فى تفسير « إن الدين عند الله الإسلام » ، وهذا المعنى لا يستطيع أهل الكتاب إنكاره ، فإن ما فى كتبهم عن إبراهيم لا يعدوه ، وما كان النبي يدعوهم إلا إليه . وقد نسى أكثر المسلمين اليوم معنى الإسلام الذى يقرره القرآن وجهدوا على المعنى الاصطلاحى له ، لجعلوه جنسية ، غافلين عن كونه هداية روحية ، وما كان سلفهم الصالح كذلك .

« إن أولى الناس بإبراهيم » أى أجدرهم بولايته وأحراهم بموافقته « للذين اتبعوه » فى عصره وأجابوا دعوته فاهتدوا بهديه « وهذا النبي والذين آمنوا » معه فإنهم أهل التوحيد المحض « والله ولي المؤمنين » أي فهو يتولى أمورهم ويصلح شؤونهم ويتولى إثابتهم ويزيدهم من فضله .

٦٩ — وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

٧٠ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ .

٧١ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

٧٢ — وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

٧٣ — وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ

أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

٧٤ — يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

جاءت هذه الآيات بعد دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام الذى كان عليه إبراهيم والأنبياء لبيان حالهم فى ذلك ، وقد قال المفسرون: إن اليهود دعوا معاذاً وحذيفة وعماراً إلى دينهم فأنزل الله « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم » الآية ، ولاشك أنهم كانوا أشد الناس حرصا على إضلال المؤمنين سواء دعوا بعض الصحابة إلى دينهم أم لا ، وليس الإضلال خاصا بالدعوة ، بل كانوا يلقون ضروبا من الشك فى النفوس ليصدوها عن الإسلام، وكان النزاع بين الفريقين مستمراً وهو ما لابد منه فى وقت الدعوة .

وقوله تعالى « ودت » أى تمنت « طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم » عن دينكم ويردونكم إلى الكفر « وما يضلون إلا أنفسهم » أى أمثالهم أو أن إثم إضلالهم عليهم، والمؤمنون لايطيعونهم فيه « وما يشعرون » بذلك « يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله » بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم « وأنتم تشهدون » أنها آيات الله عز وجل أو بالقرآن وأنتم تشهدون وصفه فى الكتابين ، أو تعلمون بالمعجزات أنه حق « يا أهل الكتاب لم تلبسون » أى تخلطون « الحق » أى القرآن المشتمل على نعت محمد صلى الله عليه وسلم « بالباطل » أى بالتحريف والتزوير « وتكتمون الحق » أى نعت محمد صلى الله عليه وسلم « وأنتم تعلمون » أنه حق « وقالت طائفة من أهل الكتاب » أى اليهود ، قالوا لجماعة منهم « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا » أى القرآن أى أظهروا الإيمان به « وجه النهار » أى أوله، وإنما سمى أوله وجها لأنه أحسنه، ولأنه أول ما يرى بعد الليل « واكفروا » به « آخره لعلهم » أى المؤمنين « يرجعون » عن دينهم إذا رأوكم رجعتم ، واختلف فى هذه الطائفة فقال الحسن: هى اثنا عشر من يهود خيبر وقرى عرينة تواطأوا ، وقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد

أول النهار واكفروا به آخره وقولوا: إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك فظهر لنا كذبه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينهم واتهموه وقالوا: إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم، وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: هو كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما تحولت القبلة وشق ذلك على اليهود: آمنوا بالذى أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلوا عليها أول النهار ثم اكفروا وارجعوا إلى قبلتكم آخر النهار، وصلوا إلى الصخرة، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم، فيرجعون إلى قبلتنا «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع» أى وافق «دينكم» أى ولا تقروا عن تصديق قلب إلا لأهل دينكم، أولا تظهروا إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم، فإن رجوعهم أولى وأهم، فأطلع الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على سرهم، وقيل: المعنى لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم اليهودية «قل» يا محمد «إن الهدى هدى الله» الذى هو الإسلام وما عداه ضلال، وقوله تعالى «أن يؤتى» أى ما يؤتى «أحد مثل ما أوتيتم» يا أمة محمد «أو يحاجوكم» أى إلا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولون نحن افضل منكم «عند ربكم» أى عند فضل ربكم بكم، وهذا معنى قول سعيد بن جبير والكلبي ومقاتل والحسن وهو حسن، وقال الفراء: يجوز أن تكون أو بمعنى حتى، كما يقال: تعلق به أو يعطيك، أى حتى يعطيك حقك. ويكون معنى الآية: ما أعطى أحد مثل ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم أى يوم القيامة. وقال مجاهد: قوله «قل إن الهدى هدى الله» كلام اعتراضى بين كلامين، وما بعده متصل بالكلام الأول، إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض، أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات من مثل فلق البحر وسواه، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنكم أصح دينا منهم، أو يكون المعنى: قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم أى حتى يحاجوكم عند ربكم فتقرعوا باطلهم بحقكم، وتدحضوا حجتهم، ويجوز أن يكون المعنى: قل إن الهدى هدى الله فلا

تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ لأن قوله : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » إنكار لأن يؤتي أحد مثل ما أوتوا ، قال تعالى : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » من عباده « والله واسع » أي كثير الفضل « عليم » بمن هو أهله « يختص برحمته » أي نبوته « من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ففي ذلك رد على ما زعموه بالحجة الواضحة .

٧٥ — وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

٧٦ — بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ .

٧٧ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٧٨ — وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

٧٩ — مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ .

٨٠ — وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ .

في هذه الآيات الست تصوير صادق قوي لليهود وخياناتهم ونكثهم العهود، وتحريفهم للكتاب المقدس، وافترائهم على الله والرسول ، ، وقد ذكر الله عز وجل فيما سبق أحوال طائفة من اليهود كانت تكيد للإسلام وأهله، وهنا ذكر طائفتين أحدهما تستسيغ أكل أموال الناس بالباطل وتحل نفسها من الوفاء بالعهود، والأخرى تحرف كتاب الله وتنسب إليه مالم يأذن به الله من شرك وضلال وبهتان عظيم.

قوله « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ، هذه الآية جاءت ببعض التفصيل لما أجمل في الآيات السابقة، من غرور أهل الكتاب وزعمهم أنهم شعب الله الخاص، وأن الدين والحق من خصائصهم، وابتداؤها بالعطف يشعر بمعطوف محذوف حذف إيجازا لأن السياق يقتضي ذكره وهو مبين في آيات أخرى، كقوله تعالى « من أهل الكتاب أمة قائمة ، فكأنه هنا يعطف على ما هنالك أي منهم كذا ومنهم كذا ؛ وأعاد ذكر « أهل الكتاب ، ولم يبتدىء الآية بقوله « ومنهم » - والكلام فيهم - للإشعار بأنهم فعلوا ذلك باسم الكتاب الذي حرفوا نهيه عن أكل أموال الناس بالباطل، فزعموا أنه لم ينههم إلا عن خيانة إخوانهم الإسرائيليين. وقوله « إلا ما دمت عليه قائماً » بمعناه الامدة دوامك أيها المؤتمن له قائماً على رأسه تلح بالمطالبة ، أو تلجأ إلى التقاضي والمحاكمة ، « ذلك » أي ترك الأداء المدلول عليه بقوله تعالى « لا يؤده » « بأنهم قالوا » أي بسبب قولهم « ليس علينا في الأميين » أي العرب « سبيل » أي إثم ، لاستحلالهم ظلم من خالفهم ، ونسبوا ذلك إلى الله تعالى قالوا : لن يجعل الله لهم في التوراة حرمة ، فيكذبهم الله عز وجل بقوله عز من قائل « ويقولون على الله الكذب ، في نسبة ذلك إليه « وهم يعلمون » أنهم كذابون ، وقال الحسن وابن جريج ومقاتل : بايع اليهود رجالا من المسلمين في الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا : ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء، لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فيكذبهم

الله تعالى فى ذلك ، روى الطبرانى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال عند نزول هذه الآية : «كذب أعداء الله ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى ، » أى منسوخ متروك إلا الأمانة ؛ فإنها مؤداه إلى البر والفاجر والديون من الأمانة ، لأن المراد بالأمانة الرضى بالذمة .

وقوله تعالى «بلى» إثبات لما نفوه أى بلى على اليهود فى الأميين سبيل ، ثم ابتدأ فقال «من أوفى بعهده» أى ولكن من أوفى بعهد الله الذى عهد إليه فى التوراة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وأداء الأمانة «واتقى» الله بترك المعاصى وفعل الطاعات «فإن الله يحب المتقين» فيه وضع الظاهر موضع المضمر أى يحبهم بمعنى يثيبهم ، وعموم المتقين قام مقام رجوع الضمير العائد من جواب الشرط .. ونزل فى أحبار اليهود حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم وحكم الأمانة وغيرهما ، وأخذوا على ذلك رشوة «إن الذين يشترون» أى يستبدلون «بعهد الله» إليهم فى الإيمان للنبى والوفاء بأداء الأمانة «وأيمانهم» أى وحلفهم به تعالى كاذبين ، من قولهم : والله لنؤمنن به ولننصرنه . «ثمنا قليلا» من الدنيا «أولئك لا خلاق» أى لا نصيب «لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله» أى بما يسرهم أو بشىء أصلا ، وكذلك الملائكة لا يسألون عنهم يوم القيامة «ولا ينظر إليهم» أى ولا يرحمهم الله «يوم القيامة ولا يزكيهم» أى ولا يثنى عليهم بالجميل ، ولا يطهرهم من الذنوب «ولهم عذاب أليم» أى مؤلم . وقيل : نزلت فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به ، وقيل : نزلت فى جماعة من اليهود جاءوا إلى كعب بن الأشرف فى سنة أصابتهم ممتارين فقال لهم : أتعلمون أن هذا الرجل رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : قد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيرا كثيرا ، فقالوا : لعله اشتبه علينا فرويدا حتى نلقاه ، فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته ثم رجعوا إليه وقالوا : قد غلطنا وليس هو بالنعت الذى نعت لنا . ففرح ومارهم ، وعن الأشعث بن قيس : نزلت فىّ ، كان بينى وبين رجل خصومة فى أرض فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : شاهداك أو يمينه ، فقلت : إذا يحلف

ولا يبالي، فقال : من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان ، فأنزل الله تصديق هذه الآية ، وعن أبي ذر رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى عليه وسلم قال : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيام ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، فقال أبو ذر : خابوا وخسرا ، من هم يا رسول الله ؟ قال : المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، وفى رواية : المسبل إزاره ، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولهم عذاب أليم : رجل حلف على يمين على مال مسلم فاقتطعه ، ورجل حلف على يمين بعد صلاة العصر أنه أعطى بسلعته أكثر مما أعطى وهو كاذب ، ورجل منع فضل ماء ، فإن الله تعالى يقول : اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما تعمل يداك « وإن منهم » أى أهل الكتاب « لفريقا » أى طائفة ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أحطب « يلوون ألسنتهم بالكتاب» أى يفتلونها بقراءته . ليا عن المنزل إلى ما حرفوه من نعت النبي صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك ، يقال: لوى لسانه كذا أى غيره « لتحسبوه » أى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى يلوون « من الكتاب » الذى أنزل الله « وما هو من الكتاب » فيه تعظيم للكتاب بإظهاره .

وقوله تعالى « ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله » تأكيد لقوله « وما هو من الكتاب » وزيادة تشنيع لهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحا لا تعريضا ، أى ليس هو نازلا من عنده ، فإن قيل: نفى الله تعالى كون التحريف من عنده وهو فعل العبد ، فلا يكون فعل العبد مخلوقا لله تعالى وإلا لما صح نفيه عنه ، فالجواب أن المنفى هو الإنزال لا كون التحريف غير مخلوق لله تعالى بكسب العبد .

وقوله تعالى « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » تأكيد أيضا وتسجيل عليهم بالكذب والتعمد فيه .

هذا وقول الله تعالى « ما كان » أى ما ينبغي « لبشر أن يؤتيه الله الكتاب

والحكم ، أى الفهم للشريعة ، والنبوة ، أي المنزلة الرفيعة بالأنبياء ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل والضحاك: نزلت فى نصارى نجران، كانوا يقولون: إن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربا ، فقال تعالى: ما كان لبشر أى عيسى أن يؤتيه الله الكتاب أي الإنجيل .. وقال ابن عباس وعطاء : ما كان لبشر أي محمد أن يؤتيه الله الكتاب أي القرآن ، وذلك أن أبا رافع القرظى من اليهود والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا ؟ فقال: معاذ الله أن نأمر بعبادة غير الله ، ما بذلك بعثني الله ، ولا بذلك أمرنى ، فنزلت .. وقيل : قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ، قال: ما ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله .. والبشر جميع بنى آدم كالقوم، ويوضع موضع الجمع والواحد ، ولكن ، يقول «كونوا ربانيين» أي علماء عاملين ، وهذا اللفظ منسوب إلى الرب بزيادة ألف ونون تفخيما ، وهو الشديد التمسك بدين الله تعالى وطاعته ؛ وقيل : الربانى هو الذي يربى الناس بصغار العلم قبل كباره ، وقيل : الربانيون فوق الأحبار ، والأحبار : العلماء ، والربانيون : الذين جمعوا مع العلم البصر بسياسة الناس ، وعن الحسن : ربانيين علماء فقهاء ، وحكى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال : هو الذى يربي علمه بعمله ، قال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس رضى الله تعالى عنهم : اليوم مات ربانى هذه الأمة ، بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، أى بسبب كونكم تعلمون الكتاب وبسبب كونكم دارسين له . وفائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير فى الاعتقاد والعمل، فيكفى بذلك دليلا على خيبة سعي من جهد نفسه وكد روحه فى جمع العلم ، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل ، فكان مثله كمثل من غرس شجرة تروقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها ، ويجوز أن يكون معناه تدرسونه على الناس ، كقوله تعالى «لتقرأه على الناس» ، وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله فى شيء ، لأن السبب بينه وبين الله تعالى منقطع حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمنهمكين

بطاعته « ولا يأمركم » بالنصب عطفا على يقول أى البشر ، وقرىء برفع الراء على أنه استئناف أى الله « أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا » كما اتخذت الصابئة الملائكة واليهود عزيراً والنصارى عيسى ، وقوله تعالى « أيأمركم بالكفر » إنكار ، والضمير فيه للبشر أو لله على الوجهين السابقين .

وقوله تعالى « بعد إذ أنتم مسلمون » دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون على أن يسجدوا له.

إن هاتين الطائفتين: الطائفة الأولى التي نكثت بالعهود واستباحت الحرمات، والثانية التي حرفت كتاب الله وبدلت شريعته ، لهما عند الله العذاب الشديد. ويجب أن نلاحظ في الآية الكريمة « إن الذين يشترون بعهد الله » الخ أنه قد أضيف العهد إلى الله ، لأنه تعالى عهد إلى الناس في كتبه المنزلة أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، كما عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ويتقوه في جميع الأمور ؛ فعهد الله يشمل كل ذلك ، ولما كان الناكث للعهد لا ينكث إلا لمنفعة يجعلها بدلا منه عبر عن ذلك بالشراء الذي هو معاوضة ومبادلة ، وسمى العوض ثمنا قليلا ، مع العلم بأن بعض الناس لا ينكثون العهد في الأمور الكبيرة إلا إذا أوتوا عليه أجراً كبيرا وثمنا كثيرا ، لأجل أن يبين للناس أن كل ما يؤخذ بدلا من عهد الله فهو قليل لا سيما إذا أكد باليمين، لأن العهود إذا نكثت اختل أمر الدين ، إذ الوفاء آيته البينة بل محوره الذي عليه مداره ، وفسدت مصالح الدنيا إذ تبطل ثقة الناس بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات وسلك النظام وأساس العمران، لأجل هذا كان الوعيد على نكث العهد ولو لأجل المنفعة أشد ما نطق به الكتاب وأغلظه ، وأي عقاب أشد من عقاب من لا خلاق له في الآخرة أي لا نصيب له من النعيم فيها ولا يكلمه الله كلام إعتاب ، ولا ينظر إليه نظر عطف ورحمة، ولا يزكيه بالثناء .

وأما الطائفة الثانية فيروى عن ابن عباس أنها هي جماعة من اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف أحد زعمائهم الملحين في عداوة النبي صلى الله

عليه وسلم وإيذائه والإغراء به ، فغيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذى عندهم وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته يوهمون الناس أنه من التوراة، وهذا العمل ينبيء عن فساد اعتقادهم وعدم استمساكهم بكتابهم ، وذلك أنهم جعلوا الدين جنسية، وصار الانتصار له عندهم عبارة عن مقاومة من لم يكن من جنسهم ، وإن كان أقرب منهم إلى ما جاء فى كتابهم ، بل إنهم يخرجون عن كتابهم ويحرفونه لمقاومة الغريب، ويعدون ذلك انتصارا له، وهكذا يفعل أشباههم من المسلمين اليوم ، فقد يعدون من أنصار الدين والمتعصبين له من لا معرفة له بعقائده وأصوله ولا بفروعه إلا ما هو مشهور عند العامة . ولا هو يعمل بما يعلم من ذلك — وإنما يعدونه كذلك إذا هو عادى من لا يعدون من المسلمين ولو بسبب سياسى أو دنيوى لا علاقة له بالإسلام . بل يعدون من أنصار الدين من يطعن فى بعض المصلحين من المسلمين لمخالفتهم ما عليه العامة والمقلدون فيما يعدونه من الإسلام لأنهم اعتادوه ، لا لأن كتاب الله جاء به . وقد يحرفون القرآن بالتأويل لتأييد تقاليدهم وبدعهم ، أو يعرضون عنه اعتذارا بأنهم غير مطالبين بأخذ دينهم منه بل من كلام العلماء .

ولىّ اللسان بالكتاب تبديله للكلام وتحريفه له بصرفه عن معناه إلى معنى آخر ، وقد وصف الله تعالى به اليهود فى سورة النساء بقوله « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم » ، فهذا مثال من لىّ اللسان بالكلام وإن لم يكن من الكتاب ، ذلك أنهم وضعوا كلمة «غير مسمع» مكان جملة « لا أسمعت مكروها» الدعائية التى تقال عادة عند ذكر السماع . وكلمة « راعنا » مكان كلمة «انظرنا» التى يقولها الناس لمن يطلبون معونته ومساعدته، وإنما قالوا « غير مسمع » لأنها تستعمل فى الدعاء على المخاطب بمعنى « لا سمعت » ، وقالوا « راعنا » لأن هذه الكلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها . ومثل هذا ماورد فى كتب الحديث

والسير من أنهم كانوا إذا سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم يمضغون كلمة السلام فيخفون اللام قائلين « السام عليكم » غير مفصحين بالكلمة ، والسام الموت ، فالليّ والتحريف قد كان يكون منهم أحيانا بتغيير فى اللفظ وأحيانا بصرفه إلى غير المعنى المراد منه ، ومنه أن يقرأ القارىء شيئاً بالكيفية التى يقرأ بها الكتاب من جرس الصوت وطريقة النغم وإظهار الخشوع ليحسبه السامع من الكتاب فيقبله ، ولا أذكر أن أحدا نبه عليه. ولفظ اللىّ يتناوله وهو مما يتبادر إلى أذهان الموهمين ، وقد رأينا من المتساهلين فى المسلمين من يأتيه مازحا بأن يقرأ من كتاب ما جملا بالتجويد الذى يقرأ به القرآن ، ليوهم الجاهل أو يختبره ، ويروى أن عبد الله بن رواحة أوهم امرأته بمثل ذلك ، وهو مما لا يصدق على صحابى جليل مثله .

وهذا اللىّ هو أن يعطى الناطق للفظ معنى آخر غير الذى يظهر منه . مثال ذلك الألفاظ التى جاءت على لسان عيسى عليه السلام ككلمة (ابن الله) ، وتسمية الله أبا له وأبا للناس ، فقد كان ذلك استعمالا مجازيا ولواه بعضهم فنقله إلى الحقيقة بالنسبة إلى المسيح وحده ، أى فهم يفسرون لفظاً بغير معناه المراد فى الكتاب ، يوهمون الناس أن الكتاب جاء بذلك .

هذا وفى إنجيل برنابا[1] وهو من الحواريين ، نصوص تدل على ما يلى :

١ — أن الله إله واحد لا شريك له ولا ند ولا ولد .

٢ — أن عيسى عبده ورسوله وليس ابنه ولا نفسه .

٣ — أنه بشر برسول يأتى من بعده اسمه أحمد من ذرية إسماعيل الذبيح غير إسحاق .

٤ — أنه لم يصلب وإنما رفع إلى السماء ، وشبه لهم ، وأنه سينزل آخر الزمان .

وبهذا يوافق الإنجيل القرآن الكريم .

٨١ — وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ

(١) ترجمة خليل سعادة .

ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ .

٨٢ — فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ .

٨٣ — أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

٨٤ — قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ .

٨٥ — وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .

خمس آيات كريمة فيها تنويه بالإسلام ، وتأكيد لوجوب الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، وبيان للميثاق الذى أخذه الله تعالى على جميع الأنبياء بأن يؤمنوا بمحمد وشريعته .

والمقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قطعا لعذرهم ، وإظهارا لعنادهم ، ومن جملتها ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية ، وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة ، بأنهم كلما جاءهم رسول الله مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه ، وأخبر أنهم قبلوا ذلك ، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين ، فهذا هو المقصود من الآية . وهذا رجوع إلى

أصل الموضوع الذى افتتحت السورة بتقريره وهو التنزيل وكون الدين عند الله واحدا ، وهو ما كان عليه إبراهيم وسائر النبيين ، وكون الله تعالى مختارا فيما يختص به بعض خلقه من مزية أو نبوة . وقد سيقت تلك المسائل لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإزالة شبهات من أنكر من أهل الكتاب بعثة نبي العرب ، واستتبع ذلك محاجتهم ؛ وبيان خطئهم فى ذلك وفى غيره من أمر دينهم . وهذه المسألة التى تقررها هذه الآية من الحجج الموجهة إليهم لدحض مزاعمهم ، وهى أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع النبيين وعلى أتباعهم بالتبع لهم ، بأنما يعطونه من كتاب وحكمة ، وإن عظم أمره ، فالواجب عليهم أن يؤمنوا بمن يرسل من بعدهم مصدقا لما معهم منه وأن ينصروه . فالآية متصلة بما قبلها بالنظر إلى أصل الموضوع . وفى قوله «ميثاق النبيين» وجهان :

أحدهما : أن معناه الميثاق من النبيين ، فالنبيون هم المأخوذ عليهم وعلى هذا يكون حكمه ساريا على أتباعهم بالأولى .

وثانيهما : أن إضافة ميثاق إلى النبيين على أنهم أصحابه ، فهو مضاف إلى الموثق لا إلى الموثق عليه كما تقول عهد الله وميثاق الله . وحينئذ يكون المأخوذ عليه مسكوتا عنه للعلم به ، وتقديره : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين على أممهم ، أو الخطاب لأهل الكتاب ، والمعنى : وإذ أخذ الله عليكم ميثاق النبيين الذين أرسلوا إلى قومكم ، أو التقدير : ميثاق أمم النبيين . وكل من القولين مروى عن السلف ، وممن قال بالثانى من آل البيت جعفر الصادق قال : هو على حد « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء » فالخطاب فيه للنبى والمراد أمته عامة ؛ والمقصود من الوجهين أو الطريقين فى تفسير العبارة واحد ، وهو أن الواجب على الأمم التى أوتيت الكتاب إذا جاءهم رسول الله مصدق لما معهم أن يؤمنوا به وينظروه ، وجب ذلك عليهم بميثاق الله على أنبيائهم ، أو ميثاقه عليهم أنفسهم على لسان أنبيائهم .

ومعنى أخذ الميثاق أن يلتزم المأخوذ منه الميثاق للآخذ بالوفاء به والعمل

بما تضمنه . والمراد منه بيان مرتبته صلى الله عليه وسلم مع النبيين إذا فرض أن وجد فى عصرهم ، وهو أنه يكون الرئيس المتبوع لهم ، فما قولك إذاً فى أتباعهم لا سيما بعد زمنهم ، وإنما كان له صلى الله عليه وسلم هذا الاختصاص ، لأن الله تعالى قضى فى سابق علمه بأن يكون هو خاتم النبيين الذى يجىء بالهدى الأخير العام الذى لا يحتاج البشر بعده إلى شىء معه سوى استعمال عقولهم واستقلال أفكارهم ، وأن يكون ما قبله من الشرائع التى يجيئون بها هداية موقوتة خاصة بقوم دون قوم . واحتج القائلون بأن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم بحجج ، منها حديث « والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى » . وأما المعنى على الوجه الأول مع القول بأن الميثاق أخذ على الأنبياء فهو أنه لما كان القصد من إرسالهم واحداً وجب أن يكونوا متكافلين متناصرين ، إذا جاء واحد منهم فى زمن آخر آمن به ونصره بما استطاع ، ولا يلزم من ذلك أن يكون متبعاً لشريعته ، كما آمن لوط لإبراهيم وأيد دعوته إذ كان فى زمنه ..

وكل من القولين حجة على الذين يجعلون الدين سببا للخلاف والنزاع والعداوة والبغضاء ، كما فعل أهل الكتاب فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم والكيد له ، فكان يدعوهم إلى كلمة سواء فلا يلقى منهم إلا الخلاف والشحناء .

هذا والمراد من « رسول » فى قوله تعالى « ثم جاءكم رسول » محمد عليه السلام ، وقيل : إن لفظ رسول هنا على إطلاقه وعمومه وشموله .

وقوله تعالى « لتؤمنن به ولتنصرنه » معناه وجوب الإيمان برسالة محمد عليه السلام ونصرته والدعوة إلى دينه وشريعته ، على الأنبياء ، وعلى أممهم كذلك ، قال الله تعالى لهم « أأقررتم » أى بذلك « وأخذتم » أى قبلتم « على ذلكم إصرى » أى عهدى ؛ لأنه مما يؤصر أى يشد ويعقد ، ومنه الإصار الذى يعقد به « قالوا أقررنا قال فاشهدوا » على أنفسكم وأتباعكم بذلك « وأنا معكم من الشاهدين » عليكم وعليهم ، وهو توكيد وتحذير عظيم من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض ، وقيل : الخطاب للملائكة « فمن تولى » أى أعرض « بعد ذلك »

أى الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة، «فأولئك هم الفاسقون» أى المتمردون من الكفرة . روى أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم، فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ دينك فنزل « أفغير دين الله يبغون » وهذه الجملة معطوفة على الجملة المتقدمة وهى « فأولئك هم الفاسقون » ، والهمزة متوسطة ، بينهما للإنكار، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: أيتولون دين الله يبغون؟ وقدم المفعول الذى هو: غير دين الله ، على فعله، لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذى هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود الباطل « وله » سبحانه وتعالى « أسلم » أى خضع وانقاد « من فى السموات والأرض طوعا» أى بالنظر فى الأدلة واتباع الحجة والإنصاف من نفسه «وكرها» أى اضطرارا عند الشدائد الملجئة إليه ورؤية الآيات الباعثة عليه ، كنتق الجبل على بنى إسرائيل وإدراك الغرق فرعون وقومه والإشراف على الموت بقوله تعالى «فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده» وقال الحسن: أسلم أهل السموات طوعا ، وأهل الأرض بعضهم طوعا وبعضهم كرها خوفا من السيف والسبى ، وقيل : هذا يوم الميثاق ، حيث قال : ألست بربكم؟ قالوا: بلى ، فقال بعضهم طوعا وبعضهم كرها ، قال قتادة: المسلم أسلم طوعا فنفعه والكافر أسلم كرها فى وقت البأس فلم ينفعه ، قال تعالى « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » ، وانتصب « طوعا » و « كرها » على الحال بمعنى طائعين ومكرهين

ويروى الإمام محمد عبده كما فى تفسير المنار أن الذين أسلموا طوعاً هم الذين لهم اختيار فى الإسلام ، وأما الذين أسلموا كرهاً فهم الذين فطروا على معرفة الله تعالى كالأنبياء والملائكة ، وإن كان لفظ الكره يطلق فى الغالب على ما يخالف الاختيار ويقهره، فإن الله تعالى قد استعمله فى غير ذلك، كقوله بعد ذكر خلق السماء فى الكلام على التكوين « فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً » ، فأطلق الكره وأراد به لازمه، وهو عدم الاختيار، ويرى الشيخ رشيد رضا أن الظاهر أن ما يكون منهم من الانقياد لله تعالى بمقتضى الفطرة

من قسم إسلام الطوع ، وأما ما يقع منهم من التكليف بالاختيار فنه مايفعل طوعاً وما يفعل كرهاً ، وكذا ما يقع بهم : منه ما يكونون كارهين له ومنه ما يكونون راضين به، فإذا كان مراداً فى الآية فالطوع فيه بمعنى الرضى، فالدين الحق هو إسلام الوجه لله تعالى، والإخلاص فى الخضوع له ، وأن الأنبياء كلهم كانوا على ذلك ، وقد أخذ ميثاقهم بذلك على أممهم ولكنهم نقضوه ، لجاءهم النبي الموعود به يدعوهم إليه فكذبوه ، فهم بذلك قد ابتغوا غير دينه الذى زعموه . وقوله تعالى « وإليه يرجعون » أى فيجزيهم بما كانوا يعملون ، قرأ حفص « يرجعون » بالياء كما قرأ « يبغون » وكذلك أبو عمرو على أنه قرأ « تبغون » بالتاء كالجمهور فهو قد جعل الخطاب أولا لليهود وجعل الكلام فى المرجع عاماً وقرأ الباقون « ترجعون » وفاقاً لقراءتهم « تبغون » .

« قل آمنا بالله » الخطاب هنا للرسول عليه السلام ـ أى آمنت أنا ومن معى بوجود الله ووحدانيته وكماله «وما أنزل علينا» من كتابه بالتفصيل ، وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة البقرة « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » الخ ، وقد عدى الإنزال هناك بإلى الدالة على الغاية والانتهاء ، وهنا بعلى التى للاستعلاء ، وكلا المعنيين صحيح كما قال فى الكشاف ، رامياً بالتعسف من فرق بين التعديتين باختلاف المأمور بالقول فى الآيتين ، إذ هو هناك المؤمنون ، وههنا النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن التعدية بإلى وردت فى خطاب النبى ، والتعدية بعلى وردت فى خطاب غيره فى آيات أخرى . وقدم الإيمان بالله على الإيمان بإنزال الوحى ، لأنه الأصل الأول المقصود بالذات والوحى فرع له ، إذ هو وحيه تعالى إلى رسله .

وقوله تعالى « وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » أى وآمنا بما أنزل على هؤلاء بالإجمال ، أى صدقنا بأن الله تعالى أنزل عليهم وحيا لهداية أقوامهم وأنه موافق لما أنزل علينا فى أصله وجوهره ، والقصد منه كما أخبرنا الله تعالى فى مثل قوله « قد أفلح من تزكى » الخ ، وقوله «أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم » الخ، وقوله « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » الخ ، وأما عين ما أوحى إليهم فلم يبق منه

فى أيدى الأمم شىء يعتمد على نقله . « وما أوتى موسى وعيسى » من التوراة للأول والإنجيل للثانى « و » ما أوتى « النبيون من ربهم » كداود وسليمان وأيوب وغيرهم ممن لم يقص الله علينا خبرهم فإن منهم من قصه علينا ومنهم من لم يقصصه، فإذا ثبت عندنا أن نبيا ظهر فى الهند أو الصين قبل ختم النبوة نؤمن به . وقد قدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا ـ مع كونه أنزل قبله فى الزمن ـ لأن ما أنزل علينا هو الأصل فى معرفة ما أنزل عليهم والمثبت له ، ولا طريق لإثباته سواه ، لانقطاع سند تلك وفقد بعضها ووقوع الشك فيما بقى منها ، فما أثبته كتابنا من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل وما أثبته لهم من الكتب كذلك ، ونؤمن بأن أصول ما جاؤوا به واحدة ، وهى الإيمان بالله وإسلام القلوب له ، والإيمان بالآخرة والعمل الصالح مع الإخلاص ، فكما أن الإيمان بالله أصل للإيمان بما أنزل علينا ، كذلك ما أنزل علينا أصل للإيمان بما أنزل عليهم ، فقدم عليه .

وقوله تعالى « لا نفرق بين أحد منهم » أى كما يفرق أهل الكتاب ؛ فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ولا نفرق بينهم فى الدين فنقول : بعضهم على حق وبعضهم على باطل ، بل نقول : إنهم كانوا جميعاً على الحق لا خلاف بينهم فى الأصول والمقاصد ؛ فمثلهم كمثل الولاة الصادقين ، يرسلهم الملك العادل متعاقبين لعمارة الولاية وإصلاح أهلها ، وما يكون من التغيير فى بعض قوانينهم إنما يكون بحسب حال الولاية وأهلها ، والمقصد واحد وهو العمران والإصلاح.

أخبر الرسول عن نفسه وعمن تبعه بالإيمان ؛ فلذلك وحد الضمير فى « قل » وجمع فى « آمنا وعلينا » لأن القرآن كما هو منزل عليه منزل على تابعيه بتوسط تبليغه إليهم ، أو بأن يتكلم عن نفسه بالجمع على طريقة الملوك إجلالا له ، فإن قيل: لم عدى « أنزل » فى هذه الآية بعلى، وفيما تقدم من مثلها فى سورة البقرة بإلى ؟ فالجواب أن الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسل ، فعدى تارة بإلى لأنه ينتهى إلى الرسل، وتارة بعلى لأنه من فوق ، وما قيل من أنه إنما خص ما هنا بعلى وما هناك بإلى ، لأن ما هنا خطاب للنبى، وكان واصلا إليه من الملأ

الأعلى بلا واسطة بشرية ، فناسب الإتيان بعلى وما هناك خطاب للأمة ، وقد وصل إليهم بواسطة النبي الذى هو من البشر، فناسب الإتيان بإلى المختصة بالاتصال ، قال الزمخشرى : فيه تعسف ، ألا ترى إلى قوله « بما أنزل إليك » وه أنزلنا إليك الكتاب» وإلى قوله تعالى « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا» فإن قيل : لم قدم المنزل عليه على المنزل على سائر الرسل ، فالجواب أنه إنما قدم، لأن المنزل عليه هو المعرف للمنزل على سائر الرسل، وأنه أفضل الكتب المنزلة « ونحن له مسلمون » أى موحدون مخلصون له فى العبادة ، لا نجعل له شريكا فيها .

ونزل فيمن ارتد ولحق بالكفار ، وهم اثنا عشر رجلا ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا ، منهم الحارث بن سويد الأنصارى « ومن يبتغ غير الإسلام دينا » أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله ، فهو مشتمل على الإيمان بهذا التقدير ، وأيضا فلفظ « دينا » تمييز مبين للإسلام ، والدين يشتمل على التصديق والأعمال الصالحة فالإسلام كذلك ؛ لأن المبين لا يخالف المبين ، وعلى هذا حمل الإسلام على الدين فى قوله تعالى « إن الدين عند الله الإسلام » والدين هو الوضع الإلهى السابق لكل خير « فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » لمصيره إلى النار المؤبدة عليه .

هذا هو الإسلام الذى لا يرضى لنا الله تعالى دينا بدلا عنه ، والذى اعترف بتقدميته أعلام الشرق والغرب ، والذى وقف الغربيون حيال ضوئه مبهوتين مدهوشين ، قال كاين بيلر : « إن الإسلام قد سبق النصرانية بمراحل شاسعة ، فإن النصرانية فى بعض الجهات أخذت فى التقهقر إلى الوراء أمام الدين الإسلامى ، فى حين أن الوسائل التى تستعملها لتنصير الأمم الإسلامية يفشل أمرها ، والشباك التى تنصبها لهم تنقطع حبالها .. والدين الإسلامى يمتد الآن من مراكش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو فى داخل إفريقيا خطوات كبيرة ، وتعتنقه أمم كثيرة ، وقد خطا بنفسه وثبت قدمه فى إفريقيا وآسيا ، وهو من غير شك ينشر الإخاء والمساواة ، وقال اللورد استانلى وقد سئل : لم أسلمت

وقد كنت مغرقا فى نصرانيتك ؟ : «أوأغمط الفضل أهله ، أوأجحد الله وعلمه، أنا مسلم ، رأيت أثر الإسلام وقدرته فى نفسى حق قدره ، وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث واجتهاد ، فلا أقبل به بديلا .. أنا مسلم ، أهزأ بكل مايحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لايلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه » وقال توماس كارليل : «ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية، وكل مالم يكن بحق ، كأنه حطب جاف أكلته نار الإسلام فذهب ، والنار لم تذهب .. ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لايسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة ، منذ بدء العالم ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فإذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا . وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب . وماهو إلا قرن بعد هذا الحادث ، حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة، بنور الفضل والنبل، والمروءة والبأس، والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة » . وقال اللورد هدلى: «إن فى انجلترا ألوفا من الأفراد المثقفين وهم مسلمون فى قلوبهم ، وإن لم يعلنوا ذلك جهاراً ، وقد شرحت لكثير منهم ماهية الإسلام فكانوا يجيبوننى ، إذا كان هذا هو دينك فإنا إذن مسلمون ، لأن هذا ما نعتقده وما نفكر فيه » . وقال فارس الخورى ، أحد وزراء سوريا المسيحيين ، من خطبة له فى إحدى الحفلات الكبرى ، التى أقيمت بدمشق ، عام ١٩٣٥ ، لإحياء ذكرى مولد الرسول صلوات الله عليه وذلك فى رسول الإسلام، وفى مبادئه الخالدة : «إن محمدا أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بعد بمثله ، والدين الذى جاء به أولى الأديان وأتمها وأكملها . وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء

القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس إليه باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ، ومطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية . إن محمداً الذى تحتفلون به وتكرمون ذكراه، أعظم عظماء الأرض كافة ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم ، على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها » .

إلى غير ذلك ، من آراء المفكرين فى الغرب والشرق ، مما تركنا الإشارة إليه ، ومما سيجىء بعضه ، وهى كلها شهادات ناطقة ، بجلال الإسلام ، وعظمة مبادئه ، وسمو أهدافه ، واعترافه بحقوق الإنسان ، وبحريات الشعوب ، وإنقاذه للإنسانية من براثن الجهل والخوف والاضطراب والظلام .

لقد فتح الإسلام صفحة جديدة فى تاريخ البشرية ، وكتب سفرا خالدا حافلا بأروع جهاد عرفته الإنسانية ، وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء . وأكبر ثورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان ، واستعباد القوى للضعيف . ثورة أنقذت العالم من حياته الذليلة البدائية وأحالت ظلام الحياة نورا . وخوفها أمنا وسلاما وظلمها عدلا وإنصافا وحرية ، مما شهد به أفذاذ المفكرين والمؤرخين ، ودعاة الإصلاح لقد كانت رسالة محمد صلوات الله عليه ، أول إعلان عالمى لحقوق الإنسان وأكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته فى الحياة ، وإصلاحا شمل جميع ميادين الإصلاح ؛ جاء الإسلام والعرب قبائل موزعة ، وأحياء متخاصمة ، لا يجمعهم دين ولا سلطان ولا شريعة اجتماعية ؛ فبدلهم من ذلك كله نظاما موحدا ، وحياة كريمة مهذبة ، فى الاجتماع والسياسة ، وفى الدين والدنيا . واعترف الإسلام للإنسان : بحريته واستقلاله الفكرى والاجتماعى والمالى وجعله حرا طليقا من كل قيد ؛ إلا من الخضوع لدين الله ، وللحاكم الأعلى الذى يحكم بشريعة الله ، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس ؛ فرفع بذلك من كرامة الإنسان ومعنويته ، وجعله خليفة له فى الأرض يعمرها ،

ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل ، وما حث عليه من العلم والعمران والإخاء ، التى هى أسباب وثيقة للمدنية والحضارة . ونظم الأسرة على أسس اجتماعية سليمة ، فشرع الزواج وجعله رباطا مقدسا بين الرجل والمرأة ، وجعل الأسرة هى الوحدة الصغيرة التى يتكون منها المجتمع والشعب ، وحافظ عليها ، ودعا إلى رعايتها ، وحرم العلاقات الآثمة والبغاء ، لحفظ الأنساب ، ودعم كيان الأسرة . ورفع من شأن المرأة ، وجعلها شريكة الرجل فى الحياة ، وفرض نفقتها ونفقة الأولاد على الزوج ، وحتم عليهما حسن التعهد للأبناء ، والقيام بتربيتهم وتهذيبهم وتثقيفهم ، حتى يبلغوا مبلغ الشباب . ودعا الإسلام إلى أن يكون الناس إخوة متحابين متعاونين فى الحياة ، وساوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، وحرم دعوة العصبية واستبدل بها دعوة الدين ، والطاعة لحاكم واحد يلزم شريعة الله ، وشرع كثيرا من الشرائع الاجتماعية التى يزيد فى قوة المجتمع ووحدته : كالحج والزكاة وصلاة الجماعة والإحسان . وحارب الرذائل الاجتماعية ، والعادات الفاسدة والتقاليد الجامدة ، وأزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وحرم الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم وأرواحهم وحرياتهم ، وأباح الطيبات من الرزق ومكاسب الإنسان الشريفة وأيقظ الضمير وهذبه وجعله رقيبا على أعمال الإنسان ، كما ألقى عبء حفظ النظام ، والسهر على الأمن على كاهل الحاكم الأكبر ، ومن يعاونونه فى خدمة الأمة ورعاية مصالح الناس . وحارب الإسلام الأديان الفاسدة ، والعقائد الزائفة . وجه الناس كافة إلى الله وحده لا شريك له ، فرفع من كرامة الإنسان وشخصيته فى الحياة ، ونبه من شأن العقل ، وحكمه فى كل شىء ، فحارب التقليد والجمود ، ودعا إلى استقلال الإنسان بالتفكير ، وبذلك بعث العقل البشرى قويا فتيا يبحث فى أسرار الوجود والحياة ، وطاردت الأوهام الفاسدة التى تضعف من شأن الفكر ، وتدعوه إلى الكسل والخوف ، وتحمله على الإيمان الأعمى والتسليم المطلق . وبحق إنه دين الإنسانية كافة ، وعقيدة البشرية المتطلعة إلى الكمال فى كل شىء وكل ميدان .

ولا يزال الإسلام كما كان حارس المدنية الأمين، والمنقذ الأكبر للناس من الفوضى والانحلال، والداعي للنهضة والتقدم والرقى، والباعث على الخير والبر والإحسان والرحمة، والمقوم لأفكار المسلمين من الزيغ والضلال والهوى والشر، والحائل بينهم وبين المبادىء الهدامة والأفكار الباطلة. وهو الساعد القوى المحكوم الله على نشر الأمن والسلام والحب والتعاون فى قلوب المسلمين كافة، فهو الذى يثقف العقول ويهذب النفوس ويحيى الضمائر ويرهف الإحساس ويحفز إلى الخير، ويقيم من المجتمع الإسلامى وحدة تامة يسودها الإخاء والمساواة والحب والتعاون. الإسلام حقائق واضحة، وروح سمح، وتجديد مستمر فى بناء النهضة، ودفاع عن العدالة والحق والسلام. وليس طغيانا وعدوانا، وإزهاقا للأرواح وسلبا للأموال، وحبا للجريمة ورغبة فى الإفساد. وإذا كانت العامة لا تفهم الدين فى الزمن الماضى، فما أجدرهم بالوقوف على حقائقه وفهمه حق الفهم فى عصرنا الراهن، بعد أن يسرت أسباب الثقافة الإسلامية وفهمها. ولقد كان انحراف العامة من المسلمين عن الدين سببا فى هذه التهمة الباطلة التى رددها المتعصبون من الأوربيين، وهى أن الإسلام يقف فى طريق النهضة والحضارة لأنه دين الجمود والخمول، ألا كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا، قل لى بربك: متى وقف الإسلام فى طريق النهضة ؟، وهو الذى نشر الحضارة والثقافة فى العالم، ورعى العلوم والآداب فى عصور الظلام والفوضى، ومهد لعصر الإحياء، وساعد على حفظ وتجديد تراث الإنسانية الروحى والأدبى، وقل لى بربك: متى كان الإسلام دين الجمود ؟ وهو الذى دعا إلى أروع المبادىء الروحية والاجتماعية والسياسية والإنسانية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، ونشر مبادىء الحق والعدالة والإخاء والمساواة والديمقراطية الصحيحة قبل الثورة الفرنسية بأجيال عديدة، لا يزال الإسلام كما كان وكما يصوره أبو سفيان بن حرب عدوا لدود حين سأله هرقل عن دعوة محمد فقال: «يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم». ولم يكن رسوله

الأكبر زعيما دينيا متعصبا ، بل كان نبيا رحيما بالناس والحياة ، فأنصف البشرية ودعا إلى تحررها وتجديدها ، وكان كما يقول حتى خصومه في وصفه : « يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الدهر » ومع ذلك كله فلابد من أن نفهم ديننا فهما صحيحا ، وأن يكون سلوكنا في الحياة وفق نواهيه ، حتى لا يرمى الإسلام بسببنا بتهم باطلة ، فما أجدرنا أن نؤمن بالدين إيمانا صحيحا ، وأن نؤمن إلى الله وإلى الحق والإسلام .

٨٦ — كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٨٧ — أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

٨٨ — خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

٨٩ — إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٩٠ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ .

٩١ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ .

أثر عن ابن عباس أنه قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لى من توبة ؟ فنزلت « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم » إلى قوله « فإن الله

غفوررحيم ، فأرسل إليه قومه فأسلم . وأخرج مسدد فى مسنده عن عبد الرزاق عن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم كفر فرجع إلى قومه ، فأنزل الله « كيف يهدى الله قوما » إلى قوله « غفور رحيم » فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث : إنك والله ما علمت لصدوق ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة ، فرجع فأسلم وحسن إسلامه . اه من لباب النقول . وفى روح المعانى : أخرج ابن حميد وغيره عن الحسن أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد فى كتابهم وأقروا وشهدوا أنه حق ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك، فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسدا للعرب حين بعث من غيرهم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس مثله . وقال عكرمة : هم أبو عامر الراهب والحارث بن سويد فى اثنى عشر رجلا رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش ، ثم كتبوا إلى أهلهم : هل لنا من توبة ؟ فنزلت الآية فيهم . قال الألوسى وأكثر الروايات على هذا . وفى التفسير الكبير ثلاثة أقوال فى سبب نزول الآية : الأول: عن ابن عباس أنها نزلت فى رهط كانوا آمنوا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم أخذوا يتربصون به ريب المنون، فأنزل الله فيهم هذه الآية، وكان فيهم من تاب ، فاستثنى التائب منهم بقوله « إلا الذين تابوا » . والثانى: عنه أيضا أنها نزلت فى يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم — كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعثه ، وكانوا يشهدون له بالنبوة ، فلما بعث وجاءهم بالبينات كفروا بغيا وحسدا . والثالث: نزلت فى الحارث بن سويد كما تقدم . على أن هذه الآيات متصلة بما قبلها، وذلك أنه لما بين حقيقة الإسلام ، وأنه دين الله الذى بعث به جميع الأنبياء ، والذى لا يقبل غيره من أحد ، ذكر حال الكافرين به وجزاءهم وأحكامهم، وقد رآها أصحاب أولئك الروايات فى سبب نزولها صادقة على من قالوا : إنها نزلت فيهم ، فذهبوا إلى ذلك. وأظهر تلك الروايات وأشدها التئاما مع السياق رواية من يقول : إنها نزلت فى أهل الكتاب ، وهو الذى اختاره ابن جرير

ونختاره نحن ، لأن الكلام من أول السورة معهم ، وفى شأنهم كان الحديث وقوله تعالى «كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم» هو استبعاد لهداية هؤلاء ، وفسرت المعتزلة الهداية بالالطاف الذى يكون من الله للمؤمنين ، أو بالهداية إلى الجنة وأهل السنة بخلق المعرفة ، قالهما الرازى وكلاهما ضعيف ، وفسرها ابن جرير بالتوفيق والإرشاد ، فأما الإرشاد فقد أوتوه ، ولولا ذلك لكانوا معذورين ، ولولاه لما كان لإيمانهم بعد مجيء البينات معنى ، والصواب ما أشرنا إليه من أن المعنى استبعاد هدايتهم بحسب سنن الله تعالى فى البشر وإيئاس النبى من إيمانهم . ووجه الاستبعاد أن سنة الله تعالى فى هداية البشر إلى الحق هى أن يقيم لهم الدلائل والبينات مع عدم الموانع ، من النظر فيها على الوجه الذى يؤدى إلى المطلوب ، وكل ذلك قد كان لهؤلاء ، ولذلك آمنوا من قبل «وشهدوا أن الرسول حق» ، ثم كفروا مكابرة لأنفسهم ومعاندة للرسول حسداً له وبغيا عليه . أو المعنى : بأية كيفية تكون هداية من كفروا بعد إيمانهم ، والحال أنهم قد شهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات التى تبين بها الحق من الباطل والرشد من الغى ، ولم يغن عنهم ذلك شيئا لغلبة العناد والاستكبار على نفوسهم ، والحسد والبغى على قلوبهم ; فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم باستحباب العمى على الهدى «والله لا يهدى القوم الظالمين» أى مضت سنته بأن الظالم لا يكون مهتديا ، ويرى الإمام محمد عبده — كما ذكر صاحب تفسير المنار — فى تفسير الآية طريقتين : إحداهما شهادتهم بأن الرسول حق ، هى أنهم كانوا يعرفون بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا عازمين على اتباعه إذا جاء فى زمنهم وانطبقت عليه العلامات وظهرت فيه البشارات ، ثم إنهم كفروا به وعاندوه بعد مجيئهم بالبينات لهم وظهور الآيات على يديه ، والله لا يهدى أمثال هؤلاء الظالمين لأنفسهم والجانين عليها . ووضع الوصف «الظالمين» مكان الضمير لبيان سبب الحرمان من الهداية ، فإن الظلم هو العدول عن الطريق الذى يجب سلوكه لأجل الوصول إلى الحق فى كل شىء بحسبه ، فذكره من قبيل ذكر الدليل على الشىء بعد ادعائه ، وما كان

من تمسك هؤلاء باختيارهم لطريق الحق وهو العقل وهدى النبوة بعد ما عرفوه بالبينات هو نهاية الظلم والهداية هنا هي التي أمرنا بطلبها في سورة الفاتحة ، وهي الاتصال إلى الحق ؛ لأن سائر معاني الهداية عام لهم ولغيرهم .
وثانية الطريقتين أنهم كفروا بعد ما سبق لهم من الإيمان بالرسل - فالرسول على هذا القول للجنس — وجاءهم البينات على ألسنتهم ، وذلك بتركهم ما اتفق عليه أولئك الرسل من التوحيد الخالص ، وإسلام الوجه لله ، وإخلاصه له بالبراءة من حظوظ النفس وأهوائها في الدين ، واستبدالهم بهذه الهداية ما وضعوا لا نفسهم من التقاليد والبدع . وحاصل المعنى على هذه الطريقة : كيف ترجو يا محمد هداية هؤلاء المعاندين لك ظنا أن معرفتهم بالكتاب والإيمان جعلتهم أقرب الناس إلى معرفة حقيقة ما جئت به بعد ما علمت من كفرهم بحقيقة ما كانوا عليه من الإسلام بنقضهم الميثاق وتحريفهم الكلم . والكلام على هذه الطريقة مبنى على اعتبار الأمة كالشخص لتكافلها ، كما قرره مرارا ، فالمراد بكفرهم بعد إيمانهم كفر مجموع الحاضرين وأمثالهم بعد إيمان مجموع سلفهم لا إن كل واحد من الكافرين كان مؤمنا ثم كفر .

وقوله تعالى «أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» لعنة الله عبارة عن سخطه ، ولعنة الملائكة والناس إما سخطهم وهو الظاهر هنا ، وإما الدعاء عليهم باللعنة ، أي أنهم متى عرفوا حالهم فإنهم يلعنونهم ، والمشهور أن معنى اللعنة الطرد والإبعاد ، فني حقيقة الأساس «لعنه أهله : طردوه وأبعدوه وهو لعين طريد» ، والجمهور يفسرون لعن الله لمن يلعنه بطرده من جنته أو من رحمته أي الخاصة ، إذ الرحمة العامة مبذولة لكل مخلوق ، ويفسرون السخط والغضب منه بنحو ذلك ؛ لأن ما أطلق عليه تعالى من الأوصاف التي تدل في البشر على الانفعالات تفسر بآثارها التي هي أفعال .

وقوله تعالى «والناس أجمعين» يرد عليه أن من على عقيدتهم لا يلعنونهم ، وقد أجيب عن ذلك بأن كل الناس يلعنونهم متى عرفوا حقيقة حالهم ، فالمعنى أن هذه الحالة التي هم عليها مجلبة للعنة بطبعها من كل من عرفها . وصحح الرازى

أن المراد به ما يجرى على ألسنة جميع الناس من لعن الكافر والمبطل. وقال أبو مسلم: له أن يلعنه وإن كان لا يلعنه: كأنه يفسر اللعن باستحقاقه، وهناك وجه ثالث وهو أن ذلك يكون فى الآخرة، ويؤيده قوله تعالى «وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً»، وقيل إن المراد بالناس المؤمنون.

وقوله تعالى «خالدين فيها» أى فى اللعنة والنار، أو العقوبة المدلول باللعنة عليها «لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون» أى يمهلون «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا» عملهم أى تصديقا لتوبتهم «فإن الله غفور» لهم بقبل توبتهم «رحيم» بهم يتفضل عليهم، وذلك أن الحارث بن سويد لما ارتد ولحق بالكفار ندم، فأرسل إلى قومه أن اسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لى من توبة؟ فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية، فأقبل إلى المدينة فتاب، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته؛ ونزل فى اليهود «إن الذين كفروا» أى بعيسى والإنجيل «بعد إيمانهم» بموسى والتوراة «ثم ازدادوا كفرا» بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن. وقيل: كفروا بمحمد بعدما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالإصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق «لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون» أى الثابتون على الضلال، فإن قيل: قد وعد الله تعالى قبول توبة من تاب. فما معنى قوله تعالى «لن تقبل توبتهم» فالجواب أن محل القبول إذا كان قبل خروج الروح، أو أنهم لم يتوبوا أصلا، فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها أو أن توبتهم لا تكون إلا نفاقا «إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء» أى مقدار ما يملؤها من «الأرض» شرقها إلى غربها «ذهبا» تغليظا فى شأنهم وإبراز حالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة وقال فى الآية الأولى «لن تقبل» بغير فاء، وفى هذه الآية بقوله «فلن يقبل» بالفاء لأن الفاء إنما دخلت فى خبر «إن» لشبه «الذى» بالشرط وإيذانا بسبب امتناع الفدية على الموت على الكفر بخلافه فى الآية الأولى، إذ لا دليل فيه على السبب.

وقوله تعالى «ولو افتدى به» محمول على المعنى كما قيل ، فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، أو معطوف على مضمر تقديره: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو تقرب به فى الدنيا ، ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة . ويجوز أن يراد: ولو افتدى بمثله لقوله تعالى «ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه» والمثل يحذف كثيرا فى أقوالهم، كقوله: سافرت سفر الأثرياء ، وأبو يوسف وأبو حنيفة تريد مثله «أولئك لهم عذاب أليم» أى مؤلم «وما لهم من ناصرين» أى مانعين عنهم العذاب ، ومن مزيدة للاستغراق ، روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة : لو أن لك ما فى الأرض من شىء أكنت تفتدى به؟ فيقول : نعم ، فيقول : أردت منك أهون من ذلك وأنت فى صلب آدم ، أن لا تشرك بى شيئا ، فأبيت إلا أن تشرك بى .

٩٢ — لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

قال جمهور المفسرين : إن قوله تعالى «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» خطاب للمؤمنين ، وإنه كلام مستأنف سيق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم ، إثر بيان ما لا ينفع الكافرين ولا يقبل منهم . وقيل إن الخطاب لا يزال لأهل الكتاب . ذلك أن من سنة القرآن أن يقرن الكلام فى الإيمان بذكر آثاره من الأعمال الصالحة ، وأدلها عليه بذل المال فى سبيل الله ، فلما حاج أهل الكتاب فى دعاويهم فى الإيمان والنبوة وكونهم شعب الله الخاص ، وكون النبوة محصورة فيهم ، وكونهم لا تمسهم النار إلا أياما معدودات خاطبهم فى هذه الآية بآية الإيمان وميزانه الصحيح ، الذى يعرف به المرجوح والرجيح ، وهو الإنفاق فى سبيل الله من المحبوبات ، مع الإخلاص وحسن النية ، كأنه يقول إنكم أيها المدعون لتلك الدعاوى والمفتخرون بالكتاب الإلهى ، واتصال حبل النسب بالنبيين قد أحضرت أنفسكم الشح وآثرتم شهوة المال على مرضاة الله وإذا أنفق أحدكم شيئا ما فإنما ينفق

من أردأ ما يملك وأبغضه إليه وأكرهه عنده ، لأن محبة كرائم المال في قلبه تعلو محبة الله تعالى ، والرغبة في ادخاره تفوق لديه الرغبة فيما عند ربه من الرضى والمثوبة ، ولن تنالوا البر فتعدوا من الأبرار الذين هم المؤمنون الصادقون ، حتى تنفقوا مما تحبون ، فحذف ذكر الإيمان استغناء بذكر أكبر آياته ، وأوضح دلالاته ، وهي إنفاق المحبوبات ، وبذل المشتهيات ، وقال الأستاذ الإمام : إن المتبادر من الإنفاق هنا هو إنفاق المال ، لأن شأنه عند النفوس عظيم ، حتى أن الإنسان كثيرا ما يخاطر بنفسه ويستسهل بذل روحه لأجل الدفاع عن ماله والمحافظة عليه .

واختلفوا في البر المراد هنا ، الذي لا يناله المرء أي يصيبه ويدركه إلا إذا أنفق مما يحب ، فقيل : هو بر الله تعالى وإحسانه مطلقاً ، وقيل : الجنة ، وقيل : هو ما يكون به الإنسان بارا ، وهو ما تقدم تفصيله في قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر » الآية ، وفيها « وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى » الخ ، والإنفاق مما تحبون أي من أموالكم أو ما يعمها وغيرها ، كبذل الجاه في معاونة الناس ، والبدن في طاعة الله تعالى ، والنفس في سبيله . وقال الحسن : أن تكونوا أبرارا . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » . وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله . روى أنها لما نزلت هذه الآية جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله : إن أحب أموالي إلى بيرحا وهو بفتح الباء الموحدة وكسرها وبفتح الراء وضمها مع المد والقصر : ضيعة بالمدينة ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فضعها يا رسول الله من حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بخ بخ ذاك مال رابح أو مال رائح ، وإني أراك أن تجعلها ، في الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل

يا رسول الله ، فقسمها فى أقاربه ، وقوله صلى الله عليه وسلم : بخ بخ كلمة تقال عند المدح والرضا بالشىء، وتكرر للمبالغة والرضاء وقوله: رابح أو رائح، يقال لضيعة الإنسان: مال رايح أى يروح نفعه إليه، ورابح بالباء الموحدة أى ذو ربح، وجاء زيد بن حارثة بفرس يحبها ، كان له فقال: هذه فى سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد بن حارثة ، فكان زيد أوجد فى نفسه وقال : إنما أردت أن أتصدق به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أن الله قد قبلها منك . وكتب عمر رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى ، فلما جاءت أعجبته ، فقال : إن الله تعالى يقول « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فأعتقها وقال : لولا أنى لا أعود فى شىء جعلته لله لتزوجتها ، « وما تنفقوا من شىء » أى من أى شىء تحبونه أو غيره ، و (من) بيان لـ (ما) « فإن الله به عليم » أى فيجازيكم عليه ، ويثيبكم به .

نظرات فى الجزء الثالث

من كتاب الله الكريم

(١)

يتضمن هذا الجزء الثالث من كتاب الله الكريم أصولا جليلة من أصول الإسلام ، دين الله الخالد العظيم .

ففيه تفصيل لأحكام الربا ، وفيه دعوة للإنفاق فى سبيل الله والخير والمعروف ، وفيه تبيين لأصول المعاملات فى الإسلام ، وفيه تأكيد قوى فى أكثر من موضع إلى أن شرائع الله إلى الرسل قد تجمعت كلها فى شريعة محمد صلوات الله عليه وفى رسالته ، وإلى أن الإسلام هو دين الله ؛ وهو الدين الحق الذى يجب أن تؤمن به الإنسانية ، وإلى أنه دين النبيين من قبل ، وإلى أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم وأخفوا منها كل ماهو بشارة بمحمد ، ودعوة إلى الإيمان برسالته ، وإلى أن النبيين قد أخذ عليهم الميثاق بأن يؤمنوا بمحمد عند ظهوره وقيام دعوته . . .

وفى هذا الجزء حديث عن بدر وعن امرأة آل عمران وميلاد مريم ونشأتها ، وميلاد المسيح ونشأته ورسالته وكفاحه ضد اليهود ؛ وفيه كذلك نقاش لأهل الكتاب ، وإفحام لهم ، وإلزام لهم كذلك بالإيمان برسالة الإسلام ، ومحمد عليه السلام . .

(٢)

ونحب أن ننبه هنا إلى أصل ضخم من أصول فهمنا للقرآن الكريم ، وهو أن سورة البقرة نزلت فى حجاج اليهود وكشف مزاعمهم ونواياهم وأخلاقهم وعقائدهم الفاسدة . . أما سورة آل عمران فهى فى حجاج النصارى والكشف عن تزييفهم ، ودعوتهم إلى الإيمان بحقيقة مريم وعيسى ، وبرسالته الصحيحة التى تؤمن برسالة محمد عليه السلام .. وهذه السورة تكشف عن صنيع المتقدمين والمتأخرين من النصارى ، وتكشف لبسهم ، وتزيف زيفهم ، وتظهر حقيقتهم ، وتبين ماحرفوه من كتاب الله الإنجيل ، وتؤكد أمر بشارة عيسى عليه السلام بمحمد وبرسالته .

وليس معنى كون السورة فى شأن اليهود أو النصارى أنها وقف على ذلك وحده ، بل أن هيكلها الأصلى قائم على ذلك ، مع تطرقها أثناء الحديث عن المحور الأصلى لها إلى أمور كثيرة : من شرح الإسلام وعقائده وأصوله ، ومناقشة أهل الديانات والمذاهب الأخرى ، وغير ذلك مما يشير إليه الله عز وجل فى كثير من المواضع ، فسورة البقرة إذن كان محورها الأصلى ، وهيكلها الأول فى حجاج اليهود ، وسورة آل عمران كذلك كان محورها الأول فى جدال النصارى أتباع المسيح عليه السلام وفى نقاشهم ، سواء المتقدمون منهم ممن جاءوا بعد عصر عيسى عليه السلام مباشرة ، أو المتأخرون ممن جاءوا فى عصر رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . . وأحب أن تستقر هذه الحقيقة دائما فى الأذهان والقلوب .

(٣)

يبدأ هذا الجزء - أو على وجه التعبير الصحيح - الربع الأول منه ، ببيان منزلة الرسالات والرسل ، واختلاف الأمم والشعوب من بعد ما نزلت عليهم رسالات السماء ، وبقاء بعضهم فى ظلال هداية السماء ، وكفر البعض الآخر بها . . ويخاطب الله جل جلاله المؤمنين من عباده بالإنفاق والسخاء ، ويعبر عن البخلاء هنا بالكافرين ، والكافرون هم الظالمون . . . وينتقل القرآن الكريم إلى تمجيد الله وتنزيهه وتعظيمه وذكر سعة ملكه وأنه وسع كرسيه السموات والأرض ، ومع ذلك فهو القائم بحفظهما ولا يؤوده ذلك وهو العلى العظيم . . ويعبر القرآن الكريم عن حقيقة خالدة من حقائق الإسلام وأصوله الرفيعة ، وهى أنه لا إكراه فى الدين ، لأن الإنسانية قد بلغت نضجها ، ولأن العقل البشرى قد صار يستطيع التمييز بين الخير والشر والهدى والضلال والرشد والغى ، ويبين الله جل وعز أن المؤمنين برسالة السماء والكافرين بالطاغوت هم المستمسكون بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وهم الناجون من الضلال ومن النار ، وهم الفائزون برضاء الله ورضوانه ، والله ولى المؤمنين ، ومرشدهم ، ومخرجهم من الظلمات إلى النور ، أما الكافرون فأولياؤهم هم الشياطين ويخرجوهم من النور إلى الظلمات ، من طريق الهدى إلى طرق الشيطان ، من الحق إلى الباطل ، وكم للباطل من شعاب وطرقات ، ومصير هؤلاء إلى النار وإلى الجحيم . . وينتقل القرآن الكريم إلى وضوح الأمر وجلائه فى وجود الله وقدرته ، وخاصة على البعث والنشور والحساب ، ويضرب لذلك المثل بقصة إبراهيم مع نمروذ ، وبقصة هذا الذى تعجب وقال عن قرية خاوية :

كيف يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، حتى أيقن أن الله على كل شيء قدير ، وقصة إبراهيم وقد سأل ربه : كيف تحيى الموتى . . ويحض القرآن الكريم على الإنفاق فى سبيل الله والخير ، ويبين كيف يضاعف الله للمنفقين فى الدنيا والآخرة ، ويحض على ترك المن والأذى عند الإنفاق مبينا جزاء المنفقين المخلصين لله عند الله تبارك وتعالى .

وفى الربع الثانى يفيض القرآن الكريم فى الحث على الإنفاق ، والبعد عن إيذاء الفقير والامتنان عليه ، ويدعو إلى الإنفاق من طيب الأموال ، حلالها وجيدها ، وإلى البعد عن وساوس الشيطان وعدم العمل بها ، لأنه يوسوس للإنسان دائما ويدعوه إلى أن يبتعد عن كل خير ؛ ويؤثر القرآن الكريم للمسلمين أن يخفوا صدقاتهم ، وأن يقصدوا بها وجه الله تعالى . . وفى هذا الربع يرشد القرآن الكريم إلى حقيقة عالية ، وهى أن الله يؤتى الحكمة من يشاء من عباده ، والحكمة هى النبوة أو سداد التفكير والقول .

وفى الربع الثالث يذكر القرآن الكريم لرسول الله بأنه ليس عليه هدى الكافرين والضالين . لأن الله هو الهادى وهو المرشد ، ويفيض القرآن العظيم فى الحث على الإنفاق والبذل فى سبيل الله وابتغاء وجهه الكريم ، لأن ثواب ذلك فوق التقدير ، ولأن كل منفق سوف ينال أجره مضاعفا ، ويحذر الله تعالى من الربا ويأمر باجتنابه ، كما يأمر بكتابة الديون وبالإشهاد على المعاملات المالية ، وعند البيع والشراء .

وفى الربع الرابع ينهى الله عز وجل عن كتمان الشهادة ، ويبين سعة قدرة الله وعلمه وإحاطته بما فى الصدور ، وأنه يحاسب الناس على ما فى أنفسهم : أبدوه أو أخفوه . فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير . . ويبين الله عز وجل ضرورة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وضرورة سماع دعوة الله ورسالاته إلى الرسل ، والإيمان بها ، والعمل بما تضمنته من مبادىء وتشريعات ، وهنا يشرح الله عز وجل صفات المؤمنين: من الإيمان والطاعة والعمل والتضرع إلى الله وسؤاله المغفرة والإيقان بأن إليه وحده المصير ، وأنه مولى المؤمنين ، ومن الإلحاح على مقامه بسؤاله الغفران والنصر على الكافرين جميعاً ، وهنا تنتهى سورة البقرة ، وتبدأ سورة آل عمران التى بدأها الله عز وجل بتمجيده وتعظيمه ، وبالإشارة

إلى القرآن وعظمته وأنه منزل من الله على محمد عليه السلام بالحق ، مصدقا لما سبقه من كتب سماوية مقدسة ، وكما أنزل الله تبارك وتعالى التوراة والإنجيل فقد أنزله ، ومن لم يؤمن بذلك وكفر بآيات الله فلهم عذاب شديد وعليهم انتقام الله ، والله عزيز ذو انتقام ، وهو لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو الذي يصور الناس في الأرحام كيف يشاء ، ومعنى التصوير خلق الأشكال والسمات والخصائص وسميها ، ألم تروا إلى الطفل كيف يولد وله وجه وفم ولسان ، وله عينان وأذنان ، وله يدان ورجلان ، كامل الخلقة ، سوي الأعضاء ، ينطق وجهه بقدرة الله البارىء المصور القادر العزيز الحكيم . . ويمتن الله عز وجل على رسوله الكريم بأنه أنزل عليه الكتاب آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الكافرون فيتبعون المتشابه منه ، ابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله ، وأما الراسخون في العلم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . وهنا يختلف العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل ، قالوا : إن التفسير يطلق في اللغة على البيان والكشف . ويطلق كذلك على التعرية للانطلاق يقال: فسرت الفرس إذا عريته لينطلق، ولعله يرجع لمعنى الكشف كما لا يخفى ، بل كل تصاريف حروفه لا تخلو عن ذلك كما هو ظاهر لمن أمعن النظر . . وهو في الاصطلاح علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك ، كمعرفة النسخ وسبب النزول وما يوضح ما أبهم في القرآن ونحو ذلك .

أما التأويل فمن الأول وهو الرجوع ، والقول بأنه من الإيالة وهي السياسة ، كأن المؤول للكلام ساس الكلام ووضع المعنى فيه موضعه ، ليس بشيء .

واختلفوا في الفرق بين التفسير والتأويل : فقال أبو عبيدة : هما بمعنى ، وقال الراغب : التفسير أعم ، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها في الكتب الإلهية وغيرها ، والتأويل في المعاني والجمل في الكتب الإلهية خاصة ، وقال الماتريدي : التفسير القطع بأن مراد الله تعالى كذا ، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع ، وقيل : التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية ، وقيل غير ذلك .

وفهم القرآن العظيم المشتمل على الأحكام الشرعية التي هي مدار السعادة الأبدية

وهو العروة الوثقى والصراط المستقيم، أمر عسير لا يهتدى إليه إلا بتوفيق من اللطيف الخبير ، حتى إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، على علو كعبهم فى الفصاحة ، واستنارة بواطنهم بما أشرق عليها من مشكاة النبوة ، كانوا كثيراً ما يرجعون إليه ﷺ بالسؤال عن أشياء لم يعرجوا عليها ، ولم تصل أفهامهم إليها ، بل ربما التبس عليهم الحال ، ففهموا غير ما أراد الله ، كما وقع لعدى بن حاتم فى الخيط الأبيض والأسود ، ولا شك أننا محتاجون إلى ما كانوا محتاجين إليه وزيادة .

وقد فسر ابن عباس الحكمة فى قوله تعالى : « يؤتى الحكمة » بأنها المعرفة بالقرآن : ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله ، وأخرج أبو عبيدة عن الحسن قال : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فيما أنزلت وما أرادبها ، وأخرج ابن أبى حاتم عن عمرو بن مرة قال : مامررت بآية لا أعرفها إلا أحزنتنى لأنى سمعت الله يقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » . .

ويعلم الله عز وجل المؤمنين المخلصين من عباده : كيف يتضرعون إليه ويسألونه الهداية والسداد ، والبعد بينهم وبين الزيغ والضلال ، وأن يهب لهم من لدنه رحمة ، فهو الوهاب ، وهو جامع الناس ليوم لاريب فيه ـ هو يوم الحساب والبعث ـ والله لايخلف الميعاد . . وهنا يؤكد الله عز وجل أن الكافرين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم شيئا من الله ، وأنهم وقود النار ، ويستشهد الله جل وعز بمصير فرعون وقومه ، وينبه المشركين إلى أن مصيرهم الهزيمة والفشل فى حربهم لله ولرسوله وللإسلام ، بل وفى الآخرة لهم العذاب الشديد .

وهذه معجزة ما بعدها من معجزة ، معجزة ترشد إلى أن القرآن منزل من عند الله ، وأنه لا ينطق عن الهوى ، وأنه كتاب حق وصدق ، وأن محمدا لم يفتر هذا الكتاب المبين على الله ، فقد أخبر القرآن الكريم أن مصير الكافرين المشركين فى حربهم الإسلام الاندحار والخيبة والفشل ، ووقع ما أخبر به القرآن الكريم ، وينبه القرآن الكريم إلى أن النصر لا يتوقف على كثرة ولا على قلة ، فالنصر من عند الله ، وللناس عبرة وعظة فى غلبة المؤمنين فى بدر وهم قلة عزلاء ، وفى هزيمة المشركين وهم كثرة مسلحة ، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده المخلصين الطائعين المؤمنين ، الذين يضحون بأرواحهم وأموالهم فى سبيل الله والخير والبر والمعروف . ويذكر

الله عز وجل أن الناس يتطلعون إلى متاع الحياة الدنيا وزينتها من الأموال والبنين والنساء ، وأن الله عنده للمتقين حسن المآب .. وهنا ينتهى هذا الربع الرابع من الجزء الثالث من كتاب الله الحكيم .

وفى الربع الخامس تأكيد لحسن مصير المؤمنين عند الله فى الآخرة ، ووصف كامل لهؤلاء المتقين .. ويذكر عز وجل كيف أجمع كل ذى بصيرة نيرة وذهن متيقظ على الإيمان بالله وأن لا إله إلا هو ، وأنه القائم بالقسط ، وعلى حفظ الحياة والوجود بالعدل وبنواميس الحياة التى خلقها وسخرها ، وأنه القوى القادر العزيز الحكيم .، وهنا بعد أن أبان الله عز وجل أن الإنسانية المهذبة وأولى العلم من ذوى البصر والذكاء قد أجمعوا على الإيمان بالله ، يقرر الله عز وجل أن الدين الحق عند الله هو الإسلام . لأنه آخر الأديان ، ولأنه المصدق لجميع الأديان السماوية ، وأن خلاف المخالفين من أهل الكتاب بعد أن جاءهم العلم إنما هو محسوب عليهم ، وهم المسئولون عنه .. ويؤكد الله عز وجل هذه الحقيقة تأكيدا قويا وهى أن الإيمان بالإسلام ضرورى وأن من أسلم به فقد اهتدى ومن تولى فعليه وزر نفسه ، وهنا يبين الله عز وجل سوء أعمال اليهود وسوء مصيرهم ، فقد كفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وقتـــلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وهم لهم العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة.. ويناقش الله جل وعلا هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون .. ويبين الله أن الغلبة والعزة للإسلام ، وأن الله هو الذى بيده ملك السموات والأرض ، وأنه هو الذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأن بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، وهل أعظم فى بيان قدرة الله من أنه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويرزق من يشاء بغير حساب . .

وفى ختام هذا الربع يؤكد الله عز وجل ضرورة طاعة الله ورسوله ، فان تولى عن ذلك وانصرف المعرضون ، فإنهم الكافرون والله لا يحب الكافرين .

وفى الربع السادس يذكر الله اصطفاء الرسل لهداية الناس والبشر أجمعين على مر العصور ، ويقص قصة امرأة آل عمران ، ومولد مريم أم المسيح ، وتربيتها ونشأتها الطاهرة ، وميلاد يحيى لزكريا النبى كافل مريم ، ثم ميلاد المسيح ، وتكليمه

الناس فى المهد بطهارة أمه ، ونشأته ورسالته إلى اليهود ، ومعجزاته وحربهم لدعوته ، وإيذائهم له صلى الله عليه وسلم .

وفى الربع السابع يقص القرآن الكريم قصة جهاد المسيح وأنصاره ، وكيف وقف معه الحواريون فى سبيل تأييد دعوته ونشرها ، ثم يذكر رفع عيسى إلى السماء ، وهذا الرفع حقيقى أى أنه لم يقتل ولم يصلب وإنما شبه لهم ، وقد رفعه الله إلى السماء وسوف ينزل فى آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا وعلما . . . ومن الناس من يرون أن الرفع مجازى ، وأن عيسى مات ودفن ، وأن الأحاديث الواردة فى نزوله أحاديث آحاد لا يعمل بها فى العقائد والمغيبات بالإجماع ، وأنها مع اضطرابها يرويها كعب الأحبار ووهب بن منبه وهما من أهل الكتاب ، وأن من أنكر نزول عيسى فهو مؤمن لا شبهة فى إيمانه ، وقد رد بعض أهل العلم على هؤلاء بكتاب سماه « عقيدة الإسلام فى نزول عيسى عليه السلام » . . ويؤكد القرآن الكريم أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم وأن الذين يجادلون فى أمر عيسى من أهل الكتاب هم كاذبون . . وهنا يدعو القرآن الكريم أهل الكتاب إلى الإيمان برسالة محمد ودعوته وشريعته ، ويقرر أن إبراهيم كان حنيفا مسلما ، ولم يكن يهوديا ولا نصرانيا ؛ وأولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ومحمد عليه السلام والمؤمنون .

وفى الربع الثامن يتحدث الله عز وجل عن أهل الكتاب وخياناتهم ، ويكذبهم فيما نسبوه للرسول عيسى من أنه قد أمرهم بعبادته ، ويقص القرآن الكريم أن الله عز وجل قد أخذ الميثاق على النبيين بأن يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن أتباع الأنبياء حرفوا كتب السماء تحريفا مقصودا ، وأن الإسلام هو دين الله ، ومن يبغ غير دين الله فقد تولى بعد ذلك وأولئك هم الفاسقون ، وينبه الله عز وجل إلى أن محمدا صلوات الله عليه قد آمن بالله وبرسالات جميع النبيين ، ويقرر هذه الحقيقة الأبدية الخالدة ، وهى أن « من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، إلى آخر هذه الإرشادات الرفيعة التى تضمنها هذا الربع من كتاب الله الكريم .

(٤)

وبعد فحسبنا أن نذكر هذه الكلمة المروية عن ابن عباس فى القرآن الكريم ، قال هذا الإمام الحبر الجليل : إن القرآن ذو شجون وفنون ، لا تنقضى عجائبه ،

ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى : أخبار وأمثال ، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، فجالسوا به العلماء ، وجانبوا به السفهاء .

ويروى عن ابن مسعود رحمه الله أنه قال : من أراد علم الأولين والآخرين فليتل القرآن .

هذا ولفظ (القرآن) اسم علم غير مشتق خاص بهذا الكلام المنزل على محمد صلوات الله عليه ، وهذا هو المروى عن الشافعى ، وبه قالت جماعة من العلماء ، وفى رأى أنه مصدر أو صيغة مبالغة مشتقة من القراءة المبالغة فى وجوب قراءته والتعبد به والعمل بما فيه ، فهو من قرأ قرآنا ، مثل : فرق فرقانا ، وهو رأى اللحيانى وجماعة .. والمنقول عن الأشعرى أنه مشتق من قرنت الشىء بالشىء إذا ضممته إليه . وسمى به عنده هو وأصحابه لأن السور والآيات والكلمات والحروف فيه قد ضم بعضها إلى بعض . وقال الفراء : هو مشتق من القرائن ، لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ، ويشبه بعضها بعضا فى الإعجاز والصدق وشرف الدعوة والرسالة . . ويرى الزجاج أنه على وزن فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء فى الحوض إذا جمعته ، وسمى بذلك لأنه جمع السور كما قال أبو عبيدة ، أو ثمرات الكتب السابقة كما قال الراغب ، أو لأن القارىء يظهره من فيه .

ومع ذلك كله فقد نقل هذا اللفظ وجعل علما شخصيا كما ذهب إليه الشافعى ومحققو الأصوليين ، وعلى هذا لا يعرف القرآن ، لأن التعريف لا يكون إلا للحقائق الكلية ، ولعل من عرفه بالكلام المنزل للإعجاز ولو بسورة منه أراد تصوير مفهوم لفظ القرآن ، وكذا من قال كالغزالى إنه ما نقل بين دفتى المصحف تواترا أراد تخصيص الاسم بأحد الأقسام الثلاثة مما نقل بين الدفتين ومما لم ينقل كالمنسوخ تلاوته نحو: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وما نقل ولم يتواتر نحو: ثلاثة أيام متتابعات ، ليعلم أن ذلك هو الدليل، وعليه الأحكام ، من نحو منع التلاوة ، والمس محدثا .

ويرى الصوفيون أن القرآن إشارة إلى الذات التى تضمحل بها جميع الصفات ، فهى المجلى المسمى بالأحدية ، أنزلها الحق تعالى شأنه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مشهد الأحدية من الأكوان ، ومعنى هذا الإنزال أن الحقيقة الأحدية

المتعالية فى ذراها ظهرت فيه صلى الله عليه وسلم بكمالها ، وما ادخر عنه شىء بل أفيض عليه الكل كرما إلهيا ذاتيا ، ووصف القرآن فى بعض الآيات بالكريم لذلك ، إذ أى كرم يضاهى هذا الكرم ، وأنى تقاس هذه النعمة بسائر النعم ؟ وأما القرآن الحكيم فهوية الحقائق الإلهية يعرج العبد بالتحقق بها فى الذات شيئا فشيئا على ما اقتضته الحكمة ، وإلى ذلك أشار الحق تعالى بقوله « ورتلناه ترتيلا » ، وهذا الحكم لا ينقطع أبداً ، إذ لا يزال العبد فى ترق والحق فى تجل ، وأما القرآن العظيم فى قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » فهو إشارة إلى الجملة الذاتية لا باعتبار النزول أولا باعتبار المكانة ، بل مطلق الأحدية الذاتية التى هى فى مطلق الهوية الجامعة لجميع المراتب والصفات والشئون والاعتبارات ، ولهذا قرن بالعظيم ، وأما السبع المثانى فهو ما ظهر عليه فى وجوده من التحقق بالصفات السبع ، وأما قوله تعالى « الرحمن علم القرآن » فهو إشارة إلى أن العبد إذا تجلى عليه الرحمن وجد لذة رحمانية تكسبه معرفة قرآنية فلا يعلم الحق إلا من طريق أسمائه وصفاته .. وأما الفرقان عندهم فإشارة إلى حقيقة الأسماء والصفات على اختلاف تنوعاتها ، فباعتباراتها تتميز كل صفة واسم من غيرها ، لحصل الفرق فى نفس الحق من حيث أسماؤه وصفاته ، فإن اسمه المنعم غير اسمه المنتقم ، وصفة الرضا غير صفة الغضب ، وإليه الإشارة بقوله « سبقت رحمتى غضبى » ، وهى متفاوتة المراتب فى الفضل نظراً إلى أعيانها ، ولهذا حكمت بعضها على بعض كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك » فكانت المعافاة أفضل من العقوبة والرضا أفضل من السخط ، قال أبو سعيد : عرفت الله تعالى بجمعه بين الضدين ، ولكونه صلى الله عليه وسلم مظهراً للقرآن والفرقان كان خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، لأنه ما ترك شيئا يحتاج إليه إلا وقد جاء به ، فلا يجد الذى يأتى بعده من الكمال شيئا مما ينبغى أن ينبه عليه ، قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » وقال تعالى « وكل شىء فصلناه تفصيلا » ، إلى غير ذلك من الآيات . هذا والقرآن يتضمن الفرقان ، والفرقان لا يتضمن القرآن ، لأن تفاصيل المراتب

والأسماء المقتضية لها موجودة فى الجمع ، والجمع لا يوجد فى التفاصيل ، ولهذا اختص بالقرآن محمد عليه السلام .

وبهذه المناسبة نذكر أن السورة من سورة البناء وهى المنزلة ، أو سور المدينة لإحاطتها بآياتها ، أو من التسور وهو العلو والارتفاع لارتفاعها بكونها كلام الله تعالى ، وتطلق على المنزلة الرفيعة كما قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب ؟

وهى جزء من القرآن يشتمل على فاتحة وموضوع وخاتمة .

والله ولى التوفيق ، والمرشد إلى السداد ...

خاتمة هذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، على فضله وتوفيقه وإلهامه .

هذه هي نهاية الجزء الثالث من تفسير القرآن الحكيم ؛ هذا التفسير الجديد الذي وفقني الله إلى كتابته ، وألهمني كل ما فيه من سداد رأي ، وجمال فكرة ، وحسن عرض ، ولطف أسلوب ...

ولست بهذا إلا عارفا لفضل الله علي ، وشاكرا له حسن أنعمه ، وجليل اصطفائه ، لظهور هذا التفسير الجديد على يدي .

وإنها لمعجزة أن يظهر تفسير لكتاب الله ، يجمع إلى أسلوب العصر الحاضر في الفهم والإفهام ، بساطة العرض ودقة الفكرة والجمع بين القرآن وروح مدنية القرن العشرين في التطبيق العلمي لآيات القرآن على مشاهد هذه الحضارة ، الماثلة في كل شيء ، والسائدة في كل مظهر من مظاهر الحياة .

وسوف يتلو هذا الجزء بعون الله وفضله الجزء الرابع ، وبعده أجزاء أخرى ، وسوف لا ينتهي هذا التفسير إلا بظهور الجزء الثلاثين ، الذي أرجو أن يظهر في نهاية العام الجديد .

وإن لي في فضل الله لأملا فسيحا أن يعينني على اجتياز الصعاب ، وتحمل المشاق ، وعلى أن يقوي من عزمي . ويوسع من فهمي ، وعلى أن يشرح من صدري ، وييسر من أمري ؛ حتى ينتهي هذا التفسير الضخم بأجزائه الثلاثين ، التي تكون موسوعة إسلامية جديدة ، تشرح الإسلام وأصوله ومثله ومبادئه أوفى شرح ، وأوسع بيان .

والله ولي التوفيق ، وهو الهادي إلى أقوم طريق ، وإلى سواء السبيل . وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجي

مكتبة الدراسات القرآنية

هذا التفسير الذى يقع فى ثلاثين جزءا والذى صدر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء ، وسوف تصدر باقى أجزائه تباعا ، هو جزء من سلسلة مؤلفات أصدرت بعضها ، والباقى على وشك الظهور ، بعون الله وفضله ، وهى كلها حول كتاب الله ، والقصد أن تكون هذه المجموعة مكتبة إسلامية من القرآن الكريم . وقد أصدرت من هذه السلسلة الإسلامية ، ما يلى :

١ — الذكر الحكيم ، وهو يمثل منهجا جديدا من تفسير كتاب الله — وسيعاد طبعه طبعة جديدة .

٢ — شرح إعجاز القرآن للإمام الباقلانى ، وسيعاد طبعه طبعة جديدة .

٣ — كما صدر أيضا لى بالاشتراك مع لفيف من الأساتذة — شرح على صحيح الإمام البخارى فى تسعة أجزاء ، وقد نشرته مكتبة فدا بمكة المكرمة .. وشرح صحيح البخارى متمم لهذه المكتبة القرآنية .

وسوف يصدر من هذه المكتبة بعون الله وفضله على التوالى الكتب الآتية :

١ — شرح على كتاب (الإتقان فى علوم القرآن) للإمام السيوطى .

٢ — دراسات قرآنية ، وهى دراسات من تأليفى حول كتاب الله الكريم . وتشمل تحديد معنى الدين والسلام والإسلام ورسالة محمد عليه السلام فى القرآن الكريم .

٣ — إعجاز القرآن وهو كتاب ضخم يقع فى ألف صفحة من تأليفى .

٤ — رسالة القرآن إلى الأمم والشعوب فى القرن العشرين وهو من تأليفى أيضا .

وسوف يتولى توزيع هذه المكتبة القرآنية :

١ — مكتبة النجاح فى النجف الأشرف بالعراق .

٢ — مكتبة القرآن بالقاهر ٦١ شارع بور سعيد — الجاميز سابقا — لصاحبها عبد السيد السيد عبد العال حبيب ...

فهرست الجزء الثالث من تفسير

القرآن الكريم